الأخلاق

فـــــي

منــظور إســـــلامي

أ.د.أحمد المهدي عبد الحليم

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ"

قرآن كريم القلم: ٤

قال رسول الله (e):

"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"

حديث شريف

Ethics In Islamic Perspective

By: Ahmed EL-Mahdi Abdel – Halim . Ph. D

ثبت المحتويات

مقدمة الكتاب :

الفصل الأول : ضبط المصطلحات وإيضاح المفهومات

الفصل الثاني : التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان

الفصل الثالث : الأخلاق في الأسرة

الفصل الرابع : الأخلاق في الحياة العامة

الفصل الخامس : أخلاق التبيؤ

الفصل السادس : أخلاقيات الدولة

الفصل السابع : أخلاقيات المهن

الفصل الثامن : أخلاقيات علاقة الدولة المسلمة مع الآخر الديني

الفصل التاسع : أخلاقيات الإسلام في الحرب

الفصل العاشر : نحو أخلاق عالمية دعوة مضطربة

ملاحق الكتاب

١ ميثاق مهنة التعليم والتعلم

٢ ميثاق مهنة الطب في مصر

الأخلاق من منظور إسلامي

مقدمة

أريد بهذا الكتاب أن يسهم في تجلية تصور الدين الإسلامي للأخلاق، استنادا إلى افتراض أن الأزمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية التي يعاني منها الإنسان"الجنس"، في سائر بلاد العالم– متقدمة ونامية على سواء– تعود في التحليل النهائي إلى أنها بما كسبت أيدي الناس– فرادى ومجتمعين– وما أنتجته عقولهم،وما أسفرت عنه سلوكياتهم في جوانب الحياة المختلفة.

وأود بداية أن أشكر لقيادات المعهد العالمي للفكر الإسلامي فضل حسن ظنهم حيث عهدوا إليَّ بتأليف هذا الكتاب، وأعانوا على نشره في الصورة التي بين يدي القارئ، وقد اتُفِق على أن يحاول المؤلف أن يكون مستوى الكتاب في مضامينه وتصميم بنيته، وصياغته، في مستوى يناسب طلاب التعليم الجامعي والعالي – في سائر التخصصات – في مرحلتهم تعليمهم الجامعي الأولى (السنتين الأولى والثانية).

وقد عمدت في بداية مشروع الكتاب – إلى الاستنارة والاستفادة من تصورات علماء أجلاء سبقوني إلى الكتابة عن الأخلاق، فعكفت على القراءة المتأنية لما كتب كل من الماوردي، أبو الحسن على بن حبيب (٣٦٤ – ٤٥٠ هـ) وما كتب د. محمد عبد الله دراز في كتابه " دستور الأخلاق في القرآن: دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن.وما كتب د.يوسف القرضاوي في كتابه " الحلال والحرام " في الإسلام وما كتب الشيخ محمد الغزالي في كتابه: "أخلاق المسلم" ثم ما كتب الأستاذ عبد الحليم أبو شقه، ونشر بعد وفاته في كتاب: نقد العقل المسلم. [١] ومن خلال دراستي لهذه الكتب وغيرها وصلت في شأن مضامين كتابي هذا، وتصميم بنيته، والمصادر الرئيسة التي أعتمد عليها الصورة التي تقرؤها ومن أبرز ما وصلت إليه ما يلي:

١- أن الأخلاق لا يمكن تصنيفها، ولا يُقْدَر على حصرها؛ نظرا إلى أنها تتغاير، تبعا لتغير الأحوال وتطور العادات في المجتمعات المختلفة وفى المجتمع الواحد عبر مراحل مسيرته التاريخية.
٢- أن تصنيف الأخلاق إلى نظرية وعملية عملٌ يتجافى – فيما أرى – مع التصور الإسلامي بعامة؛ حيث إن النشاط الإنساني في الرؤية الإسلامية يقع في نظام دائري ممتد، ليس له طرفان، وتقسيم هذا النشاط إلى: عقيدة، وعبادات، ومعاملات، وأخلاقيات تقسيمٌ اصطناعي؛ أريد به إعانة الدارسين على فهم واستيعاب تعاليم الدين، وليس ثمة في التصور الإسلامي

١ انظر ثبت المراجع في آخر هذا الكتاب تحت الأسماء المذكورة

فواصل حاسمة، ولكنها تتفاعل، وحصيلة تفاعلها أكبر من مجرد جمع أجزائها، بمعنى أن عقيدة أحدية الإلوهية تزكي العبادة وتدعم المعاملات والأخلاق، وأن العبادة المخلصة تدعم العقيدة وتزكي الأخلاق، والأخلاق – في جوهرها – عنوان العقيدة الصادقة، وثمرة العبادة المخلصة لله رب العالمين.

ولذا جاء حديث المصطفى (e): " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " حديث صحيح، رواه أحمد في مسنده.

٣- أن ألتزم في استنباط التصور الإسلامي للأخلاق من ثلاثة مصادر أساسية: أولها، القرآن الكريم الكتاب المعجز الذي يُفسر بعضه بعضا ؛ ولذا أوردت آيات قرآنية كثيرة ؛ للبرهنة على الحقيقة المستنبطة في سياقات قرآنية عديدة، وثانيها، سنة الرسول الأمين محمد (e) قولاً وفعلاً وإقراراً. وحَرَصت على عزو كل حديث إلى راويه من الصحابة، وسند روايته. وثالثها، عصر خلافة الراشدين: أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

وجاء هذا الكتاب في عشرة فصول على الوجه التالي:

الفصل الأول: خصصته" **لضبط المصطلحات وتوضيح المفهومات** "؛ بوصف أن التوافق على معاني المصطلحات، وتوضيح المفاهيم يمثلان مفتاح كل علم، فحددت مصطلحات الدين، والتدين، والعبادة، والإسلام، والإيمان، والإحسان.

الفصل الثاني: جعلت عنوانه " **التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان** " وفيه عرضت بعض المعالم الأساسية في المنهج الإسلامي مثل: أحدية الإلوهية، وتصور الإسلام لظواهر الطبيعة، واستخلاف خالق الكون – سبحانه– للإنسان في عمران الأرض،وتزكية مواردها البشرية والطبيعية.

كما أشرت –بإيجاز إلى– " مقاصد الشريعة الإسلامية " وأن التصور الإسلامي يتسم بالعقلانية، فالوحي الإلهي لا يُستوعب إلا بإعمال العقل، كما يتسم بالوسطية، والإيمان بالتنوع والاختلاف فيما خلق الله جلَّ علاه.

أما الفصل الثالث وعنوانه " **الأخلاق في الأسرة** " فقد تناولت فيه مكانة الأسرة في حياة البشر، وأخلاقيات الخِطْبة، و المساواة بين الزوج والزوجة، والقوامة والولاية في الأسرة، وعمل المرأة خارج المنزل، وحقوق كل من الزوجين، وتبادل الحقوق بين الآباء والأبناء.

وفى الفصل الرابع وعنوانه " **الأخلاقيات في الحياة العامة** " عرضت فيه المنكرات في الاعتقاد والتقاليد كالتطير والفأل،و السحر، والتنجيم،و التفاخر بالأنساب، والحلال والحرام في الأطعمة

والأشربة، وتحريم الخمر والربا، والاحتكار، كما تعرضت للمنكرات في الحياة الاجتماعية كالسخرية والنميمة والتنابز بالألقاب، والظن وعدم التثبت،و كراهية انتهاك حريات الناس، والاستخفاف بعقولهم، وانتهاك أموالهم أو أعراضهم.

أما الفصل الخامس وعنوانه: " **أخلاق التبيؤ** " فقد تحدثت فيه عن: ماهية البيئة، وحق الماء، وحق الحيوان، وحق الهواء، وحق تربة الأرض، ثم تعرضت لنظافة الإنسان وتَجُمله، ونظافة البيئة من القاذورات، وأخيراً تعرضت لضرورة: التوقي والتداوي، والحجر الصحي، ودور المؤسسات التعليمية في توعية المنتظمين فيها بأهمية سلامة البيئة.

وجاء الفصل السادس بعنوان " **أخلاقيات الدولة** ".
وقد عنيت فيه بتوضيح ما يلي: مفهوم الدولة في الإسلام ومدى توافقه أو اختلافه عن مفهوم الدولة في كتابات علماء الغرب، وحددت أخلاقيات الدولة في المسئوليات التي يجب أن تنهض بها مثل: ضمان استقلال البلاد المسلمة ونفى تبعيتها، ومسئوليتها عن حياة أرواح المواطنين، وتحقيق حرياتهم في الاعتقاد، وفي الحفاظ على الدين، وتحقيق العدالة والمساواة بينهم، وإشراكهم في شئون مسيرة حياتهم ؛ باستشارتهم في أمور حياتهم ومستقبل أيامهم، والوفاء بحقوقهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والكف عن تعذيبهم وعسفهم، وتمكين حريتهم في الانتقال.

أما الفصل السابع وعنوانه: " **أخلاقيات المهن** ": وقد خصص لحديث عن أخلاقيات بعض المهن والمواثيق التي يفترض أن تحكم سلوكيات العاملين فيها ؛ فعرضت ماهية المهنة، ثم قدمت أمثلة للمواثيق التي تحكم: مهنة العلم والتعليم والتعلم، وأخلاقيات العلماء والمتعلمين، ومهنة الطب، ومهنة القضاء، ومهنة التجارة، وأعمال المصارف، ومهنة المحاسبة. وألحقت بالكتاب في نهايته ملحقين: أولهما عن مهنة التعليم والثاني عن مهنة الطب.

وجاء الفصل الثامن بعنوان " **أخلاقيات الدولة المسلمة بالآخر الديني** "
وبُدئ الفصل ببيان تأكيد الإسلام للأخوة في الإنسانية، وبتصديق الإسلام لما سبقه من أديان رسالية: اليهودية والمسيحية، وأبنت كيف أن وحدة الأديان الرسالية في التوجه لا تنفي أن لكل منها شرعة ومنهاجا، يتمايز به عما عداه. ثم عرضت لموقف كل من اليهودية والنصرانية من الإسلام، ومايَزْت في المسيحية بين الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية، وذكرت أن نزعة الغرب القديمة التي

مثلتها الحملات الصليبية على بلاد المسلمين، وموجة استعمار الدول المسلمة في القرنين التاسع عشر والعشرين لا يزال صداهما يتردد على ألسنة بعض رؤساء الدول الكبرى ومستشاريهم في الغـرب، وأبنت في هذا الفصل أسباب كراهية المسلمين للولايات المتحدة الأمريكية.

أما الفصل التاسع بعنوان " **أخلاقيات الإسلام في الحرب** " فقد جاء لصـيق الصـلة بالفصـل السابق، وفيه أبنت أن الإسلام دين سلام، وليس دين تقاتل. ولكن القتال – وهو كـره للمسـلمين – يحدث بين جماعاتهم، وواجب الأفراد وجماعات المسلمين غير المحاربة أن تسعى للإصـلاح بـين المتحاربَيْن " وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا "الحجرات: ٩ والصلح بين المسلمين المتحاربين واجب أو فرض كفائي. ثم انتقلت إلى معنى الجهاد في الإسلام وأوجهه، وعرضت تحريم الإسلام قتل الآخر الديني إذا لم يكن مسهماً في الحرب بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وعددَّت من حُرِم قتلُهم في هذه الحالة من غير المحاربين (مثلاً) الأطفال والنساء والمسنين والرهبان والأحبـار والرسل التي تحمل رسائل بين طرفي الحرب، وإعطاء الأمان والإجارة لمن يلجئون إلى المسلمين.

وقلت إن الجنوح إلى السلم مطلوب بصورة موازية للاستعدادات للحرب " وَأَعِـدُّوا لَهُـمْ مَـا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ " الأنفال: ٦٠ ثم تعرضت " للتهادن " مع الآخر الديني المحارب، وعقـد اتفاقـات هدنة أو صلح، بعد تفاوض حريص يقظ؛ يقوم به المؤهلون له من المسلمين. ثم الوفاء بالعهد الـذي يصلون إليه، وأبنت أن هذه الاتفاقات ليست مقدسة، وإنما يلزم تعديلها والتغيير فـي بنودهـا عنـد الضرورة.

واختتم الكتاب بالفصل العاشر وعنوانه " **نحو أخلاق عالمية** " **دعوة مضطربة**" وفـي هـذا الفصل عرضت ثلاثة مواقف مِفْصلية هي:

أولاً: بروتوكولات مؤتمر عقد بمدينة كلورادو بالولايات المتحدة الأمريكية فـي مـايو ١٩٧٨ **ويمثل صيحة هَوْجاء نحو تنصير المسلمين**. وفي هذه البروتوكولات وصف الإسلام بأنه أكثر الأديان مناقضة للمسيحية وفي البيان دعوة محمومة لتنصير المسلمين، وتحريض للكنائس المحلية على تنصير المسلمين ومحاولة تنصير المسلمين المقيمين في البلاد الغربية، وخاصـة الطـلاب الذين يدرسون ليتم زرعهم مشاتل للتنصير في بلادهم بعد عودتهم إليهـا، واسـتغلال مجلـس الكنائس العالمي في مثل هذه الحملات، وفي البيان تحريضات قاطعة بإحداث الفتن والكوارث في بلاد المسلمين وتقديم المعونة إليهم دائماً وهم ضعفاء يسهل تنصيرهم وقد عقبـت علـى هـذه الصيحات الآثمة.

ثانياً: بيان صدر عن ما سمَّوه " **برلمان ديانات العالم** " عقد في شيكاجو الذي أُصدر عنه بيان في سبتمبر ١٩٩٣ بعنوان بيان " من أجل أخلاق عالمية " وقد جاء هذا البيان ممثلاً لدعوة تناقض بروتوكولات كلورادو تماماً. حيث تضمن البيان تشخيصاً للوضع العالمي الراهن، ومحاولة للعودة للأديان الرسالية كي تنقذ العالم من أزماته أو تخفف من حدتها وذلك عن طريق الإعلان بصورة واضحة عما سموه أخلاقاً عالمية تحقق الحرية والعدالة الاجتماعية لكل الناس في كل الشعوب وخاصة في المجال الاقتصادي، وحدد البيان دور الإعلام والمؤسسات التعليمية والفنانين في تحقيق المساواة بين الجنسين. وتأكيد أن التأخر والتقدم وجهان لظواهر إنسانية واحدة وقد علَّقت على ما جاء في هذا البيان.

ثالثاً: استعراض لما تردد في الأمم المتحدة وعقدت له لجنة تحضيرية تحت عنوان " **منظمة الأديان المتحدة** " وقد وصفته بأنه ضرب من ضروب الوهم، وسوء الفهم بطبيعة الأديان الرسالية.

وليأذن لي القارئ الكريم أن أقترح عليه أن يبدأ بقراءة مقدمة هذا الكتاب بعناية، ثم يتابع قراءة فصول الكتاب في تواليها – إن كان لديه وقت وطاقة تسمح بقراءة الكتاب كله على فترات غير متباعدة، أما القارئ الذي يرى أنه ليس بحاجة إلى قراءة فصول الكتاب كلها - فيمكنه أن يختار الفصل الذي يستهويه أولاً فيقرؤه، ثم يعود لقراءة الفصول الأخرى في أوقات تالية ؛ ذلك أن فصول الكتاب قد عولجت على أساس أن كل فصل يتناول موضوعاً متمايزاً - وإن لم يكن منعزلاً – عن باقي موضوعات الكتاب، وعولجت في كل فصل أساسيات موضوعه ؛ وذلك بتغطية الأفكار الرئيسة فيه.

* * *

هذا، ما وفق إليه رب العالمين، أضعه بين يدي القراء الكرام، وأؤكد مسئوليتي الفردية عما قلت فيه، وأدع للقراء الكرام حرية التقدير،والحكم على ما يقرؤون.

ولابد لي في نهاية هذه المقدمة أن أشكر لابنتي العزيزة دكتورة إيمان محمد صبري فضلَ قراءتها لمسودات فصول الكتاب، وإبداء ملاحظات قيمة عليها، استفدت منها كثيراً، كما أشكر الأستاذ إبراهيم عبد العزيز عبد الباقي على قيامه بكتابة الكتاب كله على "الكومبيوتر" استعداداً لطبعه.

وما أردت بما قدمت إلا توضيح رؤيتي لتصور الإسلام للأخلاق.

والحمد لله العلي العظيم على توفيقه وهدايته وهو حسبي ونعم الوكيل.

القاهرة: أول أكتوبر ٢٠١١م — أحمد المهدي عبد الحليم

الفصل الأول

ضبط المصطلحات وإيضاح المفهومات

وظيفة هذا الفصل

آثرت أن أخصص هـذا الفصـل لضـبط المصـطلحات، وإيضـاح المفـاهيم التـي يكثـر تداولها في موضوع " الأخلاق من منظور إسـلامي " إيمانـاً منـي بـأن ثمـة عهـداً – غيـر مكتوب – بين المؤلف والقارئ ؛ مغزاه أن يبـذل المؤلـف أقصـى مـا فـي وسـعه ؛ لتجليـة المصطلحات والمفاهيم حتى لا يقع القارئ في حيرة أو التباس أو خلط فـي اسـتيعاب مـا يقـرأ ؛ بسبب غموض المصطلح أو المفاهيم التي تنضـوي تحتـه أو بسـبب تنـوع السـياقات التـي يقع فيها المصطلح أو المفهوم مثل: السـياق الزَمَكـاني، والسـياق اللغـوي، والسـياق المقـامي، والسياق الانفعالي.

وجذر كلمة مصطلح هـو { صَ لُ ح }ومصـدره صـلاحاً وصـلوحاً ؛ والصـلاح ضـد الفساد. والشيء الصالح هو الشيء النافع المناسب. واصْـطُلِح علـى وزن افْتُعِـل، والصـلاحية حسن التهيؤ للعمل، والصلح إنهاء الخصومة بالتوافق.

ولفظ مصطلح يعنى أن فئة مؤهلة للدراسـات المعمقـة فـي مجـال مـن مجـالات العلـوم: الطبيعيـة والاجتماعيـة والإنسـانية والشـرعية أو الفنـون أو الآداب أو الخـدمات اصـطلحت (توافقت) على استعمال لفظ أو تركيب لغوي في غير معنـاه الحقيقـي الـذي وضـع لـه أصـلاً وعلى نقله ليحل بإزاء معنى آخر جديد لعلاقة بين المعنيين.

وقديماً كان لمؤلف عربي (١)جهدٌ رائدٌ في هـذا الصـدد ؛ شـرح فيـه مصـطلحات العلـوم الشرعية واللغوية (الفقه والحديث وعلـم الكـلام وعلـم النحـو) وبعـض علـوم العجـم (غيـر العرب) التي سماها علوم الحقيقة؛ وهي التي تمت ترجمتهـا مـن اللغـات العبريـة والسـريانية والفارسية واليونانية، والتي أسهم في ترجمتهـا إلـى العربيـة عـدد مـن المتـرجمين، اختلفـت جنسياتهم وعقيدتهم ممن أظلتهم " حضارة الإسلام " السـمحة، وأُغـدِقَت علـيهم الأمـوال للقيـام بهذا العمل في وقت مبكر في العصر العباسي.

---

١ - انظر: كتاب مفاتيح العلوم تأليف أبي عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي الكاتب (ت ٣٨٠ هـ أو ٣٨٧ هـ) تحقيق المستشرق الهولندي Vloten,G.van قدمه وعلق عليه محمد حسن عبد العزيز ضمن سلسلة الذخائر التي أصدرتها الهيئة العامة لقصور الثقافة. القاهرة (٢٠٠٤ م)

هذا، وضبط المصطلحات يتم – عادة – في نمطين: أولهمـــا؛ نمـــط معـــاجم المصـــطلحات، ومن نواقصه اللجـــوء – أحيانـــاً – إلـــى التعريـــف اللفظـــي ثنـــائي الطـــرف. وثانيهمـــا نمـــط الموسوعة؛ وفيه يتم التوسع في تحليـــل المصـــطلحات إلـــى المفـــاهيم التـــي تكوِّنها،وتقـــدم فيـــه البراهين والأمثلة التي من شأنها تجلية المفهوم فـــي مقـــالات – قصـــيرة أو متوســـطة أو طويلـــة – وسوف ألجأ في تحديـــد المصـــطلحات وإيضـــاح المفـــاهيم إلـــى هـــذا الـــنمط فـــي معظـــم المصطلحات،والمفاهيم؛ وأرجو أن يوفقني الله إلى الصواب.
والمصطلحات التي سوف أحاول ضبطها هي:

- الدين.
- التدين.
- العبادة.
- الإسلام والإيمان والإحسان.
- الأخلاق.

أولاً: مصطلح الدين

جذر هذا المصطلح هو الفعل الماضـــي " دان "ومعنـــاه – لغـــة – خضـــع، وذلّ ومصـــدره: دِين، وجمعه أديان، ومرادفه ديانة وجمعها ديانـــات. يقـــال دان بالإســـلام (مـــثلاً): اتخـــذه دينـــاً وتعبد به. ودان فلانٌ نفسه: حملها على مـــا تكرهـــه. ويســـتعمل الفعـــل " دان " بمعنـــى اعتـــاد، سواء أكان ما اعتاده الشخص خيراً أو شراً. والـــدين والديانـــة اســـم لجميـــع مـــا يُعبَـــد بـــه الله سبحانه وتعالى، ومرادفـــه " المِلَّـــة". ويعنـــى الـــدين – أيضـــاً – الاعتقـــاد بالجنـــان والإقـــرار باللسان، وعمل الجوارح بأركان الدين – والديَّان اسم مـــن أســـماء الله الحســـنى، وتعنـــى اللفظـــة – أيضاً - القهَّار والحاكم والمُجازِي على الخير والشر [1]

ويستنبط من هذه التقدمة اللغوية أن كل ما يُتَعبد به – أيـــا كـــان – يـــدخل تحـــت مصـــطلح " دين " فقد جاء في القرآن الكريم " **قُلْ يَأَيّهَا الْكَـــافِرُونَ * لاَ أَعْبُـــدُ مَـــا تَعْبُـــدُونَ * وَلاَ أَنـــتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مّا عَبَدتّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُـــدُ * لَكُـــمْ دِيـــنُكُمْ وَلِـــيَ دِينِ** " الكافرون: ١– ٦

---

١ - لسان العرب، والمعجم الوسيط مادة (دان)

هذا، وقد تنوعت الأديان بين أديان رسولية أوحى بها الله سبحانه وتعالى إلى أنبيائه (اليهودية والمسيحية والإسلام) وجمعت نصوصه في كتاب يقدسه أتباع الديانات الرسالية- وأديان وضعية. وأبدأ بذكر أمثلة للأديان الوضعية ؛ لأفرغ – من خلال هذا الكتاب – لعرض رؤية الإسلام الحنيف للأخلاق.

الأديان الوضعية

من أبرز الأديان الوضعية التي تواضع عليها بعض البشر في أنحاء العالم ما يلي (١):

- **الهندوسية:** بدأت في القرن السادس عشر قبل الميلاد في الهند، وانقسمت إلى مدارس فكرية ؛ أهمها البوذية.

- **الزرادشتية:** ديانة قديمة أسسها " زرادشت " فارسي الأصل في القرن الثالث قبل الميلاد، ويعبد المؤمنون بها النار، ويؤمنون بصراع الخير والشر، وانتصار الخير في الحياة الآخرة.

- **البوذية:** نشأت في الهند في نهايات القرن السادس عشر – كما قلت قبلاً – وكانت نشأتها تمرداً على بعض تعاليم الهندوسية، ودخلت الصين، ثم انتشرت في أرجاء قارة آسيا ؛ وكانت هي الديانة الوطنية في اليابان لمئات السنين.

- **الكونفوشية:** ديانة صينية، قامت على تعاليم الفيلسوف الصيني كونفوشيوس (ت ٤٧٩ قبل الميلاد) ولا يؤمن أصحابها بإله واحد، أو بحياة أخرى غير الحياة الدنيا، وليس لها نُظم، ولا علماء دين، وتؤكد على الأخلاق؛ ممثلة في توقير الآباء والأجداد والأسلاف، وفى احترام سلطة الحكومة، وضرورة أن يستند حكم الناس إلى أخلاق سامية في نظر المجتمع.

وقد تطورت الكونفوشية إلى "كونفوشية حديثة " في القرن الحادي عشر الميلادي إلى القرن التاسع عشر ؛ معتمدة على القيم الأخلاقية والفلسفية لدى اليابانيين. وحينما سيطر الشيوعيون في الصين على الحكم عام ١٩٤٩م حاربوا " الكونفوشية " والأديان الأخرى ؛ فهاجر أتباع هذه الديانة الوضعية إلى تايوان، وحين خفقت الحكومة الشيوعية في الصين من محاربتها "الكونفوشية " ازدهرت الديانة مرة أخرى.

---

١ - راجع (مثلاً) الموسوعة العربية العالمية، الرياض:مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع. الطبعة الثانية.

- **الطاوية:** نشأت جذورها مبكرة في الصين، وبدأ تطورها كديانة منذ القرن الثاني قبل الميلاد. وتنادى تلك الديانة بتحقيق هدفين هما: السعادة والخلود. وللطاوية شعائر وصلوات وأسحار، ومنها حبس الأنفاس، وقراءة نصوص دينية. ويشيع بين أتباع هذه الديانة التنجيم والشعوذة، والاتصال بالأرواح، وتعدد الآلهة التي تعبد من دون الله.

- **الشنتو:** الديانة الوطنية في اليابان ؛ تطورت من معتقدات محلية شعبية. ويعبد أتباعها الأرواح والشياطين، ويعتقدون أن الشياطين تحل في كل الكائنات الحية، وفى الشجر وفى الحجر.

هذا، وعلى الرغم من أن البوذيين وأتباع الشنتو يستخدمون نفس المعابد – فإن الشنتو لم تستطع الخلوص إلى معتقدات عن الخلاص في الحياة الدنيا أو الحياة الآخرة مثلما حدث في البوذية. وتدعم حكومات اليابان منذ القرن التاسع عشر ما يطلقون عليه "الشنتو الوطنية " التي تؤكد دور الشعائر الدينية والأصل الإلهي للإمبراطور وإن تكن قد ألغت هذا الأصل بعد الحرب العالمية الثانية في القرن العشرين الميلادي.

الأديان الرسالية المنزلة

الديانات الرسالية هي الأديان الموحى بها من عند الله، ولكل منها كتاب مقدس وهى: اليهودية، والمسيحية والإسلام، و اختتمت الأديان الرسالية بالإسلام الحنيف. وسبقت الإسلام ديانات نبوية أخرى ففي القرآن الكريم:

§ **" كَانَ النّاسُ أُمّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النّبِيّينَ مُبَشّرِينَ وَمُنذِرِينَ** " البقرة ٢١٣

§ **" وَإِن مّنْ أُمّةٍ إِلاّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ** " فاطر:٢٤

§ **" وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَىَ أُمَمٍ مّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَآءِ وَالضّرّآءِ لَعَلّهُمْ يَتَضَرّعُونَ** " الأنعام:٤٢

والكتاب الذي بين يديك أريد به أن يجلى التصور الإسلامي للأخلاق، وقد خصصنا الفصل الثاني منه لإجمال القول في هذا التصور – إن شاء الله – ونفصِّل القول فيه في باقي فصول الكتاب

ونتابع هنا بقية المصطلحات التي يكثر جريانها في هذا المؤلف ونحوه.

ثانياً - مصطلح التدين

يقال: دان بالإسلام، وتدين بالإسلام أي اتخذه ديناً له.

ويقول العرب: " التدين اعتقاد بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان ".

والفرق بين مفهوم الدين، ومفهوم التدين – لدى المؤمنين بالرسالات المنزلة – هو أن الدين تنزيل ٌ إلهي، والتدين عمل بشري إنساني ؛ فالدين الإسلامي خطاب ٌ رباني مقدس أوحى به إلى رسول ليبلغه للناس أجمعين. وينصب هذا الخطاب على نشأة الوجود الطبيعي والوجود الاجتماعي، والصلات والعلاقات الوثقى بينهما، كما ينصب على دور الإنسان في الحياة ؛ بوصفه أكرم مخلوقات الله، والمستخَلف عنه - سبحانه – في عمران الأرض، والمسخر له – بسلطان الله – ما في السماء والأرض وما بينهما. " **يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُواْ لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ** " الرحمن:٣٣ وفسِّر "السلطان " في هذه الآية الكريمة بأنه العقل، وأنه البرهان، والحجة الملزمة.

وخطاب الإسلام هو ما جاء في القرآن الكريم، وما أُوحِي به إلى الرسول (e)ليبلغه للناس أمراً ونهياً، أو ليستنه فعلاً، أو ليقضي به حُكماً. ويستوي في هذا ما هو قضاء في أمور الناس وتلك هي "الشريعة " أو في آداب تعاملهم في مجالات الحياة المختلفة. وتلك هي " الأخلاق، وما هو قضاء في إسلامه القلب واللسان والجوارح لله ويتمثل هذا في شعائر إسلامية وتلك هي " العبادات ".

والإسلام " **الدين** " على الوجه الذي أسلفناه هو التصميم الإلهي المكتمل الأمثل الذي رسمه خالق الكون لمخلوقاته، وهو – تعالى وتنزه – عليم بنوازع وتركيب كل منها في النشأة والمسار والمصير، أما " التدين " فهو عمل إنساني تصدق عليه المراوحة بين الكمال والنقصان، والتحول والتغير، وهما صفتان انماز بهما الإنسان في كل زمان ومكان. إنه – " التدين "- قراءات إنسانية للنص الإلهي الأقدس، الذي جاء مسطوراً في القرآن، ومنثوراً في كتاب الكون الواسع، وتنشأ عن هذه القراءة استجابات فكرية وعملية ؛ تتباين في قربها أو بعدها، وفى مدى تطابقها أو انحرافها عن الأحكام والقيود والضوابط المكونة لبنية النص الإلهي وروحه. ويصدق هذا الوصف على تدين الأفراد والجماعات والمجتمعات والأمم.

ومغزى إلحاحي على تمايز التدين عن الدين هـو ألا ينسـب الـدين للإنسـان، لأن الـدين – في ذاته ولذاته – نمـوذج مقـدس ؛ لا تنفـك عنـه القداسـة، ولا يفارقـه الكمـال. وأرى أننـا نخطئ خطأً بالغاً عندما نتحدث عن إسلام أبى ذر أو إسـلام ابـن سـينا أو الغزالـي أو إسـلام الظاهرية أو إسلام السنة، أو إسلام الشيعة ؛ لأن هذا هو " تـدين " كـل فـرد أو كـل جماعـة مما ذكر، وليس الإسلام **الدين**.

وهكذا؛ يجب أن يستقر في أفهامنا، وأن يتبـدى فـي سـلوكنا أن الإسـلام خطـاب إلهـي كليٌّ مُوَحّى به، لا تنوع في أصله، وإنمـا يصـدق التنـوع علـى " التـدين " بمعنـى التصـور البشرى الذي يراه أتباع الدين بعيون عقـولهم، ومـن خـلال عدسـات بصـائرهم ؛ وعدسـات البصيرة متنوعة – كعدسات البصـر – مسـتوية ومحدبـة ومقعـرة – وعنهـا وفيهـا ينشـأ " التدين " في الدين الواحد.

وفى عبارة أخرى أقول: إن الدين الإسلامي – في جـوهره – نصـوص دينيـة منزلـة مـن لدن حكيم خبير ؛ مصادرها الأساسية: القرآن الكريم، والسـنة النبويـة المشـرفة، التـي تتكامـل مع القرآن، حيث تشرح آياته الكريمة، وتفصِّل ما جـاء فـي القـرآن مجمـلاً، وتخصـص مـا جاء عاماً أو غامضاً، وهذا الجوهر ثابـت لا يتغيـر، بمعنـى أنـه متجـاوز للزمـان وللمكـان وللأوطان، أما المتغيرات فهي في التدين، ومستقرها الواقع الذي يجـب أن يفقهـه مـن ينزلـون النصوص الدينية على الواقع المعيش، الذي يتسم بالتغير فـي معادلـة وجوديـة ثلاثيـة الأبعـاد، قوامها الزمان والمكان والإنسان، الذي يراد أن تُفَسَّرَ النصوص مـن أجلـه، ليعمـل علـى هـدى منها، ويلتزم بها في ضوء ما هو متاح له من حرية، ومن اختيار عقلاني شرعه الإسلام.

- " **فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** " الكهف: ٢٩
- " **أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىَ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ** " يونس: ٩٩

ومما يتصـل بمصـطلح الـدين ومصـطلح التـدين مصـطلح علـوم الـدين، (الفقـه والتفسير والحديث وعلم الكلام وعلم أصـول الفقـه ونحوهـا) وقـد يكفـى فيهـا أن نقـول: إن علوم الدين جاءت متأخرة عن الدين، وهى في جملتها تمثـل رؤيـة إنسـانية لنصـوص الـدين، ولكنها ليست الدين، إنها عمل بشري إنساني بادر به أئمة العلماء في كـل مجـال مـن مجـالات الفكر والنظـر، ونـواحي التطبيـق الفعلـي والعمـل الإنسـاني ؛ فهـي إذن قـراءات مختلفـة لنصوص الدين، وتفسيرات متباينة – أحيانـاً – للمواقـف والأحـداث، برؤيـة إنسـانية؛ تتنـوع وتختلف تبعاً لمعطيـات الزمـان والمكـان والإنسـان، وتبعـاً للمسـتويات العقليـة والمعرفيـة والاجتماعية والتقنية التي أتيحت لكل عالِم ومؤلِّف.

وهي أقوال بشرية ؛ و ليست نصوصاً مقدسة ؛ والموجـود منهـا حتـى اليـوم حصـيلة تشهد بأن علماء الدين - عبر العصور – بـذلوا أقصـى مـا فـي وسـعهم، للتنظيـر والتفسـير والتأويل وإنزال النصـوص الدينيـة علـى الوقـائع الحياتيـة المعيشـة، حتـى اسـتوت هـذه النصوص على النحو الماثل في كل منها، وهـي جهـود لا ينكرهـا إلا جاحـدٌ أو مكـابرٌ أو ذو هوى ؛ ويبقى باب الاجتهاد في هذه العلوم مفتوحاً على مصراعيه، وتبقـى الحاجـة ملحـة إلـى متابعة الاجتهاد في علوم الدين وتطويرها؛ وفقاً لمـا أحدثـه التطـور العلمـي، والتقنـي والفنـي والتواصلي. ومما يسعد به كل مفكر وكـل إنسـان سَـوِّي تكـاثر الـدعوة إلـى تجديـد الفقـه الإسلامي في كافة جوانبه تحت عناوين مختلفة سوف نشـير إلـى بعـض منهـا – بعـون الله – في الفصول التالية من هذا الكتاب.

ثالثاً- مصطلح العبادة:

جذر الكلمة هو الفعل الثلاثي (عَبَـدَ)، وقـد وردت فـي القـرآن الكـريم بمعنـى اتخـذ الله سبحانه وتعالى إلهاً ؛ دونما تعدد أو شِرك. ولنتأمل سوياً الآيات الكريمة التالية:

- " **قُلْ يَأَيّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِـدُونَ مَـآ أَعْبُـدُ * وَلاَ أَنَـآ عَابِدٌ مّا عَبَدتّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُـدُ * لَكُـمْ دِيـنُكُمْ وَلِـيَ دِيـنِ** " الكافرون:١–٦
- " **لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً للّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرّبُونَ** " النساء: ٥٠

ووردت كلمة " عبد " في القرآن الكريم على أنهـا مفهـوم اجتمـاعي ؛ يقابـل مفهـوم الحر؛ وذلك في قوله تعالى في القصاص: " **الْحُـرّ بِـالْحُرّ وَالْعَبْـدُ بِالْعَبْدِ وَالاُنثَـىَ بِـالاُنْثَىَ** " البقرة: ١٧٨

وفى قوله تعالى " **ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْداً مّمْلُوكاً لاّ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ** " النحل: ٧٥

وبسبب ثنائية الدلالة المعجمية للفظ " عَبْد " نشأ التباس فـي عقـول بعـض النـاس بـين عبادة الله سبحانه وتعالى والاسـتعباد أو العبوديـة – لغيـر الله – بـالمعنى الاجتمـاعي، وهـى العبودية التي تفرضها الثروة أو السلطة المستبدة أو القـوة علـى الناس،الـذين ولـدتهم أمهـاتهم أحراراً، وعَدَّهم الله – جل علاه – أكرم من خلَق، وجعلهم خلائفـه فـي عمـران الحيـاة الـدنيا. وسخر لهم ما عدا الإنسان في الوجود الطبيعي.

وتمادى بعض المفكرين بسبب من هـذه الثنائيـة فـي الدلالـة المعجميـة للكلمـة – فـأطلق مقولة " لا سلطان على عقل الإنسان إلا للعقل " وهذا إنكـار صـريح للـوحي، وتسـوية ظالمـة بين عبادة الله – جل في علاه – واستعباد البشر وعبوديتهم.

وفى محاولة لدفع هذه المقولة وبيان فسادها نقول:

إن العبودية – لغير الله - مـن الرمـوز الوجوديـة، سـواء أكانـت أفـراداً أم أيـدلوجيات أم سلطة حاكمة، أم ثروة أم عبادة الـذات - يتجلـى فيهـا معنـى الذلـة، والخضـوع، والتـذلل، والخوف، وهى مناقضة لعبادة الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، وليس له كفوا أحد.

وفى مثل هذه العبودية تغيب الحريـة، ويغيـب الاختيـار، وتغيـب القـدرة علـى اتخـاذ القرار، ويتحول فيها الإنسان إلى شيء، يتداول بأساليب استبدادية. أمـا عبـادة الله فهـي عبـادة لا إكراه فيها ؛ يقوم بها أناس عقلاء بكامل حرياتهم دونمـا خـوف أو قهـر أو اسـتبداد، وهـى عبادة يلتزم فيها عباد الله بطاعته والخضوع له، تعظيماً وإجـلالاً، وتُجلِّـى هـذه المعـاني كافـة: نصوص قرآنية كريمة، واقرأ معي قول الحق تبارك وتعالى:

- **"وَقُلِ الْحَقّ مِن رّبّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ"** الكهف: ٢٩
- **"لاَ إِكْرَاهَ فِي الدّينِ قَد تّبَيّنَ الرّشْدُ مِنَ الْغَيّ فَمَنْ يَكْفُـرْ بِالطّـاغُوتِ وَيْـؤْمِن بِاللّـهِ فَقَـدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ "** البقرة: ٢٥٦
- **" وَلِلّهِ الْعِزّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـَكِنّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ"** المنافقون ٨
- **" فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَـن يَعْـمَلْ مِثْقَـالَ ذَرّةٍ شَـرّاً يَـرَهُ "** الزلزلة:٧، ٨
- **" نَبّىءْ عِبَادِي أَنّي أَنَا الْغَفُورُ الرّحِيمُ * وَأَنّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الألِيمُ "**الحجر:٤٩، ٥٠

وهكذا يستبين أن اللهَ رحيمٌ بعباده، وكان من رحمته – تعـالى وتنـزه – معاملـة عبـاده وتربيتهم بنوعي التربية كليهما: الترغيب والترهيب.

وكم كان "فخر الرازي " حكيماً في تفسيره لقوله تعالى في سـورة الفاتحـة " إيـاك نعبـد " حيث قال: " العبادة عبارة عن الإتيان بالفعل المأمور بـه علـى سـبيل التعظـيم " – وأضـيف إلى هذه المقولة – وليس على سـبيل الخضـوع ولا التـذلل ؛ ولكنـه تـوقير وشـكر، وإقـرار بالنعمة.

وصدق الله العظيم مخاطباً رسوله الأمين " **يَمُنّونَ عَلَيْـكَ أَنْ أَسْـلَمُواْ قُـل لاّ تَمُنّـواْ عَلَـيّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللّهُ يَمُنّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنُ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**" الحجرات ١٧

ثم جاء من بعده الإمام الشيخ محمد عبده فقال في تفسير الآية ذاتها " إياك نعبد " ما يلي:

"ما العبادة؟ يقولون هي الطاعة مع غاية الخضوع، وما كل عبارة تمثل المعنى تمام التمثيل وتجلّيه للأفهام واضحاً ؛ لا يقبل التأويل ؛ فكثيراً ما يفسرون الشيء ببعض لوازمه ويعرّفون الحقيقة برسومها، بل يكتفون أحياناً بالتعريف اللفظي (المعجمي).....ومن ذلك هذه العبارة التي شرحوا بها معنى العبادة؛ فإن فيها إجمالاً وتساهلاً.

ونحن إذا تتبعنا آي القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب للفظ " عَبَدَ " وما يماثلها ويقاربها في المعنى مثل: خَضَعَ، وخنع، وأطاع، وذلَّ - نجد أنه لا شيء من هذه الألفاظ يضاهى " عَبَدَ " ويحل محلها ويقع موقعها. ولذلك قالوا إن لفظ " العباد " مأخوذ من العبادة ؛ فتكثر إضافته إلى الله تعالى، ولفظ " العبيد " تكثر إضافته إلى غير الله تعالى ؛ لأنه مأخوذ من العبودية بمعنى الرّق. وفرق بين العبادة والعبودية بذلك المعنى " [1](١)

ومما يدعم رؤية فخر الرازي، ويرجح رؤية الإمام محمد عبده – أن جمع عبْد على "عبيد " جاء في القرآن خمس مرات فقط، ووردت كلها في مقام نفى الظلم عن الله– جل جلاله – في مثل قوله: " **وَأَنّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاّمٍ لّلْعَبِيدِ**" آل عمران: ١٨٢

وتكرر نفس اللفظ لوصف انتفاء الظلم عن الله – سبحانه وتعالى – في السور التالية: الأنفال ٥١ وفى الحج: ١٠، وفصلت: ٤٦، وق: ٢٩ أما جمع عبد على عباد الله، فقد وردت (لفظ عباد) مضافة إلى لفظ الجلالة. وإلى الضمائر المختلفة العائدة إلى لفظ الجلالة ١٢٨ مائة وثمانية وعشرين مرة

وفى لسان القرآن الكريم جاء لفظ عباد مضافاً إلى اسم الله من أسماء الله " عباد الرحمن ": " **وَجَعَلُواْ الْمَلاَئِكَةَ الّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرّحْمَـَنِ إِنَاثاً** " الزخرف: ١٩ ووصف كل من أنبياء الله ورسله بكلمة " عبْد " واقرأ معي قول الحق تبارك وتعالى:

- " **اصْبِر عَلَىَ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأيْدِ إِنّهُ أَوّابٌ**" ص:١٧
- " **لّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً للّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرّبُونَ وَمَن يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً** " النساء: ١٧٢
- " **الْحَمْدُ للّهِ الّذِي أَنْزَلَ عَلَىَ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لّهُ عِوَجَا** " الكهف: ١
- " **سُبْحَانَ الّذِي أَسْرَىَ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَىَ الْمَسْجِدِ الأقْصَى** " الإسراء: ١

---

[1] عبده، الأمام الشيخ محمد، تفسير الفاتحة. القاهرة: مكتبة الآداب قدم له محمد رشيد رضا منشئ مجلة المنار الإسلامية (١٩٨٦ م)

هذا، وقد جاء في الذكر الحكيم آيات عـدة؛ فـي سـورة الحِجْـر تقـص حـواراً طويلاً حول خلق: الإنسان والجـان والملائكـة وسـجود الملائكـة كلهـم أجمعـين لله إلا إبليس ؛ أبَى أن يكون مع الساجدين، وهدد بغواية البشـر أجمعـين إلا المخلصـين مـنهم في عبادة الله، واختتم الحوار بقول الله - جل وعز – لإبليس:

- " **إِنّ عِبَادِي لَـيْسَ لَـكَ عَلَـيْهِمْ سُـلْطَانٌ إِلاّ مَـنِ اتّبَعَـكَ مِـنَ الْغَـاوِينَ * وَإِنّ جَهَـنّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ** " الحجر:٤٢، ٤٣
- " **إِنّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىَ بِرَبّكَ وَكِيلاً** " الإسراء:٦٥

وهكذا يتضح الفرق بين عبادة الله – جـل جلالـه – وعبوديـة الإنسـان لغيـر الله ؛ فالعبوديـة مفروضة – عادة – بقوة السلطان أو المـال أو الجـاه أو الحاجـة. وتبقـى الحقيقـة الإسـلامية شامخة وناصعة في أن كل من خلق الله. وما خلق فـي السـموات والأرض ومـا بينهمـا كلهـم من صنع الله تبارك وتعالى، وكلهم يسبحون بحمـده، ويشـكرونه علـى نعمائـه، وإن لـم نفقـه تسبيح بعض مما خلق الله.

رابعاً- مصطلح الإسلام

جذر الكلمة في اللغة: (سَ لِ مَ) يقال: سَلِم فلان من مرضه: بـريء، فهـو سـالم وسـليم، وأَسْلَم: تعنى - لغة – انقاد، ودخل في دين الإسلام، وآمـن بعبـادة إلـه واحـد، لا شـريك لـه. وسلَّم على القوم: حيَّاهم بالسلام.

والإسلام هو خاتم الأديـان الرسـالية الثلاثـة: اليهوديـة والنصـرانية، والإسـلام الحنيـف خاتمها، ورسوله المصطفى محمد بن عبد الله بن عبـد المطلـب، وظهـر الإسـلام فـي القـرن السابع الميلادي، حين نزل الوحي عليه وهو يتعبـد فـي غـار حـراء " **يَأَيّهَـا الْمُـدّثّرُ * قُـمْ فَأَنذِرْ *وَرَبّكَ فَكَبّرْ *وَثِيَابَكَ فَطَهّرْ * وَالرّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ** "المدثر(١- ٦)

وبدأ الإسلام بدعوة الرسول لعشيرته الأقربين" **فَلاَ تَدْعُ مَـعَ اللّـهِ إِلَـهاً آخَـرَ فَتَكُـونَ مِنَ الْمُعَذّبِينَ *وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقْرَبِينَ*وَاخْفِضْ جَنَاحَـكَ لِمَـنِ اتّبَعَـكَ مِـنَ الْمُـؤْمِنِينَ*فَـإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنّي بَرِيَءٌ مّمّا تَعْمَلُونَ*وَتَوكّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرّحِيمِ**"الشعراء:٢١٣_ ٢١٧

وأُنزل القرآن الكريم باللغة العربية " **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِـن رّسُـولٍ إِلاّ بِلِسَـانِ قَوْمِـهِ لِيُبَـيّنَ لَهُمْ فَيُضِلّ اللّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** إبراهيم: ٤

وعلى الرغم من نزول الوحي القرآني باللغة العربية فإن الإسلام لا يمكن أن يطلق عليه أنه دعوة عربية ؛ بل إنه دعوة إنسانية، الخطاب فيها موجه للناس جميعا في جميع الأصقاع والأعصار، إنه دعوة إنسانية، تتجاوز حدود الزمان والمكان والإنسان. إنه نصوص مقدسة ثابتة لا تتغير أنزلت من لدن خالق السموات والأرض والخطاب فيها ليس موجهاً للمسلمين وحدهم ؛ وإنما هو موجه إلى البشر جميعاً ؛ دونما أدنى تفرقة تبعاً للون أو للسلالة أو للموقع الجغرافي أو للقومية أو للعقيدة الدينية أو للزمان. وتلك حقيقة مستخلصة من نوع الخطاب القرآني – كيفاً وكماً – الموجه إلى الناس وذلك على الوجه التالي:

أ – الخطاب الموجه للإنسان مفرداً وجمعاً (إنسي - إنسان – أناس، أناسي – الناس) جاء ٢٣٩ مائتان وتسع وثلاثون مرة.

ب- الخطاب الموجه إلى النفس البشرية – أياً كانت – ٢٨٧ مائتان وسبع وثمانون مرة أي أن خطاب القرآن الكريم الموجه إلى عامة البشر وصل إلى ٥٢٦ خمس مائة وست وعشرون مرة.

ج – وحين نقارن هذا العدد بالخطاب الموجه إلى الذين آمنوا نجد أنه وصل إلى ٢٥٨ مائتين وثمانية وخمسين مرة [١].

ويستخلص مما سبق أن الإسلام مَعْنىٌ في المقام الأول بالإنسان (**الجنس**) دون نظر إلى سلالة أو لون أو عقيدة أكثر من عنايته بالخطاب إلى من آمنوا به أو بدين كتابي سبقه.

وأجد لزاماً في هذا المقام أن نحسم – هنا – الجدل القائم حول أمرين مهمين:

أولاً:التفرقة بين الإسلام، والإيمان، والإحسان:هل هي تفرقة في النوع أو في الدرجة ؟

لقد دار جدل كثير حول التفرقة بين مفهوم الإسلام ومفهومي: الإيمان والإحسان، وفى تراثنا الفكري والفقهي – بخاصة – كتابات مايزت بين هذه المفهومات الثلاثة، وفي محاولة لحسم هذا الجدل نقول:

الإسلام: ذكر لفظ الإسلام في القرآن الكريم في مثل قول الحق تبارك وتعالى ما يلي:

§ " **إِنّ الدّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلاّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ** " آل عمران: ١٩

---

١ محمد فؤاد عبد الباقي (بدون تاريخ) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: القاهرة: دار ومطابع الشعب

وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ " آل عمران: ٨٥

ويدل السياق في الآيتين السابقتين على أن الإسلام بما انماز به عن الأديان الرسالية السابقة له (اليهودية والمسيحية) في العقيدة والشريعة والمعاملات. وجوهر هذا الدين أو كينونته مجسمة في حديث الرسول (e) اتفق فيه البخاري ومسلم ونصه:

"بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً "

ويلحظ بجلاء في الآية ١٩ في سورة آل عمران أن أتباع اليهودية والمسيحية أنكروا الإسلام لا عن جهل به، وإنما عن ظلم واستعلاء ومكابرة، وذلك على الرغم من أن التوراة اليهودية والإنجيل المسيحي بشَّرا بالإسلام الدين.

§ " **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبَنِي إِسْرَائِيلَ إِنّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُم مّصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَيّ مِنَ التّوْرَاةِ وَمُبَشّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمّا جَاءَهُم بِالْبَيّنَاتِ قَالُواْ هَـَذَا سِحْرٌ مّبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنِ افْتَرَىَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىَ إِلَى الإِسْلاَمِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ** " الصف: ٦، ٧

ولم يقتصر إنكار أتباع اليهودية والمسيحية لإسلام على مجرد الإنكار؛ بل زاد ظلمهم واستشرى حين دعوا المسلمين إلى أن يتهودوا ويتنصروا.

- " **وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَىَ تَهْتَدُواْ** " البقرة: ١٣٥
- "**وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنّةَ إِلاّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىَ**" البقرة:١١١
- " **أَمْ تَقُولُونَ إِنّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَىَ** " البقرة ١٤٠

وإزاء هذا التحدي الظالم والافتراء البين على أنبياء الله ورسله السابقين – وخاصة إبراهيم عليه السلام – جاء رد القرآن الكريم على هذه المفتريات:

- " **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مّسْلِماً** " آل عمران: ٦٧
- " **قُلْ بَلْ مِلّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً**"[1] البقرة: ١٣٥
- " **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**" النساء ١٢٥

---

١ الحنيف – لغة – الذي عدل عن الشر إلى الخير وثبت عليه، واستقام بعد اعوجاج. المعجم الوسيط: مادة: حَ نَ فَ

أما لفظ " الإيمان " فقد جاء في القرآن الكريم مقترناً بأل التعريف ١٧ مرة سبع عشرة مرة في مثل:

- " **وَمَن يَتَبَدّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلّ سَوَآءَ السّبِيلِ** " البقرة: ١٠٨

وفسر السبيل بأنه الذهاب بعيداً عن قصد الطريق؛ بمعنى توحيد الإله وطاعته. وفى قوله تعالى:

- " **إِنّ الّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرّواْ اللّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** " آل عمران: ١٧٧

والإيمان في الآيتين نقيض الكفر، أي أنهم استبدلوا الذي هو أدنى (الكفر) بالذي هو أعلى (الإيمان بالله)

وجاء لفظ الإيمان مغايراً للإسلام، والمغايرة لا تعنى " التباين " وإنما تعنى الاختلاف في وجه ما من سمات الشيء، أو جوانب الفكرة وجاء ذلك في قوله تعالى:

" **قَالَتِ الأعْرَابُ آمَنّا قُل لّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـَكِن قُولُوَاْ أَسْلَمْنَا وَلَمّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُمْ مّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنّ اللّهَ غَفُورٌ رّحِيمٌ * إِنّمَا الْمُؤْمِنُونَ الّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَـَئِكَ هُمُ الصّادِقُونَ**" الحجرات: ١٥،١٤ ومعنى " لا يلتكم " في الآية الكريمة: لا يُنقِص شيئاً من أجر أعمالكم.

وفى هذه الآية يبدو أن الإيمان درجة أعلى في الإسلام ؛ إذ إن الإسلام بمعنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا – صيغة إسلامية تُؤمِّن الفرد، وتَعْصِم دمه وماله وعرضه، وقوامها مجرد أعمال سطحية ظاهرة ينطقها الإنسان ويؤديها بجوارحه، ويشهدها الآخرون ؛ وهى عرضة للتباهي، ولمراءاة الناس ؛ لدواع مختلفة، وليست دليلاً قاطعاً على الإيمان القلبي والوجداني الصادق.

وفى الآية الكريمة - أيضاً – ما يدل على أن من سمات الإيمان: اليقين والثبات والاستمرار في الاجتهاد والجهاد في سبيل دعوة الإسلام أولاً:بالمال الذي ينفق تصدقاً، لا وفاء بواجب الزكاة. وثانياً: بالجهاد بالنفس دفاعاً عن الإسلام، و مغالبة لمن يعتدون على ديار المسلمين بالقوة والعنف، والقتال المفروض عليهم وهو كره لهم، والجهاد والاجتهاد في تنوير المسلمين بحقائق دينهم، وتوحيد كلمتهم، حتى يتحقق لهم النصر والعزة التي وعد

بهـــا الله المســـلمين " **وَلِلَّـــهِ الْعِـــزَّةُ وَلِرَسُـــولِهِ وَلِلْمُـــؤْمِنِينَ وَلَـــكِنَّ الْمُنَـــافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ**"المنافقون:٨

ويجدر بي هنا أن أذكر أن المفسرين قالوا في سبب نزول هـذه الآيـات إنهـا نزلـت فـي أعراب بني أسد وهم من أول من دخلـوا فـي الإسـلام، وهـم الـذين قـالوا: آمنـا دون إدراك لحقيقة الإيمان، وهم الذين مَنُّوا على الرسول بأنهم أسلموا، ولم يقاتلوه كمـا فعـل غيـرهم مـن العرب فكان الرد أنهم دخلوا في الإسلام مستسلمين، ولـم تصـل قلـوبهم إلـى مرتبـة الإيمـان المستقر في القلب، والمتشرب في الروح " قل لـم تؤمنـوا ولكـن قولـوا أسـلمنا ولمـا يـدخل الإيمان في قلوبكم " وهذه الدرجة السطحية الظاهرة كافية لتحسـب لهـم ؛ فـلا تضـيع أعمـالهم ولا ينقص من أجرهم عند الله شيئا.

وعلينا أن نستحضر – في هذا المقام – مقولة في تفسـير آيـات القـرآن الكـريم هـي أن " العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب أو المناسبة "

وأخلص مما قدمت إلى تأكيد أن الإيمان درجة في الإسـلام أعلـى مـن مجـرد الإسـلام الذي يعبر عنه بالأقوال والأفعـال الظـاهرة ؛ ليكـون الإسـلام إيمانـاً بتصـديق القلـب بـالله ورسوله، دون شك أو زعزعة أو ارتياب أو اضطراب، ومـن شـأن هـذا التصـديق أن يكـون دافعاً ومحركاً لانطلاق ذاتي لدى الأفراد والجماعات ؛ يحقـق منـافع كثيـرة فـي واقـع حيـاة الناس جميعاً كما جاء لفظ إيمـان مضـافاً إلـى الضـمائر، وجـاءت منـه الأفعـال الماضـي والمضارع والأمر مما يدل على أن الإيمـان يقتضـى أفعـالاً تكـون ترجمـة صـادقة لليقـين العقلي والقلبي.

هذا وقد فرقت السنة النبوية المشرفة بين الإسلام والإيمان ففـي حـديث جـاء فـي المسـند عن أنس عن النبي **(e)** أنه قال: " الإسلام علانية والإيمان فـي القلـب " ومعنـاه أن الإسـلام يتجلى فـي الأقـوال و الجـوارح الظـاهرة ؛ حـين تـنهض بأركـان الإسـلام، وأن الإيمـان ينصرف إلى الباطن المكنون في قلب الإنسـان، الـذي يدفعـه إلـى أن يـنهض بهـذه الأركـان خالصة لوجه اله تعالى.

وفى حديث متفق عليه عن أبى هريـرة، جـاء فـي البخـاري علـى أنـه حـديث ابـن عباس عن النبي **(e)** قال:

" لا يزنى الزاني حين يزنى وهـو مـؤمن، ولا يشـرب الخمـر شـاربها وهـو مـؤمن، ولا يسرق السارق وهو مؤمن، ولا ينتهب النَّهْبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن "

ومغزى الحديث الشريف هو أن كلاً من الزاني وشارب الخمر والسارق والنهَّاب لأموال الناس مرتكب لمعصية لا تخرجه عن دين الإسلام، ولكنه ليس مؤمناً، لأنه إن كان مؤمناً حقاً وصدقاً فإن صدق الإيمان يَعْقِله عن ارتكاب المعاصي التي نهى عنها الإسلام، ويعاقب العاصي من هؤلاء عند ثبوت عصيانه بالعقوبة المحددة في الإسلام، ولكنَّ باب التوبة مفتوح لهؤلاء ؛ ليتوبوا إلى هدى الإسلام القلبي، وليتوبوا عن المعاصي، والله – سبحانه – تواب رحيم.

أما مفهوم " الإحسان " في الإسلام فهو أعلى مرتبة من درجتي الإسلام والإيمان ؛ ذكر ابن تيمية في هذا الصدد أن الإسلام بناء مؤلف من ثلاث درجات: أولها الإسلام و أوسطها الإيمان، وأعلاها الإحسان ؛ فكل محسن مؤمن، وكل مؤمن مسلم، وليس كل مؤمن محسناً وليس كل مسلم مؤمناً. (١)

هذا، والأصل في تقدير أن درجة الإحسان أعلى مراتب الإسلام قول الله تعالى:

- **" ثُمّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ* جَنّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُواْ الْحَمْدُ للّهِ الّذِيَ أَذْهَبَ عَنّا الْحَزَنَ إِنّ رَبّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ "** فاطر: ٣٢، ٣٣

وتأمل هاتين الآيتين يدل على اصطفاء الله لعباده، وإرثهم للقرآن الكريم، وتلك تبعة ضخمة ؛ يجب أن يتكفل المسلمون بمطالبها ومقتضياتها ؛ ممثلة في حسن استيعاب القرآن الكريم، وجعل هديه منهج حياة وصيانته ومقاومة العدوان عليه.

وصُنِّف عباد الله إلى ثلاثة فرقاء:الأول – ولعله أكثرهم عدداً- فقدم في الذكر، ووصف بأنه ظالم لنفسه؛ بمعنى أن سيئاته في العمل تزيد على حسناته. والثاني فريق وسط تتعادل سيئاته مع حسناته، والثالث هو المحسن السبَّاق إلى فعل الخير والتنافس فيه، والمحسنون ذوو فضل كبير، وجزاؤهم في الآخرة عظيم، على نحو ما جاء في الآية الكريمة.

أعود إلى مصطلح الإيمان في السنة النبوية الشريفة فأقول إنه ذكر مجرداً في مواقف محددة كان فيها السؤال عاماً. ما الإيمان ؟ فجاء رد الرسول (e) على مثل هذا السؤال قصيراً، وشاملاً لتصور الإسلام للأخلاق ؛ نجد مثلاً لهذا في حديث شعب الإيمان: "

---

(١) ابن تيمية (بدون تاريخ)، الإيمان، القاهرة: مكتبة أسامة الإسلامية: تحقيق محمد خليل هراس. ص ٨، ١١

الإيمان بضع وسبعون شعبة ؛ أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق " وفى قوله " الحياء شعبة من شعب الإيمان " رواه ابن عمر وابن مسعود وفى قوله (e):

" لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له "

وفى قوله عليه الصلاة والسلام " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " وقوله – أيضاً – " والله لا يؤمن والله لا يؤمن، قيل من يا رسول الله ؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه "

وفى حديث رواه مسلم عن النبي (e) قال فيه " والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم "

مصطلح الإحسان

جذر الكلمة: (حَـ سـِ نَ) ومعناه جَمُلَ، والوصف منها حَسَنٌ للمذكر وحسناء للمؤنث.وجمعه حسان. وأحسن الشيء: أجاد صنعه، ففي التنزيل الحكيم " وصوَّركم فأحسن صوركم ". وأحسن عمله: أتقنه، وحسَّنَ الشيء: زَيَّنه، حتى بدا حسناً، ورقاه وأحسن حالته، والأحسن الأفضل، وفى التنزيل الحكيم " الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ".

و الاستحسان في التعامل مع الناس: الأخذ بما هو أرفق بهم. والحسنة ضد السيئة من قول أو فعل، وقد جاء في التنزيل العزيز " **من جاء بالحسنة فله عَشْر أمثالها** " والحسنة تعنى - أيضاً – النِعمة والصدقة، والحسنى مؤنث الأحسن " **ولله الأسماء الحسنى** ". وقد ورد أَحْسَن (أَفعل للتفضيل) في القرآن الكريم ٣٦ مرة ستاً وثلاثين مرة في مثل: " **وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** " النحل: ١٢٥ وفى قوله تعالى: " **وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** " الإسراء: ٢٥ كما ورد المصدر إحسان ١٢ مرة اثنتي عشرة مرة.

هذا، وقد جاء لفظ "الإحسان " ومشتقاته في القرآن الكريم في سياقات متنوعة، ولكنها غير متناقضة، وتغطى تلك السياقات المتنوعة إطاراً واسعاً يتحدد بأنه " أعمال البر

والصلاح " وفيما يلي بعض دلالات الإحسان، التي تتفق جميعها على معنى البر والصلاح والإصلاح والخير [١] وفيما يلي بعض هذه المعاني:

- الإيمان في " **سَلاَمٌ عَلَىَ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** " الصافات: ٨٠، ٨١
- العمل الصالح في " **إِنّ الّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصّالِحَاتِ إِنّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً * أُوْلَـَئِكَ لَهُمْ جَنّاتُ عَدْنٍ** " الكهف: ٧٠
- العطاء في " **وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ** " القصص:٧٧
- وفى قوله" **وَقَدْ أَحْسَنَ بَيَ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السّجْنِ** " يوسف: ١٠٠
- طاعة الله في " **وَوَصّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً**"الأحقاف: ١٥
- الصبر في" **وَاصْبِرْ فَإِنّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**"هود:١١٥
- المغفرة في " **وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَىَ** " الحديد: ١٠
- طيبُ الصحبة وطيب المُرْتَفَق في " **وَحَسُنَ أُولَـَئِكَ رَفِيقاً** " النساء: ٦٩
- الثواب في " **نِعْمَ الثّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً** " الكهف: ٣١
- الجودة في " **وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً** " آل عمران: ٣٧
- الحلال في " **وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً** " هود: ١٨
- الإنعام في " **وَآتَيْنَاهُ فِي الْدّنْيَا حَسَنَةً** " النحل: ١٢٢
- السعادة في " **لّلّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىَ وَزِيَادَةٌ** " يونس: ٢٦
- القدسية في " **وَلِلّهِ الأسْمَآءُ الْحُسْنَىَ فَادْعُوهُ بِهَا** " الأعراف: ١٨٠
- الجمال في " **وَصَوّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ** " غافر: ٦٤
- الكمال في " **الّذِيَ أَحْسَنَ كُلّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِن طِينٍ** " السجدة: ٧
- الصدق في " **الّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتّبِعُونَ أَحْسَنَهُ** " الزمر: ٨٨
- التفضيل في " **نَحْنُ نَقُصّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ** " يوسف: ٣

وصفوة ما تقدم في مصطلحا ت: الإسلام والإيمان والإحسان هو: أن دين الإسلام يتصف بالشمول والاكتمال، وأن المتدينين به ليسوا في مستوى واحد من التدين ؛ وإنما يقع إسلامهم في درجات، يقدرها الخالق المنعم المدبر الذي إليه المصير، ويجازى عليها، إن مفهوم الإيمان أعم من مفهوم الإسلام، ومفهوم الإحسان أعم من مفهوم الإيمان.

---

١) انظر تمام حسان عمر (٢٠٠٣)، البيان في روائع القرآن. القاهرة: مكتبة الأسرة، ص ص ٢٧٧ – ٢٨٧

وعلى من ينشد معرفة حقائق الإسلام أن يستنبطها من مصدرين أساسيين هما القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة قطعية الثبوت قطعية الدلالة ؛ فالقرآن الكريم معجزة يكمل بعضها بعضاً، ويفسر بعضه بعضاً، والسنة النبوية شارحة ومفصلة لما جاء في القرآن مجملاً وعاماً.

هذا، وفى نشدان الحقيقة من النصوص الدينية – قرآناً وسنة – يجب ألا نقف في تفسيرها وتأويلها أمام الألفاظ منعزلة، ومجردة من سياقاتها المختلفة: الزمكانى، واللغوي، والمقامي، والانفعالي، لما لهذه السياقات من أثر في تحديد الدلالات.

وأنهى هذا الجزء بتأكيد أن الإسلام والإيمان والإحسان درجات؛ يكمل بعضها بعضاً، وأنه يمكن – لتيسير الفهم والإفهام أن ننظر إلى كل منها على أنه مستقل يمكن تعرفه، ولكن لا يمكن فصله أو عزله. ولعل أصدق ما يؤكد وجهة النظر هذه قول الحق تبارك وتعالى في آية واحدة ما يلي:

- **" إِنّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصّادِقِينَ وَالصّادِقَاتِ وَالصّابِرِينَ وَالصّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدّقِينَ وَالْمُتَصَدّقَاتِ والصّائِمِينَ والصّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذّاكِرِينَ اللّهَ كَثِيراً وَالذّاكِرَاتِ أَعَدّ اللّهُ لَهُم مّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً"** الأحزاب: ٣٥

ويبرز في هذه الآية بوضوح أن مغفرة الله وأجره العظيم لهؤلاء جميعاً – ذكوراً وإناثاً – لإسلامهم وإيمانهم وقنوتهم وصبرهم وخشوعهم وصيامهم وصدقاتهم- دون مَنٍّ أو استكثار - ولحفظ فروجهم، ولذكر الله، والسير على نهج هداه.

خامساً- مفهوم الأخلاق

جذر الكلمة (خَ لِ قَ) بكسر اللام، فعل ماض لازم، لا يتعدى لمفعول به؛ فيقال خَلِق الثوبُ أو الجلدُ بمعنى بَلِي وتهالك. ومصدره خُلُوق. وخَلَق اللهُ الإنسانَ بفتح الخاء: أوجده في أحسن صورة، واختلاق القول افتراؤه. وتخلَّق فلان: أظهر من خُلِقه خلافَ ما ينطوي في باطنه. وتخلَّق بخلق كذا تطبع به، وخَلُق بضم اللام فعل لازم أيضاً، يقال خَلُق بالصراحة أو بالقول الحسن: تَطبع بهما كأنما خُلِقا له، فهو بهما خلِيقٌ وجدير، وخَلُق الشاب: تم خُلقه وَحَسُن. والخُلُق: السجية والطبع وحال للنفس راسخة، تصدر عنها الأفعال

والأقوال – خيراً كانـــت أو شـــراً – دون حاجـــة إلـــى التفكيـــر أو الرويـــة، وجمعـــه أخـــلاق. والخلِيْقة: الفطرة التي ولد عليها الإنسان.

والخَلاقُ: الحظ والنصيب من الخير؛ ففي التنزيل العزيز" **وَلَقَـدْ عَلِمُـوا لَمَـنِ اشْـتَرَاهُ مَـا لَـهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ** " البقرة:١٠٢. والخـــالق، والخلَّـــاق بتشـــديد الـــلام اسـم مـــن أســـماء الله الحسنى.

وجاء لفظ خُلُق في الذكر الحكـيم " **إِنْ هَــــذَا إِلاّ خُلُــقُ الأوّلِــينَ** " الشعراء: ٣٧ ووصــف القرآن الكريم رسول الإسلام في صفاته وسلوكه " **وَإِنّكَ لَعَلَىَ خُلُقٍ عَظِيمٍ** " القلم: ٤.

وعن سعد بن هشام قال: سألت عائشة (رضي الله عنها) فقلت: أخبرينـــي عـــن خلـــق رســـول الله (**e**)، فقالت: كان خلقه القرآن " ١)

وعرَّف الجرجاني "الخلق" بأنه: صورة الإنسان الباطنـــة، وهـــى نفســـه، وأوصـــافها و معانيهـــا المختفية بها، حسنةً كانت أو سيئة.

والأخلاق Ethics جمع خُلُق.وقد جاء فـــي الخبـــر[٢] أن الرســـول (**e**) قـــال: إنمـــا بعثـــت لأتمم مكارم الأخلاق " والأخلاق في الاصطلاح علم يبحث فـــي الأحكـــام القيميـــة التـــي تنصـــب علـــى الأفعـــال الإنســـانية، فتصـــفها بالحســـن أو القـــبح، وبـــالخير أو الشـــر، وبالخطـــأ أو بالصواب،وبالحل أو الحرمـــة، وبالاســـتحباب أو الاســـتكراه. وتشـــتق الأحكـــام مـــن مصـــادر معينة في مقدمتها الدين – فـــي تعـــدده وتنوعـــه – والإرث الاجتمـــاعي، وآراء الفلاســـفة علـــى اختلاف مذاهبهم في الرؤية الكلية للعـــالَم، ولِخَلقـــه ولمســـيرته وصـــيرورته، ولـــلأدوار التـــي ينبغي أن يقوم بها الإنسان " الجنس " في الحياة الدنيا.

ويندرج تحت مصطلح الأخلاق مفاهيم أساسية منهـــا: " المســـئولية الأخلاقيـــة " Moral Responsibility والإلزام الخلقي Moral Obligation ونرجئ الحديث عنها هنا ؛ ونفصله في الفصل الثاني لهذا البحث مرتبطاً بالتصور الإسلامي للأخلاق، كي نتفادى التكرار.

ونكتفي - هنا – بالقول إن بعض المفكرين يرون ضرورة التفرقة بـــين مصـــطلحي الخُلُـــق والأخلاق؛ إذ يقصرون مصطلح الأخلاق على "علم الأخلاق " الـــذي هـــو أحـــد أنظمـــة المعرفـــة الأكاديمية، انشغل به الفلاسفة، وعلماء الأديان، وعلماء الأخلاق قديماً وحديثاً. كما يرون أن يختص مصطلح الخُلُق بوصف أنماط السلوك البشرية الواقعية، على نحو ما هو حادث في عِلمي الاجتمـــاع

١ رواه الإمام أحمد في مسنده

٢ جاء في المعجم الكبير الذي يعده مجمع اللغة العربية في القاهرة ما يلي:

والأنثروبولوجى حيث يتم التركيز على وصف الممارسات الفعلية للجماعات المبحوثة مــن البشــر، ولذا يوصَف كل من السوسيولوجي والأنثروبولوجي بأنه علم وصفى.

وأرى في هذا تعسفاً غير مبرر، حيث إنه يقيم حــاجزاً بــين الفكــر النظــري والأخــلاق التي يمارسها الناس فعلاً في حياتهم تجاه ربهم، وتجــاه الآخــرين مــن البشــر. هــذا بالإضــافة إلى أن الأخلاق "العلم" تُشتق نظرياته ومقولاته مــن تحليــل تــأملي للممارســات البشــرية فــي التجارب والمواقف الإنسانية، ومن نصــوص دينيــة أو مقــولات فلســفية، أو خبــرات إنســانية اتسمت بالحكمة والخيرية في عوائد ممارساتها.

وأحسب أن التقدم العلمي الحادث الآن في الأنظمة المعرفيــة كافــة ينحــو إلــى المعــارف البينية، وإلى المعارف التي تتجاوز التصنيفات التقليديــة للمعرفــة، وفــى عبــارة أخــرى أقــول إن هذا التقدم– فيما أرى – تحــوّل – عبــر ســنوات ليســت قليلــة – مــن النظــام المعرفــي Diciplinary إلــى أنظمــة المعرفــة البينيــة Inter – Disiplinary ثــم إلــى أنظمــة المعارف المتجاوزة للحدود Trancedisiplinary

وعلينا أن نستحضر في هذا الجدل ما يناظره من مثل " هل العلــم مطلــوب للعلــم " فــي ذاته ولذاته ؟ أم أنه مطلوب لخدمة الإنسان " الجنس" وللعمــران العــام..وجــوابي علــى هــذا السؤال هــو أن العلــم ينبغــي فــي اســتعمالاته أن يســخر لخدمــة الإنســان عبــر الأزمــان المختلفة.وفى القرآن الكريم آيات كثيرة اقترن فيها الإيمان القلبــي بالعمــل الصــالح، فالإيمــان القلبي باطني مستور، ولا يتبدى للناس إلا بالعمل الصالح، الــذي يجعلــه محسَّــاً مشــهوداً لــدى الآخرين في المجتمع، فيتأسى بعضهم به، وجاء الإيمان مقترنــاً بالأعمــال الصــالحة فــي مثــل قوله تعالى:

- " **يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ** " البقرة: ١٧٣
- "**وَبَشّرِ الّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصّالِحَاتِ أَنّ لَهُمْ جَنّاتٍ** " البقرة: ٢٥
- " **يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُوَاْ أَنْفِقُواْ مِمّا رَزَقْنَاكُم** " البقرة: ٢٥٤
- "**وَأَمّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصّالِحَاتِ فَيُوَفّيهِمْ أُجُورَهُمْ**" آل عمران:٥٧
- " **يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتّقُواْ اللّهَ لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ** " آل عمران: ٢٠٠

وإذن، فالفصل بين ما هو قلبي باطني مستور، وما هو عمل صالح مشهود، فعل غير محمود؛ إلا لمجرد الفهم والإفهام في مجال الدرس والمدارسة.

وأنهى الحديث عن مفهوم الأخــلاق بضــرورة التفرقــة بــين القواعــد الخلقيــة والقواعــد القانونية الوضعية؛ بتأكيد أن القاعدة القانونية الوضــعية يترتــب علــى مخالفتهــا جــزاء مــادي

محسوس، وغايتها استقرار المجتمع، وحفظ النظام فيه، وحكم القاعدة القانونية على الآحاد ينصب على السلوك الخارجي للأفراد دونما نظر إلى النية.

أما مخالفة القواعد الخلقية فجزاؤها معنوي، ويتمثل في تأنيب ضمير المخالف " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى " كما يتمثل في إنكار المجتمع الإنساني للفعل الظالم، وغاية القاعدة الخلقية ليست مجرد حفظ النظام واستقراره في المجتمع؛وإنما هي نشدان الكمال، واستهداف السمو والرقى للأفراد وللمجتمع بقدر ما في وسع كل منهما.

الفصل الثاني

التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان

التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان

تمهيد:

الأخلاق شعبة من شعب الإسلام " الدين " والحديث عن التصور الإسلامي للأخلاق لا ينفك عن تصور الإسلام للكون وللحياة، والإنسان ؛ لأن الإسلام دين عالمي كوني شاملٌ ؛ كانت دعوته للناس جميعاً ؛ سواء في عقيدتهم أو شريعتهم أو في معاملاتهم أو في أخلاقهم.

وفى ضوء هذه الحقيقة تكون الأخلاق مكوناً متلبساً دائماً بجوانب الدين كله، واجتزاء الحديث عن تصور الأخلاق في الإسلام يكاد أن يقترب مما استنكره القرآن الكريم في إيمان من يجزئون الدين ؛ فيؤمنون ببعضه ويتهاونون ببعضه الآخر أو ينكرونه.

ولذا كان ضرورياً أن أقدم للحديث المفصل عن الأخلاق – موضوع هذا الكتاب – عرضاً مكثفاً عن التصور الكلى للإسلام – الكون والحياة والإنسان. وهو مبحث ترادفت الإشارة إليه بأسماء مختلفة ؛ فقيل إنه "الرؤية الكونية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساسي للإصلاح الإنساني " (١). وعبر عنه آخرون من الكتاب والمفكرين العرب بأسماء أخرى مثل:

" معالم في الطريق " وخصائص التصور الإسلامي ومقوماته " (٢) ومعالم المنهج الإسلامي (٣) ويعبر عنه – أيضاً – في بعض الكتابات الحديثة المتداولة بأنه " المرجعية

---

١ - انظر: عبد الحميد أحمد أبو سليمان (٢٠٠٩) الرؤية الكونية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساسي للإصلاح الإنساني، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

٢ -انظر:

أ – الشهيد سيد قطب ( ) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته. القاهرة: دار الشروق

ب - ــــــــــــــــــــــــــــــ (١٩٩١) معالم في الطريق. القاهرة: دار الشروق ؛ الطبعة الرابعة عشر. ٢٠٢ صفحة ٣٣

٣ - د. عمارة، محمد (٢٠٠٩) معالم المنهج الإسلامي. القاهرة: دار الشروق، الطبعة الثانية.

الإسلامية العليا، وأنـه " النمـوذج الإسـلامي للحيـاة " وأنـه " النمـوذج الإرشـادي " وأنـه" الصيغة الإسلامية العليا " وعنوان هـذا الكتـاب عـن الأخـلاق هـو " الأخـلاق مـن منظـور إسلامي "

هذا وقد دلتني قراءاتي المتأنية في هذا الموضوع علـى أن هـذه الأسـماء المتغـايرة تتبـاين في مبانيها اللفظية، وتلتقي في معانيها ومضـامينها ومغازيهـا. والسـؤال الـذي تجـب الإجابـة عنه هو: ما ماهية المراد بهذا المنظور أو التصور أو الرؤية الكونية الإسلامية ؟

نشأة المفهوم

نشأ هذا المفهوم من إحساس من كتبوا ويكتبون حوله ؛ بـأن الأمـة المسـلمة تعـانى مـن أزمة فكرية، جعلتها في حالة ضعف مشهود، حيث تخلفت عـن المشـاركة فـي التقـدم العلمـي والفني والتقني والحضاري الحادث في العالم المعاصر، ويسـتوي فـي هـذا ضَـعْف المسـلمين في إنتاج مُخرجات هذا التقدم، وفـى توظيفهـا فكريـاً وعمليـاً فـي حيـاتهم، وفـى علاقـاتهم الداخلة وفى تحسـين أوضـاعهم الاقتصـادية والسياسـية والاجتماعيـة، وفـى عجـزهم عـن عرض ما للإسـلام " الـدين " مـن خصـائص إنسـانية، يجـب أن يكتشـفوها لأنفسـهم، وأن يكشفوها لأهل الحضارات الأخرى، وخاصة الحضارة الغربيـة التـي تبنـت منـذ عقـدين مـن الزمان – فكراً وعملاً – عَوْلمة العالم.

وقد دلـت مسـيرة العولمـة علـى أنهـا " أمركـة " وأوربـة، ومحاولـة لطمـس معـالم الحضارات والثقافات الأخرى. وأنها في جوهرهـا ليسـت إلا دعـوة للإبقـاء علـى الأوضـاع الظالمة المجحفة التي تعانى منها دول العالم الثالث، والتي حولـت العـالم إلـى كوكـب يسـتأثر ٢٠ % من سكانه بالثروة على حسـاب ٨٠ % مـن السـكان ؛ بسـبب اللامسـاواة، والتفـاوت الحاد بين البشر الناشئ عن تبنى الدول الكبرى، وخاصـة أمريكـا واليابـان والـدول الأوروبيـة الفكر الليبرالي الحر في الشئون الاقتصادية

هذا، وقد دعم البنك الدولي لمذهب الليبرالية الجديـدة منـذ عـام ١٩٨٠ م (١) ودعـا دول العالم الثالث إلى المسارعة بإعادة هيكلة اقتصادها ليتواءم مع الحرية الاقتصادية.

---

١ - لمزيد من المعلومات حول أثر العولمة راجع – إن شئت:

أ – هانس بيتر مارتين وآخر، ترجمة عدنان عباس على (١٩٩٨) فخ العولمـة، الكتـاب رقـم ٢٣٨ فـي سلسـلة عـالم المعرفة التي تصدرها الكويت. ص ٣٤

وأدعو إلى تصور الإسلام للكون وللحياة وللإنسان فأقول:

إن جوهر هذا التصور هو الرؤية التي قررها الإسلام الحنيف لعــدد مــن القضــايا الكليــة التي شغلت وتشغل وستظل تشغل – الإنسان " الجنس " مــدى الحيــاة الــدنيا، لأنهــا مركــوزة في فطرته ؛ ويمثلها مثل هذه الأسئلة التالية:

- من الخالق – في ذاته وصفاته - لهذا الكون الفســيح، بأرضــه وســمائه، ومــا بينهمــا: كائنات حية ونباتية وجامدة، وظواهر كونيــة واجتماعيــة تجــرى كلهــا علــى ســنن لا يتغير ؟
- ما دور الإنسان (الجنس) في هذا العالم سواء في التعامل مــع مــن خلقــه وصــوره فــي أحسن صورة، وأكرمه وفضله على جميع مخلوقاته، بقابليــات وطاقــات فطريــة: بدنيــة وعقلية واجتماعية وجمالية ؟
- ما تصــور الإســلام " الــدين "، والإســلام " الثقافــة والحضــارة فــي تنظــيم وتفعيــل المؤسسات التــي تكتنــف حيــاة الإنســان: الأســرة، والرفــاق، و مؤسســات الخــدمات الاقتصادية، والتعليمية والاجتماعية ونظام الحكم، والدولة ؟
- ما كنه العلاقات التي يتصــورها الإســلام **الــدين والحضــارة**، فــي علاقــة المســلمين بغيرهم من البشر الذين يختلفون عنهم في العقيدة الدينية وفى العِــرق وفــى اللغــة، وفــى الثقافة والحضارة بوجه عام.
- ما رؤية الإسلام لمفاهيم مثل: العلم، والعمل، والهوية ونحو ذلك.
- إن محاولة الإجابة عن مثل هــذه الأسئلة تجســد مقومــات مــا يطلــق عليــه الرؤيــة الكونية، أو رؤية العالم أو المعالم الأساسية للتصــور الإســلامي. وســوف أحــاول هنــا أن أكثف الحديث عن المعالم الأساسية لهــذه الرؤيــة أو التصــور لأتخــذ منهــا ركــائز للحديث المفصل عن تصور الإســلام للأخــلاق الــذي ينصــب عليــه كــل مــا أوردت وأورد في هذا المؤلف.

خصائص التصور الإسلامى الكلى

وأستهل هذا الجزء بالحديث عن المصادر الأساسية التي ســوف أشــتق منهــا مفــردات هذا التصور ؛ فأقول: إن المصدر الأساســي فــي اشــتقاق هــذه الخصــائص هــو القــرآن الكريم ؛ بوصفه الكتاب الذي أنزل من لدن حكيم علــيم علــى الرســول e، بشــيراً ونــذيراً

للناس، والمصدر الثاني هو السنة النبوية المشـرفة قطعيـة الثبـوت قطعيـة الدلالـة سـواء أكانت فعلاً أو قولاً أو إقراراً ؛ فالسنة شارحة للقرآن، ومكملة لـه بتخصـيص مـا ورد فـي التنزيل الحكيم عاماً، وتعميم ما ورد خاصاً، وتفسير نصوصـه وتأويلهـا. فهـي إذن مكملـة للوحي: واقرأ معي قول الله جل في علاه:

- " **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**" الفتح: ٢٨
- " **مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**" النساء: ٨
- " **وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا**" الأحزاب: ٧١
- " **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**" آل عمران: ٣١
- " **يَتْلُو عَلَيْكُمْ آَيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**" البقرة: ١٥١
- "**وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**"الحشر: ٧
- " **وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**" الفتح: ١٧
- "**وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**" النور: ٥٢

والمصدر الثالث هو: الأفعال والأقوال التي تجلت في عهـدي الخليفـة الراشـد الأول أبـى بكـر الصديق – رضي الله عنه – والخليفة الراشـد الثـاني عمـر بـن الخطـاب رضـي الله عنـه ؛ بوصف أن هذين العهدين في خلافة رسول الله هما الأقـرب العصـور التصـاقاً بالدولـة التـي أسسها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في السـنوات العشـر الأخيـرة مـن حياتـه، التـي عنى فيها بتجسيم المعالم الأساسية للتصور الإسلامي في حياة المدينة المنورة.

أحسب أن خصائص التصور الإسـلامي – وفـى قلبـه ولبابـه التصـور الأخلاقـي ممـثلاً لروح الإسلام وريحاناته – يمكن أن توجز لأغراض هذا الكتـاب – فـي أنـه تصـور تتجلـى فيه السمات التالية:

أولا: أحدية للإلوهية

تؤكد المصادر الأساسية التي أشرت إليها فـي الفقـرة السـابقة أن دعـوة الإسـلام دعـوة تقوم على " أحدية الخالق – جلَّ – علاه وأنـه –وحـده – خـالق السـماوات ولا أرض، ومـا بينهما من كائنات حية وظواهر طبيعية، وأنه قيّوم علـى مخلوقاتـه كلهـا منـذ أنشـأها، ومـدبر

لحركاتها ومسيرتها ومصيرها، دون شراكة أو تعدد في الإلوهية، وأن الناس جميعاً عباده، وعبادتهم له – جل جلاله – عبادة تقدير وتعظيم؛ وليست عبودية قاهرة تلزم الناس بدنياً أو عقلياً بما لا يستطيعون، وأن ذاته – سبحانه – تتصف بأن ليس له مثيل ؛ لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأنه – وحده – الصمد الذي يُلجأ إليه في الحاجات ؛ لكونه قادراً على قضائها، ولأنه العظيم الغنى الحليم ؛ فهو سيد الكون، ولا سيد فوقه. وهو رب الناس جميعاً، ومعبودهم. ولنتأمل أهمية هذه الركيزة " أحدية الخالق " في الآيات الكريمة التالية:

- " **وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ**" الذاريات: ٥١
- " **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ**: الناس ١-٣
- " **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)**" الإخلاص: ١-٤
- "**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا**" الجن: ٢٦٠
- " **لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا**" الكهف: ٣٨
- " **فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** " نوح: ١٨
- " **وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ**" الزخرف: ٨٤
- " **إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**" طه: ٩٨
- " **أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ**" الطور: ٤٣

فأحدية الإلوهية حقيقة أدركتها عقول البشر، وعبر عنها القرآن الكريم: **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**" الأنبياء: ٢٢ وللإيمان الحقيقي الصادق بأحدية الخالق المعبود – وحده –تضمينات، وله تطبيقات ينبغي أن تظهر في سلوك من يتدينون بدين الإسلام منها ما يلي:

- ♦ أن يتحرر عباد الرحمن المؤمنون حقاً من الخوف من أية سلطة كانت ؛ حرصاً على النفع المادي العاجل، أو تجنباً لأذى يمكن أن يقع عليهم من حاكم مستبد، أو سلطان جائر، أو صاحب سطوة أو ثروة يتحكم من خلالها في الناس، كما يتحرر أيضاً من أهوائهم الذاتية:
  - **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ**" الجاثية: ٢٣
  - **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا** " الفرقان: ٤٣

- أن يخلص في عبادة الله ؛ بأن يتحرى دائماً أن يعمل عمــلاً صــالحاً يعــود عليــه وعلــى الآخرين بالنفع، وأن يتقن هذا العمل – أيا كــان نوعــه وموقعــه؛ بوصــف أنــه أمانــة وكلت إليه، وأن يتجنب المنكرات - قولا وفعلا - وأن يســتيقن أن هــذا العــالم الــدنيوي يمكن أن يكون فتنة للإنسان، لما فيه من سلطان وملذات ومغريات.

ولذا، فواجب على المؤمن الصادق أن يلتــزم فــي ســعيه بمــا أحــل الله، ويعــزف عما نهى عنه، وألا يصــير عبــداً لأحــد، أو عبــداً لشــهواته وملذاتــه أو مالــه وعشــيرته الأقربين.وأعتقد أن هذه المعاني جميعها عبَّر عنهــا أوجــز وأعمــق تعبيــر مــا جــاء فــي التنزيل العزيز:

- **قُلْ إِنْ كَانَ آَبَــاؤُكُمْ وَأَبْنَــاؤُكُمْ وَإِخْــوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُــمْ وَعَشِــيرَتُكُمْ وَأَمْــوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَــا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّــهِ وَرَسُــولِهِ وَجِهَــادٍ فِــي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** " التوبة: ٢٤
- " **وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِــعُونَ** (٤٧) **وَالْــأَرْضَ فَرَشْــنَاهَا فَــنِعْمَ الْمَاهِــدُونَ** (٤٨) **وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** (٤٩) **فَفِرُّوا إِلَى اللَّــهِ إِنِّــي لَكُــمْ مِنْــهُ نَــذِيرٌ مُبِينٌ** (٥٠) **وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ إِنِّي لَكُــمْ مِنْــهُ نَــذِيرٌ مُبِــينٌ**" الــذاريات: ٤٧ – ٥١

والفرار إلى الله ليس في الــدنيا، لــيس بــالقعود عــن الســعي والعمــل، والكــف عــن تحصيل الرزق، وتوسيع العمران ؛ بل المقصود هــو العــي الــدعوب، مــا جــاء فــي الآيــات الكريمة التالية:

- " **كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ**" طه: ٨١
- " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّــهِ إِنْ كُنْــتُمْ إِيَّــاهُ تَعْبُــدُونَ**" البقرة: ١٧٢
- " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ**" المائدة: ٨٧

وليس الفرار إلى الله فيما يعرض للناس مــن مصــائب، أو مشــكلات أو أمــراض بــأن يتوقف الإنسان عن دفع المصائب أو أن يتوقف عن السعي إلــى حلــول مــا يعــرض لــه مــن أزمات و مشكلات تهــدر طاقتــه بــل عليــه أن يتــوقى الأمــراض الســارية والمعديــة وأن يحرص على وقاية نفسه وأسرته والبيئة التي يعيش فيها.

إن مثل هذا القعود وعدم الأخذ بالأسباب المشروعة ليس فراراً إلى الله، وإنما هو وهم، و يجب أن يتنزه عنه كل مؤمن عاقل ؛ وجهلٌ يجب التخلص منه؛ فالإنسان مأمور بأن يتوقى الأمراض والمخاطر، ولا يلقى بنفسه، ولا بمن حوله في التهلكة " **وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**" البقرة:١٩٥ وفي حديث رواه أبو هريرة عن الرسول (e) أنه قال: " ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء ؛ فتداووا ولا تداووا بحرام "[١]

وقد جاء في الخبر المتواتر أن أبا عبيدة قال لعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما)في قصة الوباء الذي يجب أن يتوقاه الناس " أفراراً من قدر الله يا عمر ؟ فقال عمر: نعم نَفِر من قدر الله إلى قدر الله " وهو فرارٌ من شرٍ ما وقع لبعض الناس ويجب أن يفر منه آخرون؛ حتى لا يقع عليهم، وحتى يقل الجهد المبذول في مكافحة الوباء.

هذا، وليست سمة التوحيد في التصور الإسلامي ابتداعاً جديداً، وإنما هي الأساس في الديانات الرسالية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام.فقد جاء في القرآن الكريم قول الحق عز وجل:

- **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**" الأنبياء: ٢٥
- **وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ**" الأعراف: ٨٥
- **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**" طه ١١ – ١٤

وديانة إبراهيم عليه السلام كانت ديانة توحيد للخالق القدير المدبر، وقد أوصى بها ذريته: إسماعيل وإسحاق ويعقوب.

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ " البقرة: ١٣٦

واليهودية- ونبيها موسى عليه السلام - أنزلت من عند الله ديانة توحيدية

---

١ - في صحيح مسلم – كتاب السلام، باب ٢٦

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي" طه ١١ – ١٤

ولكن التوراة حُرِّفَت " مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ " النساء: ٤٦

وادعى اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه: " **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ** " التوبة: ٣٠ " **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ**" المائدة: ١٨

وأخيراً انتهت عقائد **المسيحية** إلى جعل التوحيد في المسيحية توحيداً بين أقانيم ثلاثة: الأب والابن، والروح القدس، وذلك على النحو الذي توزعت فيه الكنائس المسيحية إلى: أرثوذكس وكاثوليك، وبروتستانت. واستنكر القرآن الكريم ما أُدخل على الديانتين: اليهودية والمسيحية من تحريف في مثل قوله تعالى:

- **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**" التوبة: ٣٠

وفى قوله جل شأنه:

- **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا** " النساء ١٧١ ـ ١٧٢

وصفوة القول في خصيصة أحدية الإله هي أن الإسلام جاء خاتمة للأديان الرسالية، وأن الاختلاف في عقيدة التوحيد أمر مرده إلى الله سبحانه وتعالى، وأن المجازى على نوع العقيدة هو الله - سبحانه – وأنه ليس لأي إنسان أن يكره إنساناً آخر على تبنى عقيدة معينة، فهذا هو التوجه الأساسي الذي أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام الذي جاء في القرآن الكريم " **فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** " الكهف: ٢٩

- " **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)**" الكافرون:١-٦

وفسر التكرار الوارد في السورة الكريمة بـأن غرضـه التأكيـد علـى قطـع أطمـاع الكفار عن أن يحببهم الرسول وأصحابه وأتباعه؛ من يعتنقـون ديـن الإسـلام مـن بعـدهم أن يتهودوا أو يتنصروا " **وَقَالُوا كُونُوا هُـودًا أَوْ نَصَـارَى تَهْتَـدُوا**" البقـرة: ١٣٥ وكـذلك قطع أطماع المسلمين في أن يؤسلموا اليهود والنصارى.

وأنهى بأن الأديان الرسالية الثلاثة بينهـا جوامـع يجـب التأكيـد عليهـا تنظيـراً وأداءً، وأن يترك الجزاء على التدين كله للديان يوم القيامة، فليس لأتبـاع أي ديـن أو مـذهب فـي دين أن يستلب حق المجازاة في الدنيا، لأنه اعتداء علـى حـق رب النـاس سـبحانه، و لـم يكن حقاً لرسول الإسلام نفسه

- " **أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**: يونس: ٩٩
- " **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ** " الغاشية:٢١- ٢٢
- " **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** " البقرة: ١٥٦
- " **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ** " ق: ٤٥
- " **فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**" النحل: ٣٥

ثانياً: تصور إلهي للإنسان والعمران

تناولت في الفصل الأول من هذا الكتاب الحديث عن الإسلام، وأوردت النصوص من القرآن الكريم ومن السنة النبوية المشرفة التي تفصح بجلاء عن إنسانية الإسلام، وكيف أن خطابه فـي القرآن الكريم موجه إلى الناس جميعاً، في كل زمان وفى كل مكان

إن الإسلام ما جاء لدعوة العرب أو المؤمنين وحـدهم، وإنمـا جـاء للنـاس جميعـاً متجاوزاً الزمان والمكـان والإنسـان والمنطقـة الجغرافيـة التـي أنـزل فيهـا، ولـيس مصادفة أن تنزل دعوة الإسلام في تلك المنطقة الجغرافيـة ؛ فقـد نزلـت فيهـا اليهوديـة والمسيحية قبل الإسلام، ثم انتشرت الديانات فـي بـاقي أجـزاء العـالم، وهكـذا بـدأت دعوة الإسلام الحنيف في الجزيرة العربية التـي تنتمـي إلـى منطقـة الأديـان الرسـالية جميعها، ثم انتشرت في جميع أنحاء العالم.

ولا يطعن في عالمية الإسلام الدين أن لـه فـي بـلاد العـرب خصوصـية تمـايز العرب من غيرهم من الأمـم بوصـف أن نبـي الإسـلام عربـيٌ،وأن كتـاب الإسـلام

المقدس أنزل بلسان عربي مبين،وأن دعوة الإسلام بدأت في المحيط العربي،وأن فهم نصوص القرآن أيسر على العرب من غيرهم.

والقرآن هو معجزة هذا الدين التي تحدى بها العرب أن يأتوا بمثله ففشلوا، ومع وعد الله سبحانه بحفظ القرآن: " **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** "(الحجر: ٩) فإن هذه الخصوصية ترتب عليها مسئولية نشر الدين والمحافظة على كتابه الكريم، وتبليغ رسالة الإسلام إلى الناس. وتلك هي الشهادة التي وصفت بها الأمة الإسلامية " **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** " البقرة: ١٤٣

مقاصد الشريعة

وثمة مبحث خاص بمقاصد الشريعة الإسلامية استحوذ على اهتمامات علماء الدين والأخلاق قديماً وحديثاً. ومقاصد الشريعة الإسلامية تتغيا تحقيق مصالح العباد في الدنيا، ولكل منها مقتضيات وتضمينات يجب الوفاء بها من الأفراد والجماعات، حكاماً ومحكومين، وتعددت آراء علماء أصول الفقه الإسلامي في كليات هذه المقاصد وكيف أنها جميعها أراد الله بها حياة دنيوية تتسم بالنقاء، والطهر والسعادة والاطمئنان دون خوف أو قلق من خوف ؛ حياة يسودها الوئام والتعاون بإحسان أداء أمانة الاستخلاف التي أوكل الله جل علاه للإنسان " الجنس " في عمران الأرض الذي يعود عليهم جميعاً بالخير.

كما تتغيا المقاصد – أيضاً -السير على المنهاج الذي أنزله الله لتحقيق مقاصد عباده، طلبا لمثوبة الله " سبحانه " في الحياة الآخرة ؛ حيث يجزى فيها كل فرد بما عمل في دنياه.ولنتأمل قول الحق تبارك وتعالى:

- " **وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى**" النجم: ٣٩
- " **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ** " النساء: ١٢٤
- " **فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ** " الأنبياء: ٩٤
- " **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)**" الزلزلة: ٧-٨

وأخلص إلى إن الله جل علاه غنيٌّ عن الناس جميعاً، وأن عبادته – سبحانه – تزيد في رصيد الأعمال الصالحة التي يجزيهم ربهم عنها في الحياة الآخرة، وصدق الله العظيم "

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ " الذاريات:٥٦- ٥٧

ودارت الكتابات حول ماهية هذه المقاصد ؟ وكيف يمكن أن تحفظ ؟ فقيل إنها خمس، أُختُلِف في ترتيبها، فرتبت ترتيباً رأسياً على أنها حفظ:الدين، والعقل، والنفس، والمال، والنسب. وأضاف أهل الثقة من علماء الدين المحدثين مقاصد كلية أخرى ؛ لها في الإسلام ذات القيمة وذات الأهمية التي ينظر فيها إلى كل من المقاصد الخمسة السابقة، فأضاف العالم الفقيه الطاهر ابن عاشور مقاصد " الحرية" والعدالة. وتوسع آخرون فأضافوا "المساواة والعدل ". ولم تبن هذه الإضافات على مجرد أنها إضافات، وإنما بنيت على أساس أنها تتسم بأنها معادِلة – في التصور الإسلامي – ومكملة لمقاصد الشريعة الإسلامية للمؤمنين بالإسلام، وأنها مشتقة من المصادر الأساسية التي استقى منها التصور أو المنظور الإسلامي.

وتوسع عالم جليل في الفكر الإسلامي المعاصر في مستويات الأداء لكل مقصد من تلك المقاصد ؛ فبدلاً من قصرها في "تراث علم أصول الفقه" إلى الضروريات، والحاجيات، والكماليات، استحدِثَ مستويين، فرضهما الواقع الاقتصادي في عالمنا المعاصر ؛ فأضيف في مستويات أداء كل مقصد ما يلي:

أ – ما قبل الضروري: وهو المستوى الذي يقع فيه مقصد المال - مثلاً - مَنْ هم تحت مستوى الفقر ؛ بمعنى أنهم لا يملكون ما هو الضروري لحياتهم.

ب- ما فوق الكمال،وهو المستوى الذي يحتله في مقصد – المال أيضاً – الساعون إلى جمع المال بالطرق المريضة الفاحشة ؛ لإنفاقه في ملذات وشهوات ومحرمات: كالتآمر على قتل الأفراد والجماعات، والتحريض على إيذاء الأبرياء أو قتلهم، أو كسب المال عن طريق نهب أموال الناس الخاصة أو سلب المال العام.

ومما يجب التنبيه له أن التفكير الديني المعاصر الملتزم بالمصادر الأساسية التي أشرت إليها في الفقرة السابقة لم يكتف بما كان يقال قديما في علم أصول الفقه من حيث إن المطلوب من المؤمنين أفراداً وجماعات ومؤسسات وحكومات حفظ أو المحافظة على هذه المقاصد ؛ وإنما أضيف إليها أن كل مقصد من مقاصد الشرع يحتاج إلى: الوقاية، والتنمية، وشرعية التوظيف، ففي مقصد " العقل " مثلاً يجب ألا يكتفي فيه بمجرد حفظ العقل بالامتناع عن المخدرات والمسكرات، وإنما يجب – أيضاً – وقاية عقول الناس ووجداناتهم من تعريضها لأفعال أو أقوال أو إعلام أو إعلان مكتوب أو

مرئي، أو مسموع من شأنه أن يشيع في عقــول النـــاس الشــعوذة والســحر،وقراءة الفنجـــان وقراءة الكف، والتــداوي أو الترقـــي بالأحجيـــة، أو الكـــي بالنـــار ونحوهمـــا أو أن ييســـر انخداعهم وتلويث عقولهم وشغلهم وإلهائهم بالتفكير في أمور فرعيـــة عديمـــة الجـــدوى التـــي ترددها بعض أجهز ة الإعلان والإعلام وتزيف فيهـــا وقـــائع الحيـــاة والأحـــداث؛ فتعرضـــها على النحو الذي تهواه سلطة حاكمة مســتبدة أو تحقيـــق مصـــالح الأفـــراد أو فئـــات خاصـــة من الناس.

وتنمية مقصد العقل مغزاها أن يُحـــرص فـــي التنشـــئة الاجتماعيـــة، وفـــى مراحـــل التعليم المختلفة على تنمية التفكير لدى الأطفال والشـــباب بوســـائل متعـــددة منهـــا: المناقشـــة والحوار والتعليم المباشر والتعليم غير المباشر، وذلـــك بالقـــدوة الحســـنة التـــي تـــتعلم منهـــا الأجيال الناشئة تعلما غير مباشر – ولكنه أخطر – فـــي بنـــاء العقـــل مـــن الـــتعلم المباشـــر، وتتمثل أهمية هذه القدوة في أن الناشئة يتـــأثرون بأنمـــاط التفكيـــر والســـلوكيات التـــي يقـــوم بها: المديرون والمعلمون والرؤساء والعاملون في مختلف المواقع الحكومية والأهلية.

وتوظيف مقصد العقل يتجسد في أن يحرص الكبـــار فـــي مواقـــع حيـــاتهم كافـــة علـــى تحفيز الأطفال والشباب على أن يُعملوا عقـــولَهم فيمـــا يقـــرؤون أو يشـــاهدون أو يعملـــون، أو يسمعون أو يلاحظون، وتلك أمور سوف نفصل القـــول فيهـــا فـــي فصـــول تاليـــة، حـــين نتحدث عن " الأخلاق من منظور إســـلامي " فـــي الأســـرة، وفـــى التعلـــيم، وفـــى مجـــالات العمل والخدمات، سواء في المهن المختلفة، وفى نظام الحكم، وفى أخلاقيات الدولة.

ترتيب المقاصد

وأنهى الحديث عن هذه الخصيصة للتصـــور الإســـلامي لمقاصـــد الشـــريعة الإســـلامية بأن أؤكد أن كليات المقاصد في الشريعة الإســـلامية لا يجـــوز أن ينظـــر إليهـــا فـــي ترتيـــب رأسي تعاقبي، بأن يقال، إنها تتوالى فيه أهمية أداء مقتضـــياتها مـــثلاً فـــي الترتيـــب الرأســـي التالي من أعلى إلى أسفل:

١ - الدين

٢ - النفس

٣ - العقل

٤ - المال

٥ - النسب

أو في أي ترتيب رأسي آخر ؛ لأن هذا الترتيب المتواتر التعاقبي الراسي يوحى بألا ينظر إلى أي من المقاصد إلا بعد الوفاء - في مستوى مقبول- بمقتضيات المقصد الذي يسبقه في الترتيب؛ فلا ينظر إلى مطالب مقصد " العقل" إلا بعد تحقق مقصد النفس، ولا ينظر إلى مقصد النفس إلا بعد إنجاز مقصد الدين.

إن هذا الترتيب قَسْري ؛ لم يقم عليه دليلٌ من المصادر الأساسية للتصور الإسلامي. وأرى – وقد عبرت عن هذا الرأي في كتابات سابقة –أن ينظر إليها على أنها تقع في ترتيب دائري، تبدو فيه علاقات التأثير والتأثر المتبادلة بين هذه الكليات، بسبب تفاعل عناصر كل مقصد مع عناصر سائر المقاصد الأخرى.

وأتصوره في الشكل البياني التالي:

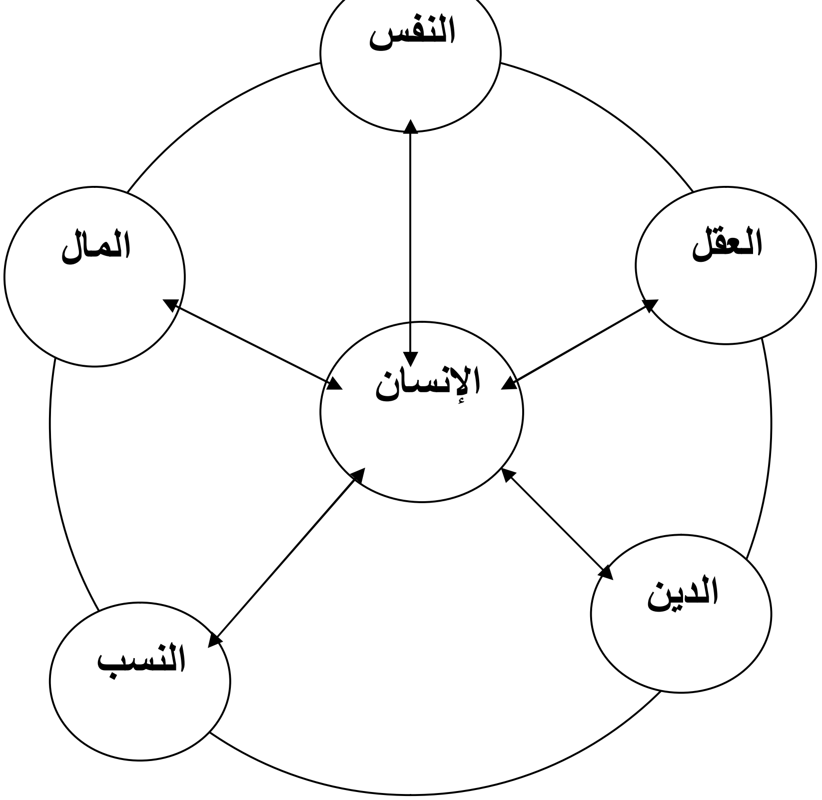

شكل رقم ([1])

لبيان ترابط كليات مقاصد الشريعة الإسلامية في إطار دائري لتحقيق ضروريات الحياة الكريمة

كيف يُقرأ هذا الشكل ؟

١ – يقرأ الشكل بدءاً من أية نقطة في الإطار الدائري الكبير الذي يربطها جميعاً؛ لأنه خط دائري ليس له بداية ولا نهاية، ولذا فإنه يقرأ بدءاً من أية نقطة فيه في اتجاه عقارب الساعة أو عكسه.

٢- الدائرة الوسطى تمثل الإنسان (**الجنس**) وهو غاية المقاصد، وأداة تحقيقها.

٣- الدوائر الخمس على الخط الدائري تشير إلى أن حياة البشر تكتنفها - في رأي علماء أصول الفقه القدامى - خمس كليات أساسية هي: الدين والنفس والعقل والمال والنسب، وقد تطورت هذه الرؤية – كما قلت - فتوسعت في عدد الكليات، وامتدت مستويات أداء كل منها [٢].

٤- الدائرة التي تمثل الإنسان تبعد عن كل مقصد من المقاصد الخمسة بمسافة متساوية ؛ وهذا يشير إلى أنه لا تفاضل بينها، وأنها حزمة متكاملة من الضروريات لحياة الإنسان، ولكل منها أهمية تعادل باقي الكليات أو ما أضيف إليها مثل: الحرية، والعدالة، والمساواة.

٥- السهم ذو الطرفين ↔ يشير إلى تفاعل هذه الكليات إيجاباً وسلباً، وإلى أن الحصيلة النهائية لهذا التفاعل تصب في دائرة الإنسان، وهو غاية المقاصد، ووسيلة تحقيقها.

ومزية هذا الشكل هو تصور أن الإنسان هو الغاية المستهدفة بمقاصد الشريعة الإسلامية، وأن كليات مقاصد الشرع، تقع من موقع الإنسان على مسافة واحدة، لا يُفضل فيها مقصد على آخر ولا يجوز النهوض بمقتضيات أحد المقاصد دون أن تؤخذ في الاعتبار المقاصد الأخرى. فلا قيمة – عقلاً – لإنسان لا عقل له؛ لأن العقل يمثل النفخة الإلهية التي هي من روح الله، ولا تستقيم حياة مجتمع لا دين له ؛ بمعنى انه

١ انظر كتابنا (٢٠٠٤) الثقافة الإسلامية محور لمناهج التعليم: رؤية التعليم من منظور إسلامي. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.

٢- انظر: جمال الدين عطية (   )، تفعيل مقاصد الشريعة

٢ جمال عطية، المرجع السابق

ليس لدى أفراده وجماعاته معتقدات، وأفكار وعادات اجتماعية توافقوا عليها، وإن مثل هذا المجتمع لن يكون مجتمعاً إنسانياً ؛ وإنما هو مجتمع الغابة الذي تكون فيه الحياة للقوة وللصدفة.

والمال ضروري في مستويات مختلفة لسلامة العقول، وحفظ الأديان والأنساب التي تحقق ذات الإنسان، وترسخ انتماءاته وتتحكم في ولاآته ؛ فكثير ممن يعيشون تحت خط الفقر وبسببه ينحرفون عن الصواب، ويرتكبون المعاصي ولا يتناهون عن المنكرات. وعلينا أن نستحضر في هذا المقام مقولة للإمام على – رضي الله عنه – لو كان الفقر رجلاً لقتلته ؛ وفى مثل هذه الحالات أجد أن امتلاك من يعانون الفقر للمال الضروري لحياة كريمة – يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمحافظة على "الدين " وإتباع نجد الهدى، والابتعاد عن نجد الضلال والتضليل، وعن الفساد والإفساد.

ثالثاً: تصور عقلاني علمي

شاع استخدام وصف " عقلاني " – خطأ – بما يعنى أن المتصف به سواء أكان فرداً أو جماعة على أنه تصور ذهني ؛ لا يؤمن صاحبه إلا بما يمليه العقل، واسْتُخدِم المصدر الصناعي " عقلانية " ووصف " عقلاني " بمعنى أن الموصوف به ينكر الوحي الإلهي ويقول: لا سيادة على العقل إلا للعقل.

والسؤال الأساسي الذي يثار في الجدل حول العقل هو ما العقل ؟وما وظيفته ؟ و لنحاول الإجابة عليه فنقول:

الجذر اللغوي للكلمة هو / عَ قَ لَ / وقد جاء في لسان العرب: إن العاقل هو من يكبح جماح نفسه، ويردها عن هواها، ومنه: " أُعتُقْل لسان الشخص " بمعنى أن حُبْسةً أصابته، فمنعته من الكلام ومن مرادفات العقل في اللغة العربية القلب والفؤاد، واللب، والنظر، والبصيرة، والحجا، والنُّهى، والُحُلم. ويقول ابن منظور:إن العقل سمة يتميز بها الإنسان عن سائر الكائنات الحية، وتعاقل الرجل: تكلف العقل الذي ليس في طبعه.

وحين نتأمل ورود كلمة العقل في القرآن نجد أنه لم يرد بصيغة الاسم " عقل " إطلاقاً، وإنما ورد في صيغة الفعل الماضي مرة واحدة " **يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ** " البقرة: ٧٥ وورد بصيغة الفعل المضارع (يَعقِل، نَعْقِل، يَعْقِلون، وتَعقلون) ٤٩ تسعاً وأربعين مرة، ومغزى ورود المادة بصيغة المضارع على هذا النحو تفيد ما يلي:

إنه مراد به فعل " العقلنة " ؛ لأن صيغة الفعل المضارع يفيد تكرار حدوث الفعل وتنوعه؛ وفقاً لما ينصب عليه التفكير. والتفكير في الدراسات النفسية وظيفة العقل أو تَنَفسه ؛ فبدون التفكير يختنق العقل ؛ إذ إن التفكير يضفى المعاني على المعلومات ويهب المعرفة مغزاها، ويولد من المعارف القديمة معارف جديدة.

- ورود الفعل الماضي والمضارع من مادة عَقَل مسنداً إلى واو الجماعة أو ضمير الجمع يعنى أن ثمة " عقلاً جمعياً " تتصف به " الحضارة أو الثقافة " التي ينتمي إليها الفرد العاقل.

- ورود المادة بصيغة الفعل الماضي أو المضارع يوحى بأن العقل ليس عضواً كاللسان ؛ الذي هو أداة البيان عن الفكر، وإنما هو عملية Process أو حدث يقع، وأن ثمة ذاتاً أو ذوات بشرية قامت بهذا الحدث، فالحدث لا يقع في فراغ ؛ وإنما يحل في سياق زمكانى واجتماعي بالضرورة.

وقد جاءت الكلمات المرادفة للعقل في القرآن الكريم اسماً – مفرداً أو جمعاً – معرفاً بأل. مثل قوله تعالى:

- " **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا** " الإسراء: ٣٦
- " **وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ** " البقرة: ٢٦٩
- " **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى** " طه: ١٣٨
- " **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ** " الحشر: ٢
- " **بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ** " القيامة: ١٤

وتوحي هذه الآيات الكريمة بأن العقل جوهر عضوي، ولعل هذا هو ما توصلت إليه الأبحاث والدراسات حول مخ الإنسان وأعصابه. وهذا المبحث يحتاج إلى المزيد من البحث والتدقيق في مصطلحات القرآن الكريم والسياقات القرآنية التي أشير فيها إلى العقل، بوصفه أنه عملية أو جوهر عضوي. وذلك مبحث مستقل انشغل به علماء أجلاء ومراكز بحوث ومنها الجهد الذي يبذله العالم الجليل الدكتور الشاهد بوشيخي في إحدى جامعات المملكة المغربية.

♦ **العقل ضروري لفهم الوحي**

إن القول بأن الوحي الذي جاء بـه القـرآن الكـريم، وفصـلته السـنة النبويـة المشـرفة مناقض للعقل يمثل ضلالاً وتضليلاً وجهالةً ؛ لماذا ؟

- لأن شريعة الإسلام جعلت العقل شـرطاً مـن شـروط التكليـف بفرائضـه. والعقـل – ووظيفته التفكير – هو الوسيلة التي تسـتوعب مـن خلالهـا نصـوص كتـاب الإسـلام المقدس، كما أنه الوسيلة المثلـى لاسـتيعاب آيـات الله الماثلـة فـي خلـق الكـون فـي ظواهره الطبيعيـة – ومنهـا الإنسـان – وفـى نطاقاتـه المتعـددة: المـائي، والنبـاتي، والصخري، والفضائي، وكيف تسير هذه الآيـات الوجوديـة المحسوسـة علـى سـنن لا تتخلف إلا بقدر الله، ودعا الإسلام الناس إلـى التفكيـر فـي هـذه الظـواهر والمظـاهر جميعاً. وذلك بإعمال التفكير في مثل ما يلي:

♦ ضرورة أن يلتزم الناس بالتفكير فيما يميز العمـل الصـالح الطيـب مـن العمـل الخبيث القبيح إعمالاً لقوله تعالى:

- " **كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ** " طه: ٨١
- " **وَآَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ**" النساء:٢
- " **قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ** " المائدة: ١٠٠
- "**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** " النحل: ٩٧

ووجه القرآن الكريم إلى إعمال العقل فـي آيـات الكتـاب المسـطورة فـي القـرآن الكـريم، وآيات الله ونعمه المنثورة في الظواهر الطبيعية وفى الإنسان الجنس.

- " **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**"البقرة: ٤٤
- "**وَفِي الْأَرْضِ آَيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ(٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**" الذاريات ٢٠-٢١
- " **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُـونَ بِهَـا أَوْ آَذَانٌ يَسْـمَعُونَ بِهَـا فَإِنَّهَـا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** " الحج: ٤٦
- " **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**" النحل: ١٧

وعني القرآن بضرب أمثلة من نعم الله على عباده، وكيف أنـه سـخر لهـم مـا فـي الأرض جميعاً تفضلاً منه لخدمة الإنسان، وجعل الدنيا دار ابـتلاء لـدار أخـرى فيهـا حسـاب ومثوبـة وعقاب. ولنتأمل سوياً قول الحق تبارك وتعالى:

- " **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**" الحشر: ٢١

- **" وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** " النحل: ١٢

هذا وقد خصصت الآيات المنثورة في الأرض بعناية كبيرة بضرورة التفكير في ظواهرها وعملياتها والمحافظة عليها، وتنميتها وإحسان توظيفها وذلك برعاية مائها وهوائها، وتربتها والتنقيب عن ركائزها كي تتواصل حياة الإنسانية عليها. ولنقرأ سوياً – وعلى مكث – قول الحق تبارك وتعالى:

- **" هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** " الملك: ١٥
- **" وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** " الأعراف: ٧٤
- **"هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**" النحل: ١٠ – ١١
- **"وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**" النحل: ١٥

♦ وإزاء هذه الآيات والنعم لابد أن يتساءل العقلاء من البشر عما أحدثه الإنسان – خليفة الله في عمران الأرض – وفيما يحيط بها من فضاءات ونجوم وأفلاك: هل أحسن عباد الله في الدول الكبرى والنامية على سواء الإبقاء على معطيات الخالق في الأرض وما حولها وما فيها من ماء ونبات ومناخ. وأجيب بإيجاز إن الإنسان المكلف بالعمران لوَّث الماء والهواء وسمم الأرض، وتركها لتتصحر وأهدر الماء بصورة تهدد الأجيال البشرية المقبلة في معظم الدول وخاصة الدول النامية.

♦ وقد عنى القرآن بإيراد عمليات عقلية محددة، يتحدث عنها الآن علماء النفس والمعنيون بتعليم التفكير الذي هو وظيفة العقل ومن أمثلة هذه العمليات السلبية المخلة بالتفكير ما يلي:

١- رفض الحكم بالظن، والسعي إلى اليقين بقدر ما في وسع الاجتهاد الفردي والاجتهاد الجمعي.

- **"يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ** " آل عمران: ١٥٤

- "وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا " النجم: ٢٨
- "إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ " النجم: ٢٣
- "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ " الحجرات: ١٢

رفض التقليد الأعمى:

- **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آَبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ** " المائدة: ١٠٤

خلل التفكير بشخصنة الأفكار

- **إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا**" البقرة: ١٦٦-١٦٧

وفى القرآن آيات صريحة على بعض العمليات الايجابية في التفكير التي ينبغي تعليمها وتعلمها مثل:

١ - **التصنيف**:ويعنى فرز الكيانات التي بينها مشابه مشتركة ؛ في فئات تتسم بالحصر،والجمع والمنع بقدر ما تسمح طبيعة الكيانات:

- **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**" فاطر:٣٢

٢ - **إقامة الأدلة والبراهين على الحكم**. ويدخل في هذه العملية البرهان اللفظي والعملي، والرياضي بمعنى " الرياضيات ":

- "**وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** " البقرة: ١١١
- " **أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** "الأنبياء: ٢٤

٣ - **المقارنة**: وتعنى ملاحظة أوجه الشبه والاختلاف بين كيانين:

- " أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ" ص: ٢٨
- " أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ" النحل: ١٧

٤ - التفكير الاستنباطي Deductive Thinking وفيه تذكر قضية Statement أو مبدأ جامع، ثم تستنبط منه القضايا الجزئية أو المبادئ الفرعية ومثاله في القرآن:

- رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى" طه: ٤٩ ثم يأتي بعد ذلك المبدأ العام:
- الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى" طه: ٥٣

٥ - التفكير الاستقرائي Inductive Thinking وفيه تستقصى الجزئيات والعناصر المكونة للشيء أو الفكرة ثم تؤسس عليها القاعدة أو المبدأ ومثاله في قوله تعالى:

- أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ، فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ" الغاشية: ١٧-٢١

٦ -التفكير الناقد Critical Thinking وهو تفكير يتسم بالعمق، ويعرض البدائل في المواقف أو الظواهر والأحداث، ويبحث عن الأسباب ومثاله قول الله سبحانه:

- "عَبَسَ وَتَوَلَّى، أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى،أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى،أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى، وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى،وَهُوَ يَخْشَى،فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى، كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ " عبس ١-١٢

وصفوة القول في خصيصة عقلانية التصور الإسلامي هي أن الإسلام " الدين " أدرك مبكراً دور العقل البشرى في تسيير الحياة الدنيا، وفى تشخيص واقع الحياة، ونقد هذا الواقع، وتصور بدائل ومسارات ممكنة لحل المشكلات الاجتماعية التي تعرض للناس.

وإعمال العقل لا يتعارض مع إعمال ما أوصى الله به من أوامر ونواه لا تتعارض مع العقل السليم، وما أثبتت مسيرة البشر صلاحه للحياة الدنيا – التي هي مزرعة للحياة الآخرة – وهى دار ابتلاء للناس، الذين رسَّخ فيهم خالقهم – جل شأنه – قابليات: القدرة على التفكير والتعبير، وحرية الاختيار بين نجد الهدى والصلاح ونجد الضلال والفساد.والقدرة على نقد ذواتهم، ونقد الآخرين، وتمييز الطيب من الخبيث قولاً وفعلاً،

واستشراف المستقبل، وقد لعن رب الناس من يعطلون هذه القابليات، أو يهدرونها، أو يبطلون فاعليتها ؛ لأن فعلهم هذا يجعلهم ينحدرون إلى منزلة البهائم.

- **"فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ"** محمد: ٢٢-٢٣
- **"لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** " الأعراف: ١٧٩

وجدير بنا هنا أن نتوقف قليلاً أمام ما يقال عن الجبر الذي يفرضه الوحي الإلهي، وبين حرية الاختيار التي قلنا – قبل – إن الله جل شأنه فطر الناس عليها. والجَبْر لغة غير الإجبار؛ فالجبر مصدر للفعل الثلاثي " جَبَر " ومصدره: جَبْراً وجبوراً وجبارة أصلح. يقال: جَبَرَ – فعل لازم – العظمُ الكسير، وجَبَر الفقير واليتيمُ: صلح حاله.والإجبار مصدر للفعل الرباعي"أَجْبَرَ ومعنى ألزم إلزاماً.والجبرية في الاصطلاح العربي مذهب من يرون أن الإنسان مجرد من الأفعال التي تظهر على يديه أو لسانه،وأن نسبة الفعل يجب أن تكون لله سبحانه وتعالى ومن هنا شاعت المقولة (الجدلية) "إن نقيض الحرية والاختيار هما الجبر والجبرية".

هذا ولم يرد في القرآن الكريم لفظة جَبَر فعلاً أو اسماً، وإنما وردت كلمة " جبار" وهى صيغة المبالغة ووصف بها العصاةة والمستبدون من الحكام:

- **"وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ** " هود:٥٩
- **"وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ"** إبراهيم:١٥
- **"كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ"** غافر:٣٥
- **"وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا"** مريم:١٤
- **"وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا"** مريم:٣٢
- **"إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ"** القصص:١٩
- **" قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ"** المائدة:٢٢
- **" نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ"** ق:٤٥
- **" وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ"** الشعراء:١٣٠

وحين نتأمل السياقات التي وردت فيها الكلمة مفردة أو جمعاً في الآيات السابقة نجد أنها يجمعها إطار واحد يتألف من: العصيان، والفساد والإفساد في الأرض، والاستكبار والعناد، والقسوة والبطش، وادعاء المعرفة والعلم، والاستبداد وتلك صفات تتجلى لذوى البصر والبصيرة في كثير من عباد الله حكاماً ومحكومين سواء كانوا أفراداً أو جماعات.

وجاء لفظ جبار وصفاً من صفات الله سبحانه وتعالى في القرآن مرة واحدة، مقترناً بصفات أخرى لذات الجلالة في قوله:

- " **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ،هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ** " الحشر: ٢٢-٢٣

وحين نتأمل السياق الذي وردت فيه الكلمة في آخر الآية:٢٣ نجده سياقاً يلفه إطار الرحمة، وأحدية الخالق سبحانه، وتقديسه وتنزيهه عن أن له شبيهاً في ذاته، أو في صفاته، وأنه مالك الملك كله،وأنه السلام المؤمن العزيز المهيمن على كل مخلوقاته. هذا إطار يناقض – بشكل حاد – السياق الجامع الذي وردت فيه الآيات منسوبة إلى البشر كما قدمنا

رابعاً: تصور وسطى عادل

لعل أبرز الصفات الجامعة للتصور الإسلامي أنه تصور وسطى عادل، ينأى عن التطرف في أي جانب من جوانبه، وينشد الوسَط – بفتح السين – العادل المتوازن، ولذا خوطبت الأمة الإسلامية في قول الله تعالى:

- "**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا" البقرة: ١٤٣**
- "**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**" الحج:٧٨

وفرَّق الراغب الأصفهاني بين الشهود والشهادة بقوله " الشهود بالحضور المجرد أولى والشهادة مع المشاهدة بالبصر أو البصيرة أولى "

وجاءت الشهادة بمعنى العدل والأمانة في الأخيار بما هو معلوم:

- "**حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا" فصلت: ٢٠،٢١**

والوسطية تعنى البينية والاعتدال والاتزان، سواء أكانت البينية حسِّية، أو معنوية، وجاءت الكلمة بتسكين السين (وسْط) وفتحها (وَسَط). والأولى ظرف بمعنى بَيْن وزناً ومعنى. والثانية وَسَط وهى اسم للمكان بين أمكنة تحيط به، واسم للشيء الواقع بين أشياء محيطة به ؛ ليس هو إلى بعضها أقرب منه إلى الآخر. وحين ينتقل اللفظ من سياق الحسيات إلى سياق المعنويات فإنه يعنى الاعتدال والوَسَط من كل شيء أعدله، والاعتدال توسط بين حالين في الكم أو في الكيف أو فيهما معاً.

هذا، ومعيار القيمة هو جوهر المعنى الشائع لمفهوم الوسطية بمعنى الاعتدال، والاتزان، والأفضلية، والعدالة، والحرية والشهادة.

والاستقامة ليست شيئاً إلا الالتزام بالقيم وبالصراط المستقيم الذي شرعه رب العالمين، وصدق الله العظيم:

- "**أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** " يوسف: ٤٠
- "**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** " البينة: ٥
- " **قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** " الأنعام: ١٦١
- " **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا** " هود: ١١٢

واضح في هذه الآية الكريمة أن عبادة الله سبحانه وتعالى هي جوهر الدين، وأم الفضائل، وأن هذه العبادة هي الحنيفية السمحاء ملة أبى الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) والحنيفية تعنى الميل عن الباطل إلى الحق ؛ وهى سمة تدعو إلى الأكمل والأحسن، وتنفى في الوقت ذاته الغُلوَ والتشدد والتنطع في الدين.

وهذا هو ما أشارت إليه أحاديث نبوية شريفة منها ما يلي:

- هلك المتنطعون قالها الرسول (e) ثلاثاً " [١] وأراد بالمتنطعين المغالين ومن يتجاوزون الحد في أقوالهم وأفعالهم باسم الدين، ومن يستمسكون بظاهر القول دون نظر إلى سياقاته أو مناسباته.

---

١ أخرجه مسلم كتاب العلم، هلك المتنطعون

- وقوله (e) " إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشِروا، واستعينوا بالغَدْوة والرَّوحة وشيءٍ من الدُّلْجة " (١)

والوسطية الإسلامية مفهوم شامل لا ينفك عن أي جانب من جوانب السلوك.

- " **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**" الأنعام: ١٥٣

إن شهادة المسلمين على الناس، بوصف أنها شهادة تبليغ تفرض على الأمة توضيح حقائق الدين كما جاءت بها الشريعة الإسلامية، وأن يوضحوها للناس كافة لأنها دعوة إنسانية عالمية وأن تحضهم بالحسنى على توظيف جواهرها - هذه الشريعة - دونما إكراه، لأن الله قال لرسوله " **أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**" يونس: ٩٩، وألا نتقاعس عن إبراز رؤية الإسلام للمشكلات المعاصرة، والتحديات الحديثة التي عرضت لحياة عباد الله في حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية.

شهادة المسلمين على الناس تقتضى أن يكونوا شهوداً حاضرين وفعالين في الملتقيات العالمية التي تنظم لمناقشة المشكلات العالمية وأن تعلن فيها شهادة العدل والإنصاف والمساواة ومقتضيات كل منها في مستويات الأنظمة السياسية للحكم وكذلك الأخلاقيات الإنسانية التي يجب الالتزام بها.

والوسط العدل يكون في الشهادة، وفى الحكم على الذات، وفى الحكم على الناس؛ لأن العدل والإنصاف يرقيان إلى أن يكونا مقصداً أساسياً من مقاصد الشريعة الإسلامية ولنتأمل سوياً قول الحق الحكيم:

- " **وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**" المائدة: ٤٢
- "**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**" النساء: ٥٨
- " **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ**" آل عمران: ١٨
- " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**" المائدة: ٨

---

١ أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب الدين يسر

- **" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** " النساء: ٣٥

والحكم بالعدل أو القوامة بالقسط لا تتأتى تلقائياً، ولا تحدث عفواً، وإنما يجب أن تستند إلى معرفة واعية يجب أن يتأهل بها من يصدرون الحكم، و " أولوالعلم " في الآية الكريمة الذي يجب أن يكون الواحد منهم، عادلاً في الأحوال كافة"**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا**"المائدة:٨ [١]

والقسط في الآية الأخيرة يعنى أن ينصف الإنسان الفرد الناس من نفسه ؛ فلا يستكبر عليهم، ولا ينحاز لأحد الطرفين وفقاً لأي اعتبار آخر ؛ غير تحقيق العدل والتسوية بين الناس دون تحيف أو تحيز، أو تعصب – حتى للوالدين اللذين نهى الإسلام عن إغضابهما، وأمر أن يقال لهما قول كريم.

خامساً: تصور يؤمن بالتنوع والاختلاف

قدمنا أن للأديان خصوصيات، والخصوصية لا تنفى التنوع في الجوانب الإنسانية: في المعتقدات والأفكار والألوان والأعراف واللغات والعادات. والتنوع ماثل في الظواهر الطبيعة التي خلقها الله سبحانه وتعالى وسخرها للإنسان: ليل، ونهار، وبحار، وأنهار، وأرض صحراوية لا تنبت وأرض خصبة تنبت الزرع والثمر، وتعمل كل هذه النطاقات كأنشطة فرعية في وحدة كونية تجري على سنن، لا تبديل له، إلا بقدر الله سبحانه وتعالى.

ويهمنا في هذا المقام قضية تعدد الأديان بين وضعية ونبوية ورسالية، وقد ذكرنا أن الإسلام ينشد وحدة الإنسانية، ويريد الخير لكل الناس في موضع سابق في هذا الكتاب أمثلة للديانات الوضعية [٢] وثمة أديان سبقت الأديان الرسالية أو الكتابية الثلاثة اليهودية والنصرانية والإسلام بحكم أنهم بشر " كان الناس أمة واحدة......" بحكم أنهم ما فطروا عليه من عقلانية وإرادة حرة وهي قابليات رُسِّخت في فطرتهم. ونكمّل الآية التي بدأناها

§ **" كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ** " البقرة: ٢١٣وأكد القرآن:

§ **" وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** " المائدة: ٤٥

---

١ شنآن: بغض وكراهية

٢ راجع ص ص في هذا الكتاب

وذكر القرآن الكريم أن النبيين مُصطفون من الله سبحانه وتعالى وأنهم ينتمـــون إلـــى ذريـــة واحدة:

- " **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** " آل عمران: ٣٤ " **وَآَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ** " الإسراء:٢ وفى سورة المائدة نجد:
- " **وَقَفَّيْنَا عَلَى آَثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ** " المائدة: ٤٦

الفصل الثالث

الأخلاق في الأسرة

الأخلاق في الأسرة

مهاد:

خلق الله الإنسان، وفضَّله على كثير مما خلق، وأنعم عليه بقابليات فطرية: بدنية، وعقليـــة، ونفسية واجتماعية، وجمالية. ومنحه الإرادة والطاقة ليستطيع من خلالهما تنمية فطرته، وترقيتها، وإحسان استغلالها ؛ وفقا لمكتسباته المعرفية في مراحل عمره المختلفة، وسخر الله – جلت قدرته – للإنسان ظواهر كونية ومصادر طبيعية تمكيناً له من ترشيد أدائه في عمـــران الأرض التـــي أنشأه الله منها، واستعمره فيها،تحقيقاً لمقاصد كلية غايتها العمران في حياة إنسانية اجتماعية وفقاً لما شرع الله ولنتأمل سوياً قول الخالق العليم الخبير:

- " **هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**" هود: ٦١
- " **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** " الإسراء: ٧٠
- " **هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ** " فاطر: ٣٩
- " **وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُــهُولِهَا قُصُــورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**" الأعراف: ٧٤

هذا، والإنسان " **الجنس** " كائن اجتماعي، لا يستطيع أن يعزل نفسه عن نظرائـــه مـــن البشر في تجمعات مختلفة، تبدأ بالأسرة، وجماعات الرفاق، والجماعات الوطنية وتتصاعد حتى تصل إلى الجماعة الإنسانية كلها:

- " **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْــرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** " الحجرات: ١٣

والأسرة – التي تبدأ بزوج وزوجة – هي الوحدة الاجتماعية الأولى في المجتمع، لما ينشأ بـــين أفرادها من علاقات عاطفية واجتماعية، وتحتاج هذه العلاقات لتؤدى وظائفها التي تفرضها ثقافة المجتمع إلى ضوابط وأحكام أخلاقية شرعتها الأديان الكتابية.

وجاءت في شأنها نصوص في الكتب المنزلة بشَّر بها وأنذر رسلٌ اصطفاهم الله جلَّ علاه، وسوف نعرض هذا التصور الإسلامي للقواعد الأخلاقية التي يرى الإسلام ضرورة الالتزام بها، وتواضع عليها من يدينون بدين الإسلام حتى غدت أعرافاً اجتماعية، تنصب عليها أحكام العقل الجمعي في كل ثقافة بالحلِّ والحرمة أو بالاستحباب والاستنكار.

♦ مكانة الأسرة في الإسلام.

يمثل " النسب " أو النسل في الدعوة الإسلامية مقصداً كلياً من مقاصد الشريعة الإسلامية لمصلحة من يتدينون بالإسلام. وأول عنصر في هُويَّة الفرد نَسَبُه، بمعنى انتماؤه إلى أب وأم، أو نَسْلَه بمعنى انفصاله عن رحم أمه ؛ يقال: " تناسَل القوم "، ومعناه توالدوا، وأنسل بعضهم بعضاً، وتناسل بنو فلان: كثر نَسْلُهم.

والنسل اسم يطلق ليعنى الولد (بمعنى المولود) والذرية. ومقصد النَسْل في الإسلام هو حفظ النَسل عَبْر الأجيال لا طراد عمران الأرض ؛ فتلك هي الأمانة التي حملها الإنسان " **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** " الأحزاب: ٧٢

وقد قدمنا قبلاً أن المراد بمقاصد الإسلام ومنها " الدين، والنفس، والعقل، والمال، والنسب، والحرية، والعدل، والمساواة، والشورى " ليس مجرد الحفظ والوقاية ؛ وإنما مراد الإسلام من كل مقصد يشمل صيانته ووقايته، وتنميته إلى أفضل ما تسمح به طاقة الفرد، وطاقات الجماعات التي ينتسب إليها وسياقات الزمان والمكان، وكذلك إحسان توظيف كل مقصد لمنفعة الآحاد من الأفراد وجماعاتهم ومجتمعاتهم وللإنسانية كلها.

هذا ويتعدد السلوك الأخلاقي في الأسرة تبعاً لموقع كل فرد فيها: الزوج والزوجة والأبناء. ويمكن أن نوجز ضوابط هذه العلاقات على النحو التالي:

♦ المساواة بين الذكر والأنثى

وتبدأ هذه المساواة منذ بداية التفكير في تكوين أسرة ؛ فاختيار الزوج للزوجة أو الزوجة للزوج يجب أن يؤسس على حقيقة المساواة في أصل الخلق من نفس واحدة: " **يَا أَيُّهَا النَّاسُ**

اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا " النساء: ١

ومغزى هذه الآية الكريمة هو أن الرجل والمرأة متساويان في الخلقة أصلاً، وأن ذريتهما – ذكوراً وإناثاً – متساوية في الحقوق والواجبات، إلا فيما تقتضيه طبيعة كل منهما من خصوصية، وأن عمران الأرض لا يكون إلا بالتكامل بين الذكر والأنثى في زواج شرعي مشهود تتساوى فيه الحقوق والواجبات بينهما ؛ كالتكليف بأداء الأوامر، واجتناب النواهي، والالتزام بالحلال، والعزوف عن الحرام ؛ تأسيساً على أن الرجل والمرأة – كليهما – متصف بأهلية التكليف، ومتمتع بنعمة العقل، ومؤهل بفطرته ومسيرة نمائه - بوجه عام – للتمييز بين الخبيث والطيب من الأقوال والأفعال والمواقف ؛ ولذا فإن استبداد أحدهما بالآخر مجانب لتقوى الله، ومناف للخطاب الإلهي الموجه للذكر والأنثى على سواء فقد جاء في حديث عن السيدة عائشة – رضي الله عنها – أن رسول الله (e) قال " النساء شقائق الرجال ". [1]

وفى هذا الصدد يقول علماء أصول الفقه: إذا ورد الخطاب بلفظ الذكور كان خطاباً للنساء – أيضاً – إلا في مواضع مخصوصة قامت عليها أدلة التخصيص ".

وقد جاء في الخبر أن أم سلمة – رضي الله عنها – سمعت رسول الله (e) ينادى" يا أيها الناس " وكانت تمتشط ؛ فقالت لجاريتها: استأجري عنى، فقالت الجارية: إنما دعا الرسول الرجال، ولم يدع النساء، فقالت أم سلمة " إني من الناس " خبر صحيح رواه مسلم.

هذا بالإضافة إلى أن خطاب القرآن الكريم للإنسان وللناس جاء في القرآن الكريم ٣٠٦ مرة ثلاث مائة وست مرات، وجاء موجهاً للمرأة (امرأة معرفة بأل وبالإضافة) قد ورد ٥٥ خمساً وخمسين مرة. وتلك قرينة عموم الخطاب للرجل والمرأة على سواء، وهي أيضاً قرينة الخصوصية التي تكون في مواضع قليلة نسبياً

♦ أخلاق الخِطْبة

الخِطْبة بكسر الخاء، وسكون الطاء هي أن يبدى رجل رغبته للمرأة أو لوليها أن تقبله زوجاً، وقبول الطرفين لهذه الرغبة، والتواعد على الزواج مستقبلاً ؛ فهي ليست زواجاً ؛ إذ إنها لا تثبت حقاً لأحدهما قِبل الآخر، ولا تحل حراماً، وتظل المخطوبة أجنبية عن من يخطبها حتى يتم عقد الزواج.

١ حديث حسن رواه أحمد وأبو داوود

ومن أخلاق الخِطبة في الإسلام أنه لا يجوز شرعاً أن يتقدم رجل لِخطبة مخطوبة لغيره ؛ فقد جاء في الحديث عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أنه كان يقول: نهـى النبي(e)أن يبيع بعضكم على بيع بعض، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه،حتى يترك الخاطب قبله أو يأذن له"(١)

ولا يجوز أن يتحلل الخاطب أو المخطوبة مما تواعدا عليه في الخِطبة إلا إذا تأكد أحدهما أو وليه من نقص في دين الآخر، أو سوء خُلقه، وإلا كان المتحلل منافقاً، لا خلافه ما وعد به.
وقد روى أبو هريرة – رضي الله عنه – عن النبي(e) أنه قال: " إذا خطب إليكم من تَرضَوْن دينه وخلقه فزوِّجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض " (٢)

♦ حسن اختيار الزوج

ومن عوامل نجاح الأسرة الحرص في اختيار الزوج، واللجوء في الحكم على معيارين: أولهما ؛ " التدين " بمعنى الخلق السليم ؛ استناداً إلى قول الرسول (e) " تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها ؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك " (١)

وثاني المعيارين هو " التكافؤ " في السن والثقافة والبيئة. ومعناه في مقام الزواج التقارب في العمر الزمني، فمكروه في الإسلام أن يتزوج شيخ طاعن في السن بفتاة عمرها أقل من عمره. وهذا التكافؤ في العمر متروك لما تعارف عليه المجتمع الذي يعيش فيه الزوجان. ويشمل التكافؤ – أيضاً – تقارب المستوى الثقافي العام، فمكروه أن تتزوج فتاة جامعية أمياً لا يقرأ ولا يكتب ؛ وذلك لاختلافهما البين في فهم أمور الحياة الخاصة والعامة، ومن مقتضيات التكافؤ تقارب المستوى الاقتصادي ؛ فقد روى عن السيدة عائشة – رضي الله عنها – أن الرسول (e) قال: " تخيروا لنطَفِكم، وانْكِحوا الأكفاء، وأَنْكِحوا إليهم " (٣)

♦ الأسرة منظومة اجتماعية

جذر كلمة منظومة هو(نَ ظَ مَ)، ومصدرها: نَظْمٌ: ويعنى ضم مكونات الكيان بعضها إلى بعض، فنظم اللؤلؤ يعنى ضم حباته في نسق معين، والنظام: الخيط الذي ينظم فيه اللؤلؤ، ونظام

١ حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وأبو داوود

٢ رواه البخاري ومسلم

٣ رواه البخاري ومسلم انكحوا بهمزة وصل لا تنطق ولا تكتب: تزوجوا، وأَنْكِحوا بهمزة قطع تنطق وتكتب: زوِّجوا ففي التنزيل وانكحوا اليتامى منكم " أي زوِّجوهم. والكفء: المماثِل والقوى القادر على أداء العمل.

الأمر: قِوامه وعماده، والنظيم والنظيمة – على وزن فعيل وفعيلة منظـوم ومنظومـة اتسـقت مكوناتها، والتأمت كي تؤدى وظائف معينة على الرغم من إمكانية رؤية أجزائها مستقلة، واتساق الأنظمة الفرعية داخل المنظومة يجعل مخرجاتها أكبر من جمع مخرجات أجزائها.

أردت بهذه التوطئة اللغوية أن أقول: إن الأسرة في المنظور الإسلامي منظومـة Social Institution وتحكم مسيرتها ضوابط يجب الالتزام بها ؛ حتى لا يختل توازن المنظومة في أداء الوظائف العليا التي تستهدفها، وحتى لا ترتبك المنظومة، أو يتدنى مستوى مخرجاتها ممثلة في الأولاد والأحفاد. ويؤدى هذا التدني – طبعاً – إلى تدنى الجماعة والمجتمع الذي تنتمي إليـه الأسرة. ومن هذه الضوابط في المنظور الإسلامي ما يلي:

١- أن يكون عماد الأسرة وقوامها **زواج شرعي** بمعايير الشريعة الإسلامية بين رجـل وامرأة ؛ ولذا يرفض الإسلام، ويحرِّم الصور الشاذة لتكوين هذه المؤسسة ؛ كالزواج بـين امرأتين، أو رجلين، والزواج الجماعي، ونحو ذلك من الصور التي لا تنتج نَسْـلاً يكفـل مسيرة البشرية، كما حددها خالق الناس.

وقد كان في جاهلية العرب – قبل الإسلام – أنماط من الزواج تشبه ما مثلنا له هنـا، وحرَّمها الإسلام، ونظم الزواج والطلاق والميراث في آيات كثيرة مـن القـرآن الكـريم وخاصة في سورة النساء.

٢- لا زواج إلا بموافقة المرأة ورضاها، دون جبر أو إكراه ؛ فقد صح عن النبـي (**e**) قوله: لا تنكح البكر حتى تستأذن، ولا الثيب حتى تستأمر " [١]

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما - أن النبي قال " الثيب أحق بنفسها من وليهـا، وإذنهـا صماتُها " [٢] و الصمات: الصمت والسكون.

ويستنبط من هذين الحديثين الشريفين أن الفتاة هي صاحبة الشأن الأول فيمن تتزوج، وليس لأحد – أيا كان – أن يهمل رضاها، لأي سبب من الأسباب فقد روي عن السيدة عائشة – رضي الله عنها – أن فتاة دخلت عليها فقالت: " إن أبى زوجني ابن عمى، ليدفع به خسيسته (٣) وأنا كارهـة، فأجلتها حتى أتى النبي (**e**) فأخبرته، فأرسل النبي إلى أبيها فدعاه، فجعل الأمر إليها. وعندئذ قالت الفتاة " يا رسول الله قد أجزت ما صنع أبي، ولكني أردت أن أعلم " أللنساء من الأمر شيء" (٤)

---

١ حديث صحيح رواه أحمد ومسلم وأبو داوود والنسائي

٢ رواه مسلم

٣ الخسيسة تدنى مكانة المرء بين قومه والحديث صحيح رواه النسائي

٤ السنن الكبرى للنسائي ٥٣٦٩

٣- السكينة والمودة والرحمة والتعاون في السراء والضراء ؛ كي يتأتى لأفراد الأسـرة جميعهم الحياة الاجتماعية الطيبة السعيدة، ولنتأمل سوياً قول العزيز الحكيم:

- **وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** " الروم: ٢١

فالمرأة – إذن – في المنظور الإسلامي من الرجل، والرجل من المرأة فلا خصومة، ولا تنافس، ولا تناقض ؛ وإنما الزواج تعاونٌ وتكاملٌ، ومودة وتراحم، وتناسقٌ: وصدق الله العظيم:

- **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ** " آل عمران: ٩٥

وصح عن الرسول(e) أنه قال:" تزوجوا الوَدود الولود فإني مكاثرٌ بكم يوم القيامة" [١]

هذا، والبَعْضِيَّة في الآية الكريمة (أعلاه) توحي بأن يتماهى كل من الزوج والزوجة في الآخر، وهذا التماهي لا يكون إلا بالتراحم بين الزوجين، وليس التناحر ؛ والتَّواد وليس التباعد أو التباغض، والاستحباب وليس استبداد أيهما بالآخر.

وعلى كل من الزوج والزوجة الالتزام بعفة اللسان ؛ فلا يجوز لأحدهما أن يشتم الآخـر أو أن يقبح عمله أو قوله؛ بل عليهما أن يتناصحا بالحسنى،وأن يتجنبا الفحش في القول وفى الفعل ؛ فقـد روى عن ابن سعيد الخدري – رضي الله عنه – أن النبي (e) قـال: " لا تقولـوا هُجْـراً " (٢) والهُجر بضم الهاء وسكون الجيم هو قول السوء بعامة ؛ فما بالك بقول السوء بين الزوجين، وفـى الأسرة الواحدة التي ينشأ فيها أطفال صغار يكتسبون دون وعى تقاليد وعادات الأسرة التي تربَـوا فيها.

والفحش مَنْهِيٌّ عنه بعامة، وهو أشد نُكراً، وأعظم ضرراً في الأسرة ؛ فقد روى عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – أنه قال: لم يكن النبي (e) فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول: " إن مـن خياركم أحسنكم أخلاقاً " [٣]

٤- الثقة المتبادلة بين الزوجين

---

١ صحيح رواه ابن حيان

٢ صحيح رواه مالك وأحمد

٣ صحيح رواه البخاري ومسلم وأحمد متفحشاً: اسم فاعل من يتفحش وتعنى الكلمة من يشيع مَقولات السوء.

ومن أخلاقيات الأسرة في التصور الإسلامي أن تكون بين الزوجين ثقة متبادلة ؛ فلا يأخذ أحدهما الآخر بالظن، ولا يتجسس عليه، وأن يتثبت دائماً مما يوجه إلى الآخر من شبهات محتملة، قد يراد بها إفساد الحياة الزوجية.

وقد جاءت نصوص حاسمة في القرآن الكريم تحض على تبادل الثقة بين الزوجين ولنقرأ سوياً قول الحق تبارك وتعالى:

- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ** " الحجرات: ١٢
- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** " الحجرات: ٦

٥- الأهلية والشخصية المستقلة لكل من الزوجين

ويجدر بنا أن نؤكد هنا أن الشراكة الزوجية، وتماهي الزوجين: أحدهما في الآخر، والتعاون، وتبادل الثقة بينهما – كل هذا لا ينفى أن لكل من الرجل والمرأة المتزوجين شخصيته الذاتية المستقلة التي يجب الاعتراف بها وصيانتها في التعامل بينهما.

والأهلية تعنى صلاحية كل منهما لصدور أفعال يعتد بها شرعاً وقانوناً، وهذا ما يعبر عنه أحياناً بمصطلح الحقوق المدنية، وهى الحقوق الثابتة للإنسان لكونه مجرد إنسان، توفرت فيه سمات البلوغ والتمييز العقلي، وهما مناط التكليف الشرعي، وفى هذا يقول الحق تبارك وتعالى:

- " **أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى** " النجم ٣٨ - ٤٢
- " **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**" النحل: ٩٧
- " **وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ** " البقرة: ٤٨
- " **الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ** " غافر ١٧
- " **مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** " القصص: ٨٤

ومغزى أهلية كل من الزوجين على سواء أن لكل منهما حق التملك والبيع والشراء والإقراض والاقتراض مستقلاً عن الآخر ؛ ولا يتوقف أي من هذه الحقوق على رضا أو موافقة الأب أو الزوج أو الأخ الأكبر، ومعنى هذا هو أن لكل من الزوجين ذمة مالية مستقلة، وله حق التصرف فيما يملك وعليه الوفاء بما يبرم من عقود أو عهود. ويستحب في هذا الصدد اعتماد التشاور والتناصح بينهما دون إلزام أو إكراه أو ترويع. وفيما يلي آيات من الذكر الحكيم تستأهل التأمل:

- **" وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"** المائدة: ٣٨
- **" قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"** النور: ٣٠- ٣١

وقد أكد القرآن مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة في جزاء الإسلام والإيمان والتهجد، والصدق، والصبر، والخشوع لله، والصدقة، والصوم، والعفة وذكر الله: فقال تعالى:

- **" إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا "** الأحزاب:٣٥

وقد نهى القرآن الكريم أن يطمع أحد الزوجين في مال الآخر أو يحسده ؛ فقال تعالى:

- **"وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا"** النساء:٣٢

والاكتساب في الآية الكريمة يعنى ما اكتسبه المرء لقاء عمل أداه أو لقاء حق آل إليه بـــالميراث الشرعي.

ويجدر هنا أن ننبه إلى أن ما قلناه قبلاً عن استقلال ذمة كل من الزوج والزوجة الماليـــة لا يطعن فيه حديث ضعيف يساق أحياناً في هذا المقام. وهو حـــديث رواه أبـــو داوود والحـــاكم فـــي المستدرك ونصه " لا يجوز لمرأة أمرٌ في مالها إذا مَلَك زوجُها عِصْمَتَها. وقد قـــال عنـــه الإمـــام الشافعي رضي الله عنه " هذا الحديث ليس بثابت والقرآن الكريم يدل على خلافه " [١]

هذا وقد قدمنا قبلاً أن الزواج الـــذي وُصِّـــف فـــي القـــرآن الكـــريم بأنـــه ســـكنٌ نفســـي (Psychological Habitat) يؤكد حق التصرف مالياً لكل من الزوجين مستقلاً بذاته، وهذا التأكيد لا يَنْفِي التشاور والتناصح بين الرجل والمرأة في القضايا المالية ذات الأثر الممتد في حياة الأسرة ؛ والمشورة هنا تكون كاشفة لمزايا وعيوب التصرف، ولكنها ليست مُلْزِمة، يكون التشاور فيها وسيلة من وسائل الاستحباب من جانب كل من الزوجين.

٦ - تقاسم المسئوليات في الأسرة

٦ - ١ مسئولية الزوجة في بيت الأسرة

يؤكد التصور الإسلامي لأخلاق الأسرة النواة أن الزوجة منوط بها النهوض بشئون بيت الزوجيـــة على وجه ملائم لأمثالها. وهذه المسئولية واجب ديني ؛ بحكم روابط الرحمة والتواد والسكينة النفسية لأفراد الأسرة جميعاً.

وإذا كانت المرأة تعمل – خارج المنزل – فإن عليها أن تسهم في نفقاته، ويتحدد قـــدر إســـهامها بالرضا والتوافق، أو بقدر ما يقرره حكم عدل في مثل هذا الأمر وعلى الزوجة إذا أعسر زوجهـــا الإنفاق عليه وعلى الأبناء، ويكون لها حق الرجوع على الزوج بما أنفقت إذا أيسر(٢)

٦ - ٢ المسئولية المشتركة

١انظر ميثاق الأسرة في الإسلام " ص ١٩٧وهو عمل شرف مؤلف هذا الكتاب بالإسهام فيه مع عدد من علماء أجلاء فـــي تخصصات مختلفة.

٢ للاستزادة ومعرفة وجهات النظر المختلفة في هذا الصدد راجع ميثاق الأسرة في الإسلام. المرجع السابق ص ص ٢٦١ - ٢٦٥

وانضباط الفاعلية في نظام الأسرة مسئولية مشتركة يقوم فيها كل فرد بما هو في حدود طاقتـــه العقلية والبدنية والمالية. ولعل خير ما يلخص هذه المسئولية المشتركة ما رواه ابن عمر – رضـــي الله عنهما – عن الرسول (e): في قوله:

" كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير راع، والرجل راع على أهل بيته والمرأة راعية على بيت زوجها فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته "[١]

٦-٣ شمول المسئولية inclusivity

إن ما قدمناه في الفقرة السابقة لا ينفى اختصاص الرجل ومسئوليتة في أداء حقوق الزوجة، ومنها دفع مهر للزوجة وتكفله أصلاً بالإنفاق على الأسرة لقوله تعالى:

- " **وَآَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً** " النساء: ٤

ولقوله تعالى في الإنفاق:

- " **لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آَتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آَتَاهَا** " الطلاق: ٧

ومسئولية الرجل هنا مسئولية تكليف من شأنها حماية أفراد الأسرة وصيانتها. وسبيل ذلك هو العمل لكسب المال الحلال وتحصيل الرزق بالطرق المشروعة.

٦-٤ القوامة على المرأة والولاية في الأسرة

وفى هذا الصدد يقرر الإسلام نوعاً من قوامة الزوج على الزوجة، وهـــى قوامـــة لحمتهـــا التراحم وسداها التَّواد، والمعاشرة بالحسنى، والتناصح بالمعروف وبالحكمة والموعظـــة الحســـنة، والتشاور والمشورة هنا كاشفة لمزايا تصرفات كل منهما، فقد جاء في الذكر الحكيم ضرورة التشاور حتى عند العزم على انفصال عرى الزوجية " **فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا** " البقرة: ٢٣٣

فقوامة الزوج على زوجته ليست قوامة تعسف أو بغى، وإنما هي قِوامة تنظيم، وهـــى ضـــرورية لمسيرة أية مجموعة من البشر – قل عددها أو كثر –

وحرى بنا أن نتأمل النصوص التي وردت في شأن قوامة الرجل على المرأة في قوله تعالى:

- **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِـــنْ أَمْـــوَالِهِمْ**" النساء: ٣٤

---

١ حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي

وفى هذا الصدد تدل المعاجم اللغوية على أن " القِوامة " مرادف للفظ القيام على الأمر أو المــال أو ولاية الأمر [١]

وجاء في القرآن الكريم قول الله سبحانه:

- " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَــوْ عَلَــى أَنْفُسِــكُمْ أَوِ الْوَالِــدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** " النساء: ١٣٥

وهذا أمر للمؤمنين بأن يلتزموا العدل والإنصاف في كل تصرفاتهم. وقال الفرَّاء (ت ٢٠٧هــ) في تفسير الشهادة في الآية الكريمة:" هذا في إقامة الشهادة على أنفسهم وعلى الوالــدين والأقــربين دون نظر في غنى الغنى أو فقر الفقير، فإن الله أولى بالشهادة ". [٢]

ويتصل بقوامة الرجل على المرأة ما استنتجه بعض العلماء من قوله تبارك وتعالى:" **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** " البقرة: ٢٢٨

وذلك حيث فسروا الدرجة بأنها نقصٌ في تدين المرأة وفى عقلها. وهذا خطأ بــيِّن. ولنقــرأ سوياً الآية من أولها وليس من آخرها. يقول الله سبحانه وتعالى:

- " **وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَــا خَلَــقَ اللَّــهُ فِــي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** " البقرة: ٢٢٨

وتليها الآية ٢٢٩ عن حدود الطلاق:

- " **الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آَتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَــا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** " البقــرة: ٢٢٩

فالآيتان في سياق لغوي هو حالة انفصال الزوج عن زوجته أي حالة الطلاق، وقد سُبقت الآية ٢٢٩ بالآيات من ٢٢٠ إلى ٢٢٨ وكلها تدور حول حدود الطلاق.

ولذا يقرر العوا أن الدرجة التي للرجال على النساء تتمثل في أن للرجل وحده دون المرأة حق إرجاع زوجته إلى عصمته في الطلاق غير البائن.

---

١ المعجم الوسيط: مادة / قَ وَ مَــ

٢ يحي بن زياد الفراء (١٩٨٠) معاني القرآن الكريم. ج (١) القاهرة، الهيئة العامة للكتاب. ص ٢١٩

ومن أجل ذلك فإنه يفسر الدرجة بأنها حق الرجل في إعادة امرأته إلى عصمته، ونقل عن القرطبي في تفسير الدرجة التي للرجل استشهاده بما قال عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – " والدرجة تشير إلى حض الرجل على حسن العِشرة، والتوسعة على النساء في المال والخلق، وأن تفسير الدرجة على هذا النحو مطابق لتفسير عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو أحد التابعين الذين يكثر النقل عنهم حيث قال " إن الدرجة مِلك العصمة وأن الطلاق بيد الرجل ".

- ولا حجة – أيضاً – لمن يستند في منع المرأة من تولي مناصب سياسية عليا إلى قول الرسول (e) " لن يفلح قومٌ ولَّوا أمرهم امرأة " لأن الولاية التي يشير إليها الحديث هي الخلافة العامة للمسلمين، أو الرئاسة العامة لأمتهم الموحدة، وهذه الدولة لم يعد لها وجود، ولا يتوقع لها وجود.

ويقرر العوا " لا بأس من حيث الأهلية والكفاءة أن تتولى امرأة بعض السلطات العليا ولو كانت رئاسة الدولة [١]

وأخلص إلى القول إن تبادل الولاية على الأسرة بين الزوج والمرأة أمر يحتمه التصور الإسلامي، إذ جاء في القرآن الكريم ما يلي:

- **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**" التوبة: ٧١

٦-٥ الحقوق بين الزوجين

للزوج على زوجته حق الطاعة في المعروف الذي لا يصيبها بأذى أو ضرر؛ لقول الرسول (e) " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق " [٢] ولقوله عليه الصلاة والسلام " أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة " [٣]

وعلى الزوجة أن تحسن التصرف في مال زوجها ؛ فتنفق منه بقدر ما تحتاج هي وأولادها؛ دون إسراف أو تقتير " **فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ**" النساء: ٣ وفسر حفظ الزوجة لزوجها " بأنه حفظ غيبته في نفسها وماله. سئل رسول الله (e): أي النساء خير فقال: " التي تسره إذا نظر إليها، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه فيما يكره في نفسها وماله " [٤]

---

١ محمد سليم العوا: (٢٠٠٦) الفقه الإسلامي في طريق التجديد، القاهرة سفير الدولية للنشر،الطبعة الثالثة ص ١٤٩ – ١٥٠

٢ حديث حسن رواه أحمد

٣ صحيح رواه الترمذي وابن ماجه

٤ صحيح رواه البخاري

هذا، وللزوجة الحق أن تتصدق من مال زوجها ؛ لما روته عائشة – رضي الله عنها – عن النبي (e) أنه قال:
" إذا تصدقت المرأة من طعام زوجها غير مُفْسِدة كان لها أجرها ولزوجها بما كسب"(١) وذلك بشرط أن يكون المُتَصَدَّق به قدراً يُعْلَم رضا الزوج به في العرف والعادة، وألا يترتب على هذا التصدق مَفْسدة مادية أو معنوية.

٦-٦ عمل المرأة خارج منزلها

يبيح الإسلام للمرأة أن تعمل خارج منزلها ؛ سعياً إلى تحقيق مصلحة الأسرة والمجتمع. وهذه الإباحة مشروطة: بأن يكون عملها مباحاً شرعاً، وأن يتراضى الزوجان عليه، وألا يتعارض عملها مع حقوق أطفالها في رعايتها لهم.

وليس في القرآن الكريم ولا في صحيح السنة النبوية نص صريح يمنع المرأة من العمل خارج منزلها لقوله تعالى " **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ** (٢٣) **فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** (٢٤) **فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** " القصص: ٢٢ - ٢٥

٦-٧ حق العلاج عند المرض

أسلفنا القول في أن إنفاق الرجل على زوجته وأولاده واجب عليه، سواء أكانت الزوجة مسلمة أو كتابية للنص الثابت في قوله تعالى: " **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**" النساء: ٣
ولقوله جل شأنه: " **أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ**" الطلاق: ٦

وليس ثمة نص صريح على واجب الرجل أن يعالج زوجته إذا مرضت، ولكن هذا الواجب مشمول في تأكيد الإسلام على أن الزواج سكن ورحمة ومودة" **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً**" الروم: ٣١ وينتقل هذا الحق للزوج على زوجته إذا مرض ولم يكن لديه ما يعالج به ؛ فهذا فيما أرى - والله أعلم- هو مغزى السكينة والرحمة والمودة في الآية الكريمة.

---

١ صحيح رواه البخاري وأحمد

٧ - تبادل الحقوق بين الآباء والأبناء

٧ - ١ حقوق الأبناء

من أبرز ما عنى به الإسلام في أخلاقيات الأسرة حقوق الأبناء تجاه آبائهم أو أولياء أمورهم. وتنصب هذه الحقوق على تربية الأطفال، وتنشئة الشباب تنشئة فاضلة، يتكامل فيها النمو البدني والعقلي والوجداني بصورة متوازنة.

والسبيل إلى الوفاء بهذه الحقوق تبدأ بأن يكون الوالدان قدوة لأبنائهم في الالتزام بآداب الإسلام ومكارم الأخلاق في أقوالهم وأعمالهم، وأن يكونا مثلاً صالحاً للأبناء في اجتناب ما حرم الله من منكرات وعادات سيئة، وأن يستيقنا أن الأبناء الصغار ليسوا " جُهالاً " كما يطلق عليهم في بعض المجتمعات، وإنما هم قادرون بفطرتهم على الإدراك والتصور الذهني.

وحق الأبناء على آبائهم في التربية الشاملة المتكاملة يكون بالغذاء السليم لوقاية أبدانهم وتنميتها بصورة متوازنة، وبحثهم على الرياضة البدنية المفيدة، وتنمية عقولهم بالحوار والمناقشة وليس بالكبت والمنع، وبإحسان تزجية أوقات فراغهم والترفيه عنهم في الصغر، وإعطائهم قدراً مناسباً من الحرية، من شأنه أن يعتمدوا على ذواتهم وخبراتهم وفقاً لتطور أعمارهم ونماء مدركاتهم العقلية ؛ فأطفال اليوم هم شباب المستقبل ورجال الغد الذين تعتمد عليهم مجتمعاتهم في مستقبل يكون أكثر ازدهاراً، وأخصب نماءً وإسعاداً لهم ولمجتمعهم وللإنسانية جمعاء.

ونصوص القرآن الكريم قاطعة في هذه الحقوق، ولنتأمل قول الله عز وجل:

- " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** " التحريم: ٦

وقد روي عن النبي (**e**) أنه قال: ما نحَل والدٌ ولده نُحْلاً أفضل من أدب حسن " [١]

وسيظل مثل ما قلت هنا عن حقوق الأبناء على أبائهم أمراً مشكوكاً في حسن أدائه طالما ظلت الأمية ماثلة في أعداد كبيرة من الأمهات والآباء

ومن حق الكبار الذين لم تتح لهم فرص التعليم في المجتمعات العربية أن توليهم الأنظمة الحاكمة عناية جادة لتنويرهم حتى تكون الأسرة محضناً رشيداً ودافئاً ومشعاً لنمو الأطفال نمواً متوازناً كما قدمت.

وفى النية أن أعود إلى دور التعليم في إحداث التحول المرجو في الشخصية العربية وفقاً للمنظور الإسلامي، وذلك عند الحديث عن أخلاقيات المهن المختلفة ودورها في تنمية الأفراد والفئات في المجتمع وعند الحديث عن أخلاقيات الدولة بعون الله.

---

١ حديث مرسل رواه أحمد والترمذي

هذا وقد جاء في القرآن الكريم آيات حكيمة في أخلاقيات الأسرة، منها وصية لقمان لابنه وهو يعظه، فلنتأملها سوياً:

- "وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ" لقمان: ١٢-١٩

- ♦ ومن أروع الوصايا وأحكمها وأشملها وصية الرسول (e) لعبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – حيث قال:

كنت خلف رسول الله (e) يوماً فقال:

" يا غلام إني أعلمك كلمات: أحفظ الله يحفظك، أحفظ الله تجده تجاهك ؛ تعَّرف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وقد جفَّ القلم بما هو كائن ؛ فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لن يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لن يقدروا عليه، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا " [١]

ويقول جبران خليل جبران:

أطفالكم ليسوا أطفالكم.

إنهم أبناء وبنات حياة طويلة ممتدة.

إنهم جاءوا من خلالكم، وليس منكم.

وعلى الرغم أنهم معكم، فإنهم لا ينتمون إليكم.

إنه يمكنكم أن تمنحوهم الحبَ.

---

١ حديث حسن رواه أحمد

ويمكن أن تُسْكِنوا أجسادهم، ولكنكم لا تَسْكنون أرواحَهم.

لأن أرواحهم تسكن منزل الغد، الذي لا تستطيعون زيارته حتى في أحلامكم. يمكن أن تجاهدوا لتكونوا أشباههم، ولكن لا تحاولوا أن يكونوا هم أشباهكم.

لأن الحياة لا تسير إلى وراء، ولا تبقى على أمس.

٧-٢ حقوق الأبناء على الآباء

ويؤكد التصور الإسلامي للأخلاق أن يحرص أفراد الأسرة جميعاً على بقائها متماسكة وعلى تنميتها دينياً وعقلياً وثقافياً واجتماعياً واقتصادياً ؛ ففي مقابل الواجب على الأب والأم تجاه حقوق الأبناء فإن للآباء والأمهات حقوقاً يجب على الأبناء تأديتها لهما. وأساس هذه الحقوق التراحم والتواد والتعاون بين أفراد الأسرة. وخُصَّ الوالدان بحق أن يحسن أبناؤهم إليهما عند الكبر، والإنفاق عليهما – حال عجزهما المالي – وأن يصاحب الأبناء الآباء بالمعروف، ولو كانوا على غير دين أو مذهب الأبناء.

هذا، وقد اقترن واجب الإحسان إلى الآباء بعبادة الله وحده، ولنتأمل قول الحكيم العزيز:

- **وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)**" الإسراء: ٢٣، ٢٤

وطاعة الوالدين واجبة على الأبناء في كل ما هو معروف ؛ ولا تجوز طاعة أحدهما في منكر إطلاقاً. يقول الحق تبارك وتعالى:

- " **وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ** " لقمان: ١٥
- " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**" النساء: ١٣٥

هذا وقد جعل الإسلام مودة أصدقاء الوالدين امتداداً للبر بالآباء واحترامهم وشكراً للوالدين ؛ فقد جاء عن أبى أُسَيْد مالك بن ربيعة الساعدي قوله:

بينما نحن عند رسول الله (e) إذ جاءه رجل من بني سَلَمَة فقال: يا رسول الله، هل بقي من بر أبويَّ شيء أبرهما به بعد موتهما ؟

فقال النبي (e): " نعم ؛ الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما " [١]

٧- ٣ أخلاقيات الأسرة الممتدة.(صلة الرحم)

الأرْحام جمع مفرده رَحِم، والرَّحِم – لغة – موضع تكوين الجنين في بطن أمه. ويعني اللفظ – أيضاً – القرابة أو أسباب القرابة. وذووا الأرحام هم الأخوة والأخوات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، وتمتد الأسرة لتشمل الأقارب الذين ليسوا من عصب الفرد، ولا من ذوي الفروض في إرثه مثل: بنات الإخوة، وبنات الأعمام. وبنات الخالات

وفى هذا الصدد أنزلت من لدن رب العالمين آيات في القرآن الكريم تحتاج إلى تأمل عميق منها ما يلي:

- " **وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** " الأنفال: ٧٥
- " **وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا**" الأحزاب: ٦
- " **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ** "

محمد: ٢٢-٢٣

---

١ حديث صحيح رواه أبو داوود وابن ماجه

الفصل الرابع

الأخلاق في الحياة العامة

الأخلاق في الحياة العامة

تمهيد:

قدمنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب عرضاً عاماً للمنظــور الإســلامي وحــددنا فيــه الخصائص الجوهرية التي يتسم بها التصور الإسلامي؛ فكانت الخصيصة الأولى هــي توحيــد الإلوهية؛ بمعنى أن الله – سبحانه – خالق السموات والأرض وما بينهما: من ظاهرات طبيعية، وكائنات حية ؛ وذلك دون شراكة أو تعدد في الألوهية، وأن الله –وحده – هو علّام الغيوب في الماضي والحاضر والمستقبل، وأنه ليس له مثيل في ذاته أو صفاته. وتلك هي الركيزة الأساسية في عقيدة الإسلام، والمؤمن الحق هو من يلتزم بمقتضيات هذه العقيدة: في الفكر وفى القول وفى السلوك العملي ؛ فهي تحرير للناس من عبوديتهم لسلطة بشرية أياً كانت إلى عبادة الله وحــده " **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُــونَ** (١٢٣)" هود: ١٢٣ وأكدنا في ذات الفصل أن التصــور الإســلامي يتســم بالعقلنــة Rationalism وربط المسببات بأسبابها في ظاهرات الكون الطبيعية، وفى الظواهر الإنسانية، سواء أكانت فردية أو جمعية أو اجتماعية "**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ** (٢٠) **وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** (٢١) "

الذاريات: ٢١

هذا، والحضارة الإنسانية في سائر جوانبها: المادية والاجتماعية، والتقنية نتاجٌ لما ميَّــز الله الإنسان به من عقل، ليميزَ الطيب من الخبيث، والصالح من الفاسد،والضلال من الرشاد ؛ ولذا استخلفه الله في الأرض، وحمَّله أمانة عمرانها

- " **هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** " هود: ٦١
- " **هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ**"

الملك: ٢٣

وحث القرآن الكريم الناس جميعا على تزكية أنفسهم ؛ بمعنى تنمية ذواتهم، وإعمال عقــولهم ؛ بالتفكير الذي هو تنفس العقل، وبالعمل الصالح للفرد وللجماعة والمجتمع والأمة، وبإتباع ما أمر الله به، والعزوف عما نهى عنه:

- " **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥)** " الأعلى ١٤ – ١٥
- " **فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى** " الذاريات: ١٨
- " **وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** " فاطر: ١٨

والتزكية – أيضا – سبيلها التعلم من خلال عرفان آيات الله في الكون التي بذل فيها الإنسان جهداً عظيماً؛ فيسَّر تعلمها. وذلك من خلال تعلم المعارف البشرية المنظمة التي يصل إليها الإنسان في كل مجال وجعلها مادة للتعلم في أنظمة المعرفة المختلفة، وغدا اليوم عرفانها فارقاً حاسماً بين من يزكون أنفسهم ومن يدسُّونها " **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** " الشمس: ١٠ والدَّسُّ: يعنى إخفاء الشيء وإهماله حتى يصدأ وتضعف إمكانات أدائه لوظائفه ؛ وهى في الإنسان التعقل والتفكير، والنقد والتحليل، ورشادة التوظيف في جوانب الحياة المختلفة.

وتشير دلائل الواقع المعيش أن بعض الناس ينتكبون – لأسباب شتى – عن مقتضيات توحيد الإلوهية في الفكر وفى الفعل، وينأون عن ربط المسببات بالأسباب، وامتداداتها " **إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا** " الكهف: ٨٤ – ٨٥ ويعتمد هؤلاء على الأوهام والخرافات والتقاليد البالية، وعلى اللجوء إلى الكهان والعرَّافين والدجالين في كثير من الأمور التي حرمها الإسلام أو استنكرها، مثل قراءة الكف، وقراءة الفنجان، والتطير (التشاؤم) بالأشخاص والأزمان والأمكنة والأحداث، والتنجيم وفتح الكتاب وقراءة " الكوتشينة ".

وجدير بالذكر هنا أن نفرق بين الحرام والمكروه، حيث حدد الفقهاء [1] الحرام بأنه قول أو فعل أو شيء نهى الشارع عن فعله نهياً قاطعاً ؛ بحيث يتعرض من خالف النهى لعقوبة الله في الآخرة، وقد يتعرض – في بعض البلاد – لعقوبة دنيوية " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** " المائدة: ٩٠

وحدُّ المكروه: أنه القول أو الفعل أو الشيء الذي نهى الشارع عن فعله دون تشديد على النهى ؛ بحيث لا يعاقب مرتكبه بمثل عقوبة الحرام ؛ ولكن الاستهانة بالمكروه والتمادي فيه قد يكون من شأنها أن تشجع صاحبه على ارتكاب الحرام فالنفاق مكروه، وقبض اليد بمعنى بُخل من لديهم فوائض من مال أو طعام أو متاع عن التصدق به على المحتاجين مكروه " **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ**

١ يوسف القرضاوي (١٩٩١) الحلال والحرام في الإسلام، القاهرة، مكتبة وهبه الطبعة العشرون. ص ١٤

بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ "

التوبة: ٦٧

أولاً:المنكرات في المعتقدات والتقاليد

(١) التطير

من الأوهام الرائجة أن يتشاءم الفرد ببعض الأحداث كأن تقع عينه أول ما تقع وهو في طريقه إلى سفر أو أداء عمل ما على فتاة تحمل إناء فارغاً من الماء، أو أن يقابله فردٌ شاع عنه بأنه حسود ؛ فيتوقف عن سفره، أو يعدل عن العمل الذي انتوى أن يعمله، وقد استنكر القرآن الكريم تطير آل فرعون من موسى عليه السلام " **فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** " الأعراف: ١٣١

وقبل تَطُّير آلِ فرعون بموسى تطيَّر قومُ صالح " **قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ** " النمل: ٤٦ – ٤٧ وعدَّ محمد رسول الإسلام (**e**) التطير ضرباً من ضروب السحر والكهانة فتبرأ منه: " ليس منا من تطير أو تُطّير له أو تكَهن أو تُكهِن له، أو سحر أو سُحر له "[١] ومثل التطير في الحرمة: ضَربُ الحصى، والخطُ في الرمل، وفتح الكتاب، وقراءة الكوتشينة، وقراءة الكف؛ وكلها أنواع من التكهن، وإسناد العلم بالغيب لغير الله، ويرى بعض الفقهاء أن التشاؤم يمثل شيئاً من الضعف الإنساني، قد يطرأ على خاطر الفرد، وعليه ألا يستسلم له، وألا يصل إلى مرحلة السلوك العملي، واستند في هذا الرأي إلى حديث مرفوع يقول فيه الرسول (**e**): " ثلاثة لا يسلم منهن أحد: الظنُ، والطِيَّرة، والحسَد ؛ فإذا ظننت فلا تُحقِقْ، وإذا تطيرت فلا تَرْجع، وإذا حسدتَ فلا تبغ "[٢].

(٢) السحر

١ رواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنه

٢ رواه الطبراني بسند ضعيف انظر القرضاوي مرجع سابق ص ص ٣٣٦ - ٣٣٧

السحر - لغة – كل أمر يخفى سببه، ويتخيل على غير حقيقته، وهو نوع من الخداع والتمويه، وقال القرآن الكريم عمن يتعلمون السحر " **وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** " البقرة: ١٠٢

وقد نَظم الرسول (**e**)السحرَ في سلسلة الموبقات (كبائر المعاصي) السبع ؛ التي تهلك الأفـــراد، وتهلك الجماعات التي تسود فيها ؛ فقد روى عن النبر (**e**) أنه قال: اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله وما هي ؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات " **حديث متفق عليـــه**. وقد تبرأ منه الرسول عيه الصلاة والسلام في قوله: ليس منا من تطير أو تُطّير له أو تكَهن أو تُكهِن له، أو سحر أو سُحر له".

وإثم السحر لا يقع على من سحر ومن سُحر له وإنما - أيضا - على من يعتقد فـــي الســـحر أو يشجع عليه أو يصدقه ويقول القرضاوي: إن بعض فقهاء الإسلام اعتبر السحرَ كُفراً بالله أو ســـبيلاً تؤدى إلى الكفر، وبعض آخر منهم أو جب قتل الساحر، لما يلحقه عمله الفاسد من شـــرور تضـــر بالمجتمع (١)

هذا، وشبيه السحر في كنهه وعواقبه وعلة تحريمه: **التداوي بالأحجبة، وتعليق التمائم، وتعليق الودع والتداوي بالرُّقَى**. وفى هذا الصدد جاءت أحاديث نبوية كثيرة منها قول الرسول (**e**) ما يلي:

- " تداووا فإن الذي خلق الداء خلق الدواء " [٢]
- "من علق تميمة فلا أتم الله له، ومن علق ودعة فلا أودع الله له"[٣]
- " من علق تميمة فقد أشرك " [٤]

وجدير بالذكر هنا أن نذكر أن المنهىَّ عنه في الرقى ما كان بغير اللغة العربية ؛ فلا يدرى من تجرى له الرُّقية معاني رطاناتها، ولا معان كلماتها، التي قد يدخلها سِحر أو كفر. ولكن الرُّقى التي يقرأ فيها بعض آيات القرآن الكريم غير منهي عنها ؛ إذ إنها تعتبر دعاء لله سبحانه

- "**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** " غافر: ٦٠

---

١ المرجع السابق ص ٢٣٢

٢ رواه أحمد في مسنده

٣ رواه أبو يعلى وأحمد بإسناد جيد، وصححه الحاكم

٤ رواه أحمد والحاكم

• " **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** " البقرة: ١٨٦.

هذا، وقد دعا القرآن الكريم أن نستعيذ من شر النفاثات في العقد " **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)** " سورة الفلق

والنفث يعنى النفخ في وجه من يُسْحُر له، أو ملبس من ملابسه أو منديل يستخدمه، روى عن النبي (**e**) قوله: " من نفث في عقدة فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك " [١]

(٣) التنجيم

عرف التنجيم والكهانة والدَّجل في جاهلية العرب قبل الإسلام باسم " العِرافة " والعرَّاف بتشديد الراء (صيغة مبالغة) وهى مرادفة في اللغة للفظتي: الكاهن والدَّجال، والسمة الجامعة للتنجيم والدجل والتكهن هي ادعاء معرفة الغيب في الماضي والحاضر والمستقبل،وخداع السذج من الناس والتمويه على من ليس لديهم وعى بالمسببات والأسباب في الظواهر الطبيعية والاجتماعية، وإلباسهم الباطل ثوب الحق. وتختلف وسائل التنجيم والتكهن والدجل، فالمنجم يدَّعي معرفته بواقع من يترددون عليه في حاضرهم ومستقبلهم ومعرفته بمواقع النجوم وتحركاتها مرتبطاً بالزمن الذي ولد فيه المتكهن له.

٤ - التفاخر بالأنساب

استنكر الإسلام على المسلم أن يحيى تقاليد الجاهلية في التفاخر بالآباء والأجداد والانتماء للقبيلة، كما حرَّم التفرقة بين الناس تبعاً للون أو العرق أو العقيدة الدينية ؛ لأن الناس جميعاً ينتمون إلى أصل واحد فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح، ومغزى هذا هو أن تقدير الأشخاص يجب أن يعتمد على سعيهم هم:

• " **وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى** " النجم: ٣٩-٤١

• " **أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** " الأنعام: ١٦٤

• " **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** "الحجرات: ١٣

---

١ رواه الطبراني بسندين أحدهما موثوق فيه

وأنكر الرسول (e) بصورة حاسمة التفاخر بالآباء والأجداد، وذلك حيث قال:لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعل (الصرصار) إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، وفاجر شقي، الناس بنو آدم وآدم من تراب " [١]

هذا، ومثل النهى عن التفاخر بالأنساب استنكر الإسلام **العصبية** القائمة على اللون أو العرق أو القرابة أو الجنس أو الإقليم، ودعا الإسلام المؤمنين أن يتحرروا في آرائهم وأحكامهم وأعمالهم من التعصب وفى هذا الصدد جاءت الآيات القرآنية الحكيمة.

- § **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ**" النساء: ١٣٥
- § **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**" المائدة: ٨
- § " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ** " التوبة: ٢٣

(٥) الحلال والحرام في الطعام والشراب

حرم الإسلام من الأطعمة والأشربة ما يضر النفس، وما يُحدِثُ خللاً في التفكير، وما يخدر العقل، أو يضعف أداءه؛ وذلك التزاماً بمقاصد الشريعة، التي يتوخاها الإسلام في دنيا الناس ؛ لمصلحتهم في الدنيا، ولثوابهم في الآخرة جزاء وفاقا لاستقامتهم على هدى الله.

وأباح القرآن الكريم للناس أن يأكلوا من طيبات ما أحل الله مما تنبت الأرض "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ** " البقرة: ١٦٨

وخص القرآن الكريم المؤمنين بأن حرم عليهم أكل الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به عند ذبحه، فقال تعالى وعزَّ:

- " **قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** " الأنعام: ١٤٥

---

١ رواه أبو داوود واستحسنه الترمذي

• وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ " الأنعام ١٢١

هذا وقد وردت المحرمات بتفصيل أوسع في قوله تعالى:

• " حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ(١) وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ(٢) وَالْمَوْقُوذَةُ (٣)وَالْمُتَرَدِّيَةُ(٤) وَالنَّطِيحَةُ(٥) وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ (٦)إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ(٧) " المائدة: ٣

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: ما الحكمة في تحريم هذه الأنواع من الأطعمة ؟

ويجاب على هذا السؤال بإيجاز شديد بما يلي:

حُرِّم أكل الميتة لأن النفس البشرية تعافها وتستنفرها، وأن الأديان الرسالية جميعها قد حرمتها، وأن تسخير الله – جلت قدرته – الحيوان للإنسان ليأكله مشروط بإرادة الإنسان واختياره وسعيه وتزكيته. هذا بالإضافة إلى أن الحيوان أو الطير الذي يموت رغم أنفه قد مات لأسباب مختلفة، وأكله ميتا قد يصيب الآكل بضرر بالغ. ولذا فإن الإنسان مطالب برعاية ما يملك من الحيوان، وأن يسارع إلى مداواته أو أن يُعَجِّل بذبحه ولا يسلمه للهلاك

- وتحريم الدم المسفوح – أيضاً – تعافه النفس البشرية ؛ وقد ثبت علمياً أن الدم قد يكون محملاً بفيروسات ضارة، فهو والميتة سواء.
- وعلة تحريم لحم الخنزير هي أن غذاء الخنازير الشهي هو القاذورات والنجاسات، وما فيها من ميكروبات ضارة للإنسان.
- وما أهل عند ذبحه لغير الله كالأصنام، أو ذكر اسم نبي أو وثن أو عبد من عباد الله يعنى التقرب لغير الله ؛ وهذا إنكار لعقيدة توحيد الإلوهية. ولذا حُرِّم مثل هذا الحيوان المذبوح. وتلك هي الحكمة في تحريم – أيضاً – ما ذبح على النصب.

---

١ الميتة: مراد بها الحيوان والطير الذي مات دون أن يتوجه إليه عمل الإنسان بذبحه أو صيده

٢ المنخنقة: الحيوان والطير الذي يموت اختناقاً ؛بأن تدخل رأسه في مضيق أو يلتف حبل أو نحوه حول عنقه فيموت

٣ الموقوذة: حيوان أو طير يضرب بالعصا أو بآلة صلبة حتى يموت

٤ المتردية: حيوان أو طير تردى من مكان عال أو سقط في بئر فمات

٥ النطيحة: حيوان أو طير يموت بسبب الصراع والتناطح مع حيوان آخر.

٦ ما أكل السبع: الحيوان أو الطير الذي أكل حيوان مفترس جزءاً منه أدى إلى موته.

٧ ما ذبح على النصب: ما ذبح على صنم أو حجارة تُعْبَد من دون الله على نحو ما كان يفعل الوثنيون في الجاهلية على أصنامهم كاللات والعزى.

- وتجدر الإشارة إلى ما يلي:

أ - أن السمك، وحيتان البحر، والجراد يحل أكلها ميتة ؛ لقوله تعالى " **أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ** " المائدة: ٩٦ ولقول الرسول (e) حين سُئل عن ماء البحر " هو الطَّهور ماؤه الحِلُّ ميتته " [١] وخص الجراد بحل أكله ميتا لما جاء في الخبر عن ابن أبى أوفى رضي الله عنه أنه قال " غزونا مع الرسول (e) سبع غزوات نأكل من الجراد " [٢] هذا بالإضافة إلى أن ذبح الجراد ليس ممكناً.

ب - الضرورة القصوى تحل أكل المحرمات

وتحريم الأطعمة التي ذكرناها ملحوظ فيه حالة الاختيار، وتوفر البدائل التي نختار منها، أما في حالة الضرورة القصوى فيحل أكل هذه المحرمات إعمالاً لقوله تعالى:

§ " **وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ**"
الأنعام: ١١٩

§ ولقوله في سورة البقرة بعد ذكر المحرمات: " **فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ**" البقرة: ١٧٣

§ " **فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ** [٣] **غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**" المائدة: ٣

وحدد الفقهاء الضرورة بأنها ضرورة التغذي لبقاء النفس، حيث لا بجد المرء ما يأكل إلا هذه المحرمات ؛ فيحل له أن يأكل منها ما يسد رمقه

ويقول القرضاوي: " هذا هو الظاهر من قوله تعالى غير باغ ولا عاد ؛ بمعنى أن يأكل المضطر منها ما يدفع به جوعه ويحميه من الهلاك، وليس إشباع الشهوة، وألا يتجاوز في أكلها. حدَّ مواجهة ضرورة الجوع. [٤]

ج – تحريم أكل الميتة لا يشمل تحريم استخدام جلدها بتجفيف ما علق به من دماء، ثم بدبغها ليستخدمها الناس في صور شتى.

٦ - تحريم الخمر والمخدرات

---

١ رواه أحمد وأصحاب السنن

٢ رواه الجماعة إلا ابن ماجه

٣ المخمصة: المجاعة – والتجانف: العدول عن ارتكاب الإثم والميل إليه.

٤ يوسف القرضاوى (١٩٩١) الحلال والحرام في الإسلام. القاهرة: مكتبة وهبه ط:٢٠ ص ٥٢

كان العرب في الجاهلية مولعين بشرب الخمر، والمنادمة عليها، وهذا ماثل في أشعارهم في وصف الخمر وأقداحها ومجالسها، وتعدد أنواعها. وقد حرّم الإسلام شرب الخمر تدريجياً حين قال تعالى وجلَّ " **لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ** " النساء: ٤٣ ثم أنزل سبحانه القول القاطع بتحريمها:

" **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ** "

المائدة: ٩٠، ٩١

واستند رجال الكنيسة المسيحية في تحليل شرب الخمر لنص جاء في الإنجيل مفاده " قليل من الخمر يصلح المعدة " ويقول القرضاوي " لو صح هذا القول لوجب الامتناع عن هذا القليل، لأن قليل الخمر يجر إلى كثيرها، ويغرى شاربها حتى الإدمان " [١]

وتحريم الإسلام لشرب الخمر يستند إلى ما تحدثه من إسكار، يستوي في ذلك القليل منها والكثير. وحين سُئل الرسول عن أشربة تصنع من العسل أو الشعير وتنبذ حتى تزداد حدة إسكارها قال (e) " كل مسكر خمر وكل خمر حرام " [٢]

وحرم الإسلام صنع الخمر والمتاجرة فيها، وحملها، وإهدائها، وقبولها هدية، كما حرم الأكل من ثمنها ؛ فقد لعن الرسول (e)عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " لُعِنَتِ الْخَمْرُ، وَشَارِبُهَا، وَسَاقِيهَا، وَعَاصِرُهَا، وَمُعْتَصِرُهَا، وَحَامِلُهَا، وَالْمَحْمُولَةُ إِلَيْهِ، وَبَائِعُهَا،وَمُبْتَاعُهَا، وَآكِلُ ثَمَنِهَ " [٣]

هذا، وقد حرم الإسلام التداوي بالخمر وما في حكمها، لقوله عليه الصلاة والسلام " إن الله أنزل الداء والدواء، وجعل لكل داء دواء ؛ فتداووا، ولا تتداووا بحرام " [٤]

وقد قال ابن القيم إن تحريم الشيء يوجب تجنبه، والبعد عنه وإباحة التداوي بالخمر يمكن أن يكون ذريعة لتناولها إرضاء للشهوة وجلباً للذة.

وتستثنى من تحريم التداوي بالخمر حالة الضرورة ؛ التي يخشى فيها على حياة الإنسان ؛ فلو فرض أن طبيباً مسلماً مشهودا بكفاءته في مجال تخصصه وصف دواء فيه خمر لمريض، وقرر أنه

---

١ المرجع السابق ص ٨١

٢ رواه مسلم

٣ رواه الطبراني في المعجم الكبير ١٠/ح١٠٠٥٦

٤ رواه أبو داوود

ليس ثمة دواء بديل له – فإن نهج الشريعة الإسلامية الذي يدعو إلى التيسير وعدم التشدد فيما فيه حفظ نفوس عباد الرحمن- في مثل هذه الحالة أبيح تعاطي هذا الدواء، دفعا للحرج

وهذا الاستثناء مبرر لقوله تعالى: " **فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** " الأنعام: ١٤٥ (١)

هذا، وينسحب تحريم الخمر على تحريم تعاطي المواد المخدرة للعقل كالبانجو والحشيش والكوكايين والأفيون ونحوها ؛ لأنها تحدث فتوراً في الجسم، وتخدر الأعصاب، وتعطل التفكير المنطقي السليم، وتخلق لمن يتعاطونها عالما خياليا تسوده الأحلام والأوهام، وتصرفهم عن الواقع المعيش وتضعف إرادتهم، وتؤثر في قدرتهم على عقلنة الأحداث وتقدير الأشياء والذوات والأفكار والآراء.

هذا بالإضافة إلى أن إدمان المخدرات مضيعة للمال الذي ينبغي أن ينفق في وجوه كثيرة تحتاج إليها الأسر التي يعولها من يتعاطون المخدرات.

وتحريم المخدرات مشمول في تحريم الخبائث والمضرات، فقد ثبت أن تعاطي المخدرات يحدث أضراراً صحية ونفسية واقتصادية واجتماعية لا ريب فيها الآن ؛ ولذا فإن كثيراً من الدول حرَّمت زراعة النباتات التي تستخرج منها المواد المخدرة، كما حرَّمت تصنيعها و تعاطيها والاتجار فيها و التداوي بها، وإهداءها، وقبولها هدية

٧- تحريم الربا

هذا، ودعا الإسلام إلى كسب الرزق، وذلك عن طريق الانطلاق في مناكب الأرض ؛ للحصول على المال الذي يسد حاجة الفرد وحاجات من يعول: قال تعالى:

- " **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** " الملك: ١٥
- " **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** " الجمعة: ١٠
- " **وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ** " المزمل: ٢٠

وأباح الإسلام استثمار المال عن طريق التجارة في قوله تعالى:

- " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ** " النساء: ٢٩

---

١ القرضاوي (١٩٩١) مرجع سابق ص ٧٦

وحرَّم الإسلام أن يستثمر المال عن طريق الربا، والربا – لغة – الفضل والزيادة، وشرعاً: زيادةٌ وفضلٌ في المال يأخذه الدائن دون عِوض، وفى الاقتصاد: قدرٌ من المال يؤديه المقترض زيادة على ما اقترض، وهو ما اصطلح المتعاملون بالربا على تسميته الفائدة التي تزيد على أصل المال المقترض.

والتعامل بالربا محرمٌ في التصور الإسلامي، ويستوي في ذلك قليله وكثيره لقوله تعالى:

- **" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**(٢٧٨) **فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ**"البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩

وينصب التحريم على كل من شارك في عملية الاستدانة بالربا: آكل الربا (الدائن) والمستدين الذي يعطى المال الزائد عن الأصل الذي اقترضه، وكاتب عقد الربا، ومن يشهد على توقيع عقد الربا أو يحضر مجلسه، فقد ورد عن الرسول (e) " لعن الله آكل الربا ومؤكله وشاهديه وكاتبه [١].

وقد استنكر الإسلام أخذ اليهود للربا وقد نهوا عنه ؛ فقد جاء في سفر الخروج في العهد القديم (التوراة) " إذا افتقر أخوك فاحمله، لا تطلب منه ربحا ولا منفعة [٢]

وحرم الربا في الدين المسيحي – أيضا – فقد ورد في إنجيل لوقا: " افعلوا الخيرات،وأقرضوا غير منتظرين عائدتها وإذن يكون ثوابكم جزيلا " [٣]

ومما يؤسف له أن لفظ أخوك في العهد القديم قد فَسِّر ؛ على أن مفهوم " الأخوة " خاصٌ بالأخوة في الدين فقط، ومغزى هذا هو أن يقرض اليهودىَّ من ليس يهودياً بالربا، ولكن لا يجوز له أن يقرض أخاه اليهودي بربا.

وحرم الربا في الإسلام لما فيه من ضرر يلحق الأفراد في المجتمع، ويهدد تماسكه الاجتماعي والاقتصادي. كيف ؟

أ- إن الربا – نقداً كان أو بأجل – من شأنه أن يُقعد الناس عن العمل ؛ لأن المُرابي لا يبذل جهداً، وإنما يأخذ مالاً بلا مشقة، وشيوع هذا المنكر كفيلٌ بأن يحرم المجتمع كله من عوائد التجارة والحرف والصنائع والمهن التي تسد حاجات الناس في المجتمع ؛ ما دام جمع المال بالربا أمراً يسيراً

ب- يمثل اعتداء على حرمة مال الناس، وسلب أموالهم بغير حق، كما نص ذلك حديث الرسول (e) " حرمة مال الإنسان كحرمة دمه " [١]

---

١ رواه أحمد وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه

٢ سفر الخروج، آية ٢٤ الفصل ٢٢

٣ إنجيل لوقا: ٢٥، ٢٥ الفصل السادس

ج – أن من شأن الربا أن يزيد في توسيع الشقة بين الأغنياء والفقراء في المجتمع، إذ إن من خلاله يزداد الفرد الغنى والطبقة الغنية غنى، ويزداد الفقراء فقراً. والأزمة الاقتصادية التي تعاني منها دول العالم جميعها وخاصة (أمريكا ودول أوروبا) سببها الجوهري التعامل بالربا، وتضاعف مديونية الأفراد والدول بسبب الفوائد التي تؤدى عن القروض بفائدة.

- منكرات في البيع

في التصور الإسلامي لأخلاق البيع والشراء مكانة ملحوظة، سواء في النصوص القرآنية أو في السنة النبوية قطعية الثبوت قطعية الدلالة، ويمكن أن تختصر هذه المكانة في " كراهية أكل أموال الناس بالباطل " وفيها جاءت الآيات الكريمة الآتية:

- " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا** (٢٩) **وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا**"النساء:٢٩-٣٠
- " **وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** " البقرة: ٤٢
- " **وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ** " الشورى: ٢٤

ويتم البيع والشراء لحاجيات ضرورية كالأطعمة والأشربة والأدوية والملابس والأجهزة التي تستخدم في المنازل والسيارات ونحوها. ويؤكد الواقع المعيش والمشاهد لكل ذي عينين شيوع الغش والخداع والتحايل في عمليات البيع في الأسواق العامة وفى المحلات المخصصة لبيع كل حاجه من الحاجات نشير إلى أمثلة منها:

الكذب والخيانة والغش

وردت أحاديث نبوية شريفة في ضرورة الصدق والأمانة، وذم الكذب والخيانة في عمليات البيع والشراء منها قول رسول الله (**e**) ما يلي:

- "التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين[٢]

وفي تحريم الغش وستر عيوب المبيع وكتمها

قال رسول الله (**e**): " البيّعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما إن كتما وكذبا فعسى أن يربحا ربحا ويمحقا بركة بيعهما " [٣]

---

١ أخرجه أبو نعيم في الحلية

٢ رواه الترمذي رقم ١٢٠٩

٣ رواه البخاري في صحيحه رقم ٢١١٠ ومسلم في صحيحه رقم ١٥٣٢

وعيوب المبيعات كثيرة ؛ فقد يكون دواء انتهى تاريخ صلاحيته، أو طعاما غير صالح للآدميين أو فاكهة تالفة أو متعفنة من الداخل، أو مزيجا من الأشربة غير نقى، يكتمها البائع مستغلا جهل المشتري أو عدم خبرته، وقد يحلف البائع للمشترى بالله أن المبيع صالح.

وفى هذا العمل خداع جاء فيه حديث الرسول (e) الذي رواه أبو هريرة حيث قال الرسول (e): " الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ للسلعة مَمْحَقَة للبركة " [١]

وقوله (e) " إياكم وكثرة الحلف في البيع فإنه يُنفِقُ ثم يَمْحقه " [٢]

(والمحق = ذهاب الشيء كله حتى لا يرى منه شيء). وفي الحديث ما يوحي بأن المَحقَ عقاب على الغش وعلى اليمين الكاذبة في آن واحد.

وجاء في الخبر أن رسول الله (e) خرج إلى السوق، فرأى طعاما مُصَبَّراً (طعام في أكوام كالبلح أو الخضراوات دون وزن أو عدّ) فأدخل يده فأخرج طعاماً قد أصابته السماء، فقال لصاحبه: ما حملك على هذا ؟ قال " والذي بعثك بالحق إنه لطعام واحد، قال (e) أفلا عزلت الرطب على حِدته واليابس على حِدَّته فتتبايعون ما تعرفون ؟ من غشنا فليس منا " [٣]

وقد وردت عبارة " من غشنا فليس منا " في كثير من الأحاديث التي رواها الصحابة ومنهم عائشة رضي الله عنها وابن عباس وأنس [٤].

هذا، وصور الغش كثيرة يمارسها بعض التجار والعطارون، ومن يعملون في المتاجر الخاصة أو في المتاجر العامة والفخمة super Markets والمطاعم كما تمارس في بعض الصيدليات، وورش الصنائع والحرف. وفى هذا العمل المنكر قال الرسول (e) " من باع عيباً ولم يبينه، لم يزل في مَقْت الله ولم تزل الملائكة تَلْعَنُه " [٥]

الاحتكار

والاحتكار حرام في التصور الإسلامي ويعنى عدم بيع الطعام أو الشراب أو الدواء ونحوها مما فيه عيش للناس في جوانب حياتهم وقوتهم، وخزنها رغبة في ارتفاع أسعارها لزيادة الطلب عليها

---

١ رواه البخاري برقم (٢٠٨٧) ومسلم برقم (١٦٠٦)

٢ رواه مسلم برقم (١٦٠٧)

٣ رواه الطبراني في المعجم الأوسط وجاء في مجمع الزوائد

٤ يوسف إسماعيل البنهاني (بدون) دليل التجار إلى أخلاق الأخيار، القاهرة، مكتبة التراث الإسلامي ص ١٧

٥ رواه الحاكم في المستدرك

ويصدق ذلك على الطعام والشراب والأدوات ونحوها. وقد يتمادى بعض الناس في هذا الإثم، فيجمع ما يحتاجه الناس من السوق ويخزنه كي يرتفع ثمنه.

وفى هذا المنكر قال الرسول (e) " من احتكر حكْرة يريد أن يُغْلِيَ بها على المسلمين فهو خاطئ، قد برئت منه ذمة الله ورسوله " [١]

وفى حديث آخر خص الرسول (e) احتكار الطعام – بصنوفه المختلفة – بالذكر فقال: " من احتكر الطعام أربعين يوماً ثم تصدَّق به لم تكن صدقته كفَّارة ً لاحتكاره " [٢]

ثانياً: العلاقات الاجتماعية

دعا الإسلام إلى تمتين العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات، وإلى ضرورة بذل الجهد لتوجيهها وجهة تتسم بالسلام لا بالصراع وبالوئام لا التباغض والتعاون وليس التناحر وتبادل الاحترام والمودة بين الناس، وحرم الإسلام – بدرجات مختلفة – الأضرار المادية والأدبية التي تخالف هذا النهج. وقد جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تفصِّل هذا النهج في العلاقات بين الناس منها قوله جل شأنه:

" **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ** " الحجرات: ١٠ – ١٢

وحين نتأمل الآية الكريمة نجدها قد حددت في بدايتها السمة الأساسية الأصلية للمجتمع المسلم وهى الأخوة.

وملحوظ في هذه الأخوة أنها وحدة الأخوة في خلق الإنسان، وفى مسيرته ومصيره النهائي " **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ** "

غافر: ٦٧

---

١ رواه الحاكم في المستدرك واحمد في مسنده

٢ قال العراقي عنه في تخريج الأحاديث الواردة في إحياء علوم الدين (ج ٧٤/٢) " رواه أبو منصور الديلمي في " الفردوس " وذكره ابن حجر الهيثمي في الزواجر (ص ٣١٦)

" وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ " الروم: ٢٠

وخاطب القرآن الكريم الناس جميعاً في كل الأزمان وسائر البقاع فقال تعالى" **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**"النساء:١

الأخوة في الدين" **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**"الحجرات:١٠

ومقتضى هذه الأخوة الإصلاح والتصالح، وليس الإفساد والتناحر ؛ فقد جاء في الحديث النبوي قول الرسول (e) لا تحاسدوا ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانا " [١]

ثم ذكرت في الآية المجيدة بعض السمات السلبية التي تهدد هذه الأخوة وهى:

١ - السخرية

والسخرية تعنى الانتقاص من قدر الإنسان بطريقة مباشرة أو غير مباشرة – لعلة بدنية فيه أو لعيب في خِلقته لا ذنب له فيه أو لرأى أبداه مناقضا لما يعتقده الآخرون، أو لفقره، أو لنقص في معرفته أو لتواضع في نسبه، أو لسواد لونه. و السخرية من الآخرين – رجالاً كانوا أو نساء منشؤها الكبر وتضخم الأنا والغرور و مظهر من مظاهر الخلل النفسي لدى من يمارسونها، وهى مظهر من مظاهر الجاهلية التي حاربها الإسلام فقد جاء في الخبر: أن أبا ذر الغفاري وبلال الحبشي قد تخاصما، وقال أبو ذر لبلال يا ابن السوداء، فاشتكى بلال إلى رسول الله (e)فقال الرسول لأبى ذر: أعيرتَه بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية " [٢]

وروى عن أبى ذر أن النبي قال له: " انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود ؛ إلا أن تَفْضُله بتقوى الله " وتأكد هذا المعنى في خطبة الوداع التي ألقاها الرسول (e) في حجة الوداع فقال " يا أيها الناس. إن ربكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى. " **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** " الحجرات: ٣

٢ - اللمز والتنابز بالألقاب

اللمز – لغة – الطعن والوخز بآلة حادة كالسيف أو المسمار، وانتقل المعنى إلى الوخز باللسان. وقال العرب " كَلْم (جرح)اللسان أنكى من كَلْم السِنان "

---

١ رواه البخاري وآخرون

٢ رواه البخاري

وصيغة النهى في الآية الكريمة " **ولا تلمزوا أنفسكم** " تعنى لا يطعن بعضكم بعضـــاً، ولكـــن إضافة الأنفس إلى كاف المخاطبين توحي بأن النهى موجه إلى جماعة تتماهى نفس أحـــدهم فـــي أنفس الآخرين، حتى ليبدون كأنهم نفس واحدة ؛ فمن يلمز أخاه يلمز نفسه في الحقيقة. ويدعم هذه الرؤية حديث نبوي صحيح يقول فيه الرسول (e) مثل المؤمنين في تعاطفهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر "[١]

والتنابز بالألقاب شائع في بعض الحوارات البشرية ؛ تلحظه حين يسعى بعض المحاورين إلـــى شخصنة الأفكار ؛ فبدلاً من تفنيد الفكرة وبيان خطئها وتقديم بديل لها – يلجأ المحاور إلـــى إطـــلاق لقب على الشخص صاحب الفكرة ؛ فيصفه مثلاً بأنه: رجعى أو محافظ أو شـــيوعي أو شـــيعي أو ليبرالي أو سلفي أو فاشي، ويعرف هذا التنابز في اللغة الإنجليزية بأنه Nam calling ويمثل خللاً في التفكير، ومجافاة لقواعد الحوار المنطقي الأمين، الذي يتحرى الحق والحقيقة، وينأى عن الفحش والتفاحش ؛ وهو ما يجب أن يتصف به المؤمن الصادق الأمين قولاً وفعلا.

٣ – الظن

ثم انتقل الخطاب الرباني للمؤمنين إلى النهي عن الظن، والدعوة إلى التثبت، والتـــدقيق فـــي تمييز الحقائق من الأوهام ؛ فالله يقول: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** " الحجرات: ٦ والآية التي نحن بصددها تقـــول " إن بعض الظن إثم " وتعنى ألا يسارع المؤمن إلى تصديق ما يقال محسناً الظن بالقائل لأن الإنسان في طبيعته قابليات العدل والعلم والفكر مقرونة في نفس الوقت بقابليات سوغت وصف خالقه له بأنـــه ظلوم جهول " **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** " الأحزاب: ٧٢

وتبعيض الظن بين ما هو إثم وما هو مباح – أدى إلى مقولة عربية حكيمة مفادها أن " حسن الظن ورطة وسوء الظن عصمة " وهى دعوة إلى التفكير

فيما يقال، وفيما يراد عمله قبل ممارسته أي أن يكون الفكر هو أول العمل وآخر الفكر هو العمل – ونتابع ما نهى الله عنه في هذه الآية.

---

١ رواه البخاري ومسلم وآخرون

٤ - التجسس

سوء الظن عمل باطني مستور ؛ قد يدفع بعض الناس إلى اقتفاء أثر الآخرين لكشف ما قد بطن فيهم من سوء ؛ فيلجأ سيئوا الظن بالناس إلى التجسس عليهم ؛ لمعرفة دواخلهم، وكشف ما يسترونه عن الناس من أعمال آثمة يرتكبونها ويخفونها عن الناس خوفاً من ازدراء المجتمع لهم. وقد نصت الآية الكريمة على تحريم مثل هذا العمل الخبيث ؛ فالتصور الإسلامي يؤكد مسئولية كل فـرد عمـا يعمل قال تعالى:

- **"وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى**(٣٩) **وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى** " النجم: ٤٠
- " **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** " المدثر: ٣٨
- " **كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** " الطور: ٢١

ومغزى هذه الآيات هو أن للناس حرمة في النفس وفى المال، وحرية فـي الاختيـار، والله وحده يجازى كل امرئ بعمله مهما ستره أو أخفاه. والتجسس ضرب من ضروب إشاعة الفاحشـة التي نهى عنها الإسلام، وتوعد مرتكبها بالعذاب الأليم " **إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَـةُ فِـي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** " النور: ١٩ وجاء في الخبر أن أبا الهيثم قال لعقبة بن عامر – أحـد أصحاب الرسول(**e**): إن لنا جيراناً يشربون الخمر، وأنا داع لهم الشرطة ليأخذوهم !! فقال لـه عقبة: لا تفعل، وعِظهم وهددهم فقال أبو الهيثم: إني نهيتم فلم ينتهوا، وأنـا داع لهـم الشـرطة ليأخذوهم ! فقال عقبة: ويحك لا تفعل ؛ فإني سمعت رسول الله (**e**) يقول: " من ستر عـورة فكأنما استحيا موءودة من قبرها " [١]

ورغبة في صيانة حرمات الناس في بيوتهم كان النهى عن زيارة بيت إنسـان خِفيـة ؛ دون أن يأذن له صاحب البيت بذلك صراحة ؛ قال تعالى: " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَـا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** " النور: ٢٧، ٢٨

والتجسس حرام في التصور الإسلامي ؛ سواء قام به فرد أو مؤسسة أو حاكم، ويشمل التجسس على الناس الرقابة التي تفرض على هواتفهم أو رسائلهم إلى الآخرين، وتلك آثام ترتكب في عـدد كبير من الدول الآن، ومنها الدول العربية الإسلامية.

---

١ رواه أبو داود والنسائي وابن حيان

وقد دأب الرسول (e) على التنفير من الغيبة في مناسبات شتى منها:

ما قاله ابن مسعود " كنا عند النبي (e) فقام رجل (غادر المجلس) فوقع فيه رجل " من بعده (أخذ في اغتياب مَنْ غادر) فقال النبي لهذا الرجل: تخلل (قم فاستعمل الخلة في تنظيف فمك) فقال الرجل: ومم أتخلل ؟ ما أكلت لحماً ! فقال الرسول (e): إنك أكلت لحم أخيك. [١]

وروى جابر " كنا عند النبي (e) فهبت ريح منتنة، فقال الرسول (e): أتدرون ما هذه الريح ؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين " [٢]

وجدير بنا هنا نؤكد أن الحديث عن الناس بما يكرهون في غيبتهم ليس محرماً بإطلاق، فقد استثنى من الحديث الجهري العلني بالسوء عن الناس في غيبتهم من وقع عليهم ظلمٌ من فرد أو جماعة أو جهاز حكومي؛ فسلب حقوقهم أو هتك حرمتهم في المال أو العرض أو سلب حقاً من حقوقهم المشروعة، في هذه الحال يحق للمظلومين أن يجهروا بشكاواهم، وبالطرق المشروعة لمن ينتظر منهم أن يرفعوا عنهم الظلم أو يعيدوا إليهم حقوقهم المسلوبة وينطبق هذا على كل الظالمين سواء كانوا أفراداً أو جماعات أو مؤسسات، حكاماً أو محكومين في مستويات مختلفة وقد جاء هذا الاستثناء صريحاً في قوله تعالى: " **لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا** " النساء: ١٤٨

وأحسب أن من وسائل الجهر بالشكوى المشروعة حديثاً: التظاهرات السلمية ضد الأنظمة الحاكمة التي يعلن فيها الناس عما أصابهم من ظلم الحكام أو إهمالهم في أداء الواجب عليهم نحو المحكومين، والاعتصامات السلمية، والإضراب عن الطعام وهى وسائل يلجأ إليها الناس بعد استفراغ الجهد في المطالبة برفع الظلم بالحسنى والمناشدة الهادئة، والحوار بين المظلومين أو ممثليهم والمسئولين عن وقوع المظالم وسلب الحقوق ونهب الأموال – خاصة الأموال كانت أو عامة -؛ لأنها حق ثابت لأفراد الشعب جميعاً، ومفروض أن يقوم الحكام بوصفهم أمناء على صيانتها، وتنميتها، وتوزيع عوائدها على الناس بطريقة عادلة دونما أدنى انحياز لقريب أو صهر فالله تعالى يقول:

- " **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** " النساء: ٥٨

---

١ حديث صحيح رواه الطبراني

٢ رواه أحمد وآخرون

٥ - النميمة

وتقترن الغيبة – غالباً – بسيئة أخرى هي النميمة،و هي – أيضاً – محرمة، وتتمثل في أن ينقل إنسان ما يكون قد سمعه عن إنسان آخر من أشخاص آخرين محرفاً أو محوراً أو بزيادة أو نقصان، مريداً بذلك إفساد العلاقات بين الناس، وإثارة الأحقاد والتباغض. وحرمة هذا السلوك ثابتة بنص قرآني مجيد " **وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ** " القلم ١٠، ١١ وقال عنه النبي (e) " شرار عباد الله المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب " [١] وهذه الخصلة مناقضة تمام التناقض لما دعا إليه الإسلام وهو الصلح والتصالح بين الناس " **فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** " الحجرات: ١٠

وقد أوضح الرسول عليه الصلاة والسلام فضل إصلاح ذات البين والعزوف عن الشحناء واللدادة في الخصومة في قوله " ألا أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة ؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: " إصلاح ذات البين ؛ فإن إفساد ذات البين هي الحالقة ؛ لا أقول إنها تحلق الشعر ولكن تحلق الدين " [٢]

صيانة الحرمات

الحرمة – لغة – ما لا يحل انتهاكه من ذمة أو حق أو صحبة أو نحو ذلك وقد كرَّم الله جلت قدرته الإنسان على ما عداه في الكون وهذا التكريم يقتضى صيانة عقله ودينه ونفسه، وهويته، وعرضه، ونسبه وماله. وقد قدمنا في الجزء السابق ما نهى الله عنه من سخرية الناس بعضهم من بعض ومن الغيبة والنميمة، وما دعا إليه الإسلام من إصلاح ذات البين.

وآن أن نفصل القول في بعض المحرمات الجوهرية التي شدد الإسلام على صيانتها، وتنميتها، وإحسان توظيفها، وفيما يلي تكثيف شديد لبعض هذه المحرمات.

٦ - حرمة العقول

حرمة العقل الإنساني ماثلة في النهى عن إفساده بتناول المسكرات والمخدرات ونحوها على النحو الذي قدمناه قبلاً، وصيانة هذا العقل يكون بإحسان التنشئة الاجتماعية، وهي المحصن الأساسي لتربية العقول الغضة التي زودتها فطرة الله – عز وجل – بقابليات من شأنها أن ينهض الإنسان بدوره في إعمار الأرض، وصيانة الموارد الطبيعية، وتنميتها، وحسن استغلالها، وتجنب

---

١ رواه الترمذي وآخرون

٢ رواه أبو داوود

إفسادها بأية صورة كانت، وليس بإتلافها أو تلويثها، أو إهدارها وقد قدمت في فصل سابق أن العقلنة خصيصة أساسية من خصائص التصور الإسلامي.[١]

ويكفى أن نؤكد هنا أن التكاليف الشرعية يشترط في أدائها اكتمال العقل بالنضج البدني والعقلي والنفسي. " **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** "

البقرة: ٢٨٦

٧ – حرمة الدين

قدمنا أن الإسلام يؤمن بتعدد الأديان ؛ وإن يكن هو خاتمها، وأنه جاء مصدقاً لما بين يديه، ومهيمناً عليه. كما ذكرنا أن التصور الإسلامي يؤكد في شأن العقيدة الدينية ما جاء في القرآن الكريم:

- " **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**" الكافرون: ٦
- " **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** " البقرة: ٢٥٦
- " **وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** " الكهف: ٢٩

والإيمان بتعدد الأديان لا ينفى الخصوصيات في كل دين من الأديان الرسالية الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام الحنيف.

وخصوصية الإسلام " الدين " أنه دين الحق ودين الهدى ودين القيّمة. قال تعالى:

- " **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**" الصف: ٩ وقد كان الإسلام والمسلمون هدفاً لحملات ضارية من بعض من لا يؤمنون بالإسلام لأغراض سياسية ومادية تتوخاها بعض الدول.

ومن أوجب واجبات المسلمين أن يدافعوا عن دينهم ضد من يخوضون فيه إثماً وعدواناً " **وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** "البقرة: ٢١٧ وأكتفي هنا بالقول إن للدين الإسلامي حرمةً يجب أن تصان، وتحمى من العدوان – في أي شكل كان – وأرجىء التفصيل في علاقة الإسلام وأهله بأصحاب الديانات الأخرى إلى فصل تال عن أخلاقيات العلاقة مع غير المسلمين، ورؤية الإسلام للعلاقات الدولية[٢]

---

١ انظر ص ص في هذا الكتاب

٢ انظر ص ص في هذا الكتاب

٨ - حرمة النفس

أكد الإسلام قداسة الحياة البشرية، ودعا إلى صيانة حرمة نفوس البشر، وذلك بتكريم الله جل علاه للإنسان " **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** " الإسراء: ٧٠، وسخر له ما في السموات والأرض، وجعله خليفة في إعمارها، ورسَّخَ في فطرته التي فطره عليها استعدادات بدنية وعقلية واجتماعية تكفل له أن يؤدى أمانة الإعمار، وأن يزكي نفسه، ليكون أهلاً لتلك الأمانة. ومن هنا كان تحريم الإسلام لقتل النفس، أو إهمالها أو اهانتها، وعدَّ قتل النفس الإنسانية من أكبر الجرائم " **أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا**" المائدة:٣٢

وإطلاق كلمة نفس يعنى حرمة الاعتداء على من ينتمي إلى جنس الإنسان، دونما نظر إلى عقيدته أو لونه أو جنسه أو مكانته الاجتماعية.

وتزداد الحرمة شدة إذا كان المقتول مؤمناً بالله سبحانه وتعالى " **وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**" النساء: ٩٣ ويقول الرسول (e) في هذا الصدد " كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت مشركاً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً " ([1]) وعدَّ الرسول القتال بين المسلمين بعضهم بعضاً باباً من أبواب الكفر بالله؛ حيث قال:" لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض"([2])

٩ - حرمة انتهاك الحرية

الناس في التصور الإسلامي خُلقوا من أصل واحد، ومن أب واحد، هو آدم، وآدم من تراب، وجميعهم إلى التراب. وقد خلقوا جميعا لأداء أمانة العمران التي وكلها الله جلت قدرته إليهم " **هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** " هود: ٦١

والناس جميعا مدعوون لأداء هذه المهمة. وأداؤها على الوجه الأكمل لا يتأتى إلا إذا تمت رعاية حرمة الناس في التفكير وفى التعبير وفى التنقل، وفى سائر الحريات العامة وحريتهم في المشاركة في اتخاذ القرارات التي تخص واقعهم الراهن، وحريتهم في استشراف مستقبل أفضل لهم ولذرياتهم. وسوف أعود إلى سائر حقوق الإنسان في فصل تالٍ إن شاء الله

---

١ رواه أبو داوود وابن حيان والحاكم

٢ أخرجه أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانِ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ

١٠ - حرمة الأعراض

العرض – لغة – ما يمدح أو يذم من الإنسان في نفسه أو في سلفه، أو من يلزمه أمره. واستكمالاً لتكريم الله - جلت قدرته – للإنسان حرَّم الإسلام إيذاء المؤمن بالطعن في عرضه أو التشكيك في نسبه ؛ وجعل حفظ الأنساب مقصداً من مقاصد الدين الكلية، وحدَّد شروطاً للزواج الشرعي، وتحريم تجاوزها. والخوض في أعراض الناس يمثل نوعاً من أنواع إشاعة الفواحش في المجتمع المؤمن ونصوص القرآن الكريم جليَّة في تحريم الاعتداء على الأعراض. قال تعالى:

- " **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا** " الأحزاب: ٥٨.

ولعل أشد ألوان الإيذاء قذف المؤمنات العفيفات بالفاحشة ؛ لأن فيها إهداراً لكرامتهم، وإساءة بالغة لأسرهم، وخطراً على مستقبل ذرياتهم. وقد توعد القرآن الكريم من يرمون الناس في أعراضهم بعذاب عظيم. قال تعالى:

- " **إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ** " النور: ٢٣: ٢٥
- " **إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** " النور: ١٩

وفى حديث عائشة – رضي الله عنها – أن الرسول (**e**) قال لأصحابه:

" أتدرون أربى الربا عند الله ؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال: إن أربى الربى عند الله استحلال عرض امرئ مسلم " ([١])

١١ - حرمة الأموال

كلمة المال ليست مقصورة على ما يملكه الأفراد من الأموال النقدية، وإنما تتجاوزها إلى ملكية العقارات والأراضي والحيوانات،و المصانع، والمزروعات ونحوها. وتلك هي الملكية الخاصة وثمة ملكية عامة تتمثل في الأراضي والصحارى والآثار ومنابع الماء، ومواقع النفط وما في الأرض من معادن ومواد ذات قيمة. و ما تملكه الدولة من مرافق ومصانع ومؤسسات الخدمات. وهذه هي الملكية العامة وهى ملك لأبناء المجتمع.

---

١ أخرجه ابن مردويه وابن حاتم والبيهقي

وتفوَّض الشعوب نظم الحكم فيها لحفظ هذه الأموال العامة وإدارتهـا واسـتثمارها، وإجـادة توظيفها لصالح أبناء الشعب، والعدالة في توزيع عوائدها بين أبناء الأمة، ويصدق على هذا التفويض أنه أمانة عامة يجب أن يلتزم العاملون في الدولة وأجهزتها المختلفة بما هو حلال وينأون عما هـو حرام.

وقد دعا الإسلام الناس إلى كسب المال من أعمالهم في الحرف والصناعات والوظائف العامة والمهن المختلفة ؛ قال تعالى:

- "**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**" الملك: ١٥

ويشير تركيب " من رزقه " في الآية الكريمة إلى أن المال الذي يكتسبه الناس من أعمالهم هذه أنما هيئ لهم بما أنعم الله عليهم من طاقات ومواهب واستعدادات بدنية وعقلية واجتماعية.

والأصل في المال الخاص أنه مال الله، ومالكه من البشر مستخلف فيه، إذ إن الملك كله لله. قال تعالى:

- " **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**" النجم: ٣١
- " **آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ**" الحديد: ٧
- " **وَآَتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آَتَاكُمْ** " النور: ٣٣

وحرَّم الإسلام قعود القادر على العمل عن طلبه، والانغماس فيه وإجادته ؛ لأن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، فلا يحل لامرئ أن يقعد عن كسب المال الذي يكفيه ويسد حاجة من يعول ؛ يقـول الرسول(**e**) " لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مِرَّةٍ سَوِىّ " (١) وبهذا يصون الإسلام كرامة المـؤمن، ويدعوه إلى الاعتماد على عمله، ليبعده عن تكفف الناس.

وجمع المال في التصور الإسلامي مشروط بألا يكون طريق كسب المال مؤدياً إلى خسارة غيره من الناس، بأن الطرق التي يتبادل بها الأفراد المنفعة المالية يجب أن تتسم بالتراضـي بـين المتعاملين، وأن تكون غير محرمة شرعاً إعمالاً لقوله تعالى: " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ**

---

١ رواه الترمذي والمِرَّة تعنى: القوة

بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا " النساء: ٢٩،٣٠

ومن هنا حرَّم الإسلام جمع المال عن طريق السرقة، والرشوة، والغرر في البيع والتعاقد، والربا، والخديعة في أية صورة كانت، ومن يفعل ذلك، ويضر غيره فرداً كان أو شخصية اعتبارية أو مؤسسة فهو ظالم تجب محاربته بشتى الوسائل.

هذا، والمال الخاص والمال العام الذي يملكه الناس بالطرق المشروعة له حرمة لا يجوز أن تنتهك، سواء من قِبل أفراد أو من قبل من أؤتمنوا على المال العام. واستخلفوا عليه من العاملين في مؤسسات الدولة.

ومغزى ما تقدم هو أن الإسلام يقر ملكية الفرد المشروعة للمال (الملكية الخاصة،والملكية العامة) ويدعو إلى حمايته من أن تصل إليه يد العادين أفراداً أو مسئولين حكوميين بالسرقة، أو بالاغتصاب أو بالاحتيال أو بالارتشاء؛ فقد قال النبي(e)" لعنة الله على الراشي والمرتشي في الحكم" [(١)]

ويحرم الإسلام – أيضاً – أن يقدم المحكومون رشاً إلى الحكام والمسئولين في مختلف مستوياتهم تحت عنوان الهدية إعمالاً لقول النبي (e) " من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً (أجراً أو راتباً) فما أخذه بعد ذلك فهو غلول " [(٢)]

وجاء في الخبر أن النبي صلاة الله وسلامه عليه أرسل والياً ليجمع الصدقات من قبيلة الأزد، ولما جاء إلى الرسول أمسك الوالي بعض ما معه من مال قائلاً: هذا لكم وهذا لي هدية، فغضب النبي وقال له: " ألا جلست في بيت أبيك أو بيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً ؟ "

وجاء في الخبر أن عمر بن عبد العزيز أهدى إليه أحدهم هدية وهو في خلافة المسلمين، فردَّها عمر – رضي الله عنه – فقيل له إن رسول الله كان يقبل الهدية، فقال: كان ذلك هدية للرسول وهو لنا رشوة. وامتنع عن قبولها.

واستباحة المال العام المملوك للدولة أشدُ جُرماً، وأعظم إثماً ؛ لأنه يؤدى إلى خلل في الاقتصاد العام في الدولة. و يؤدى هذا الخلل – عادة – أن يكون المال دُولة بين الأغنياء وأصحاب المناصب العليا في الدولة، أن يزداد الفقراء فقراً، وتلك الحالة مدعاة إلى صراع يمكن أن يقضى على تماسك المجتمع، وهو ما حذَّر منه الإسلام. يقول الرسول (e):

---

١ رواه أحمد وابن حيان في صحيحه والترمذي

٢ رواه مالك

" أيما أهل عَرْصَةٍ (قرية أو مكان تعيش فيه جماعة من الناس) أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله "[١]

والواقع الحالي في الأمة العربية المسلمة يشير إلى أن نسبة من هم تحت خط الفقر تتزايد، ومظاهر حرمانهم تتكاثر يوماً بعد يوم ؛ في الطعام والشراب والملبس والمسكن. وهذه الظاهرة في المجتمعات – في التصور الإسلامي – تُسقط شرعية الملكية الفردية ؛ فمن أول حقوق الإنسان الجنس " ألا يَجوع ولا يَعْرَى ولا يَضْحى قال تعالى " **إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى** " طه:١١٩

وجذر كلمة تضحى هو الفعل الماضي: ضحا بالألف المقصورة وضَحِيَ بالياء. ومصدرها: ضَحْواً، وضُحُوَّاَ، وضُحِيَّاً. وقيل في معنى" لا تَضْحَى ": لا تصيبك شمس تؤذيك بشدة حرها، ويسبب لك ظمأ شديداً لا تطيقه.

ومغزى هذه الآية الكريمة هو أن من حقوق الإنسان العامة ألا يجوع، وأن يجد لباساً يستر عورته،وأن يجد مسكناً مسقوفاً يقيه ضربات الشمس، وطوارئ الظواهر الطبيعية.

ومن حق الإنسان أن يأمن من الخوف " **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ** " قريش: ٣،٤

وأخلص إلى القول: إن الملكية الفردية لا يتصور أحد أن تصان إذا شاع الفقر بين الناس بصورة بشعة، على نحو ما هو حادث في بعض الدول الإسلامية ن واقترن ذلك بزيادة غنى الأغنياء على نحو مُسرف ومستفز " **وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** " الإسراء: ١٦

ولعل هذا هو ما برر للخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعطيل حد السرقة في عام المجاعة.وما دعا ابن حزم إلى القول:إذا مات رجل جوعاً في بلد أُعتبِر أهل هذا البلد قتلة، وأخذت منهم دية القتيل. وأضاف إن للجائع أن يقاتل في سبيل حقه في الطعام، الذي يراه متكاثراً

---

١ رواه أحمد في مسنده

بفحش عند غيره ؛ فإن قُتِلَ الجائع، فعلى قاتله القِصاص، وإن قُتِل مَن منع الطعام عــن الجــائع المظلوم فإلى لعنة الله ؛ لأنه منع حقاً من حقوق الإنسان، وهو واحد من الفئة الباغية المعتدية.[١]

---

١ ابن حزم في كتابه المحلى جـ ٦ (المسألة ٧٢٥) نقلاً عن محمد شوقي الفنجري، الوسطية في الاقتصاد الإسلامي. (٢٠٠٨) القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف. ص ٢٩ – ٣٠

الفصل الخامس

أخلاق التبيؤ

أخلاق التبيؤ

ماهية البيئة

الجذر اللغوي لكلمة تبيؤ، هو الفعل الثلاثي بَوَأَ يقال بَوأه منزله: أنزله فيه، والباءة الزواج " من استطاع منكم الباءة فليتزوج " (حديث شريف)

وتبوأ، يتبوأ يعنى الحلول في مكان أو منصب ؛ ففي التنزيل الحكيم عن أهل المدينة المنورة بعد هجرة الرسول (e) إليها"**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ**" الحشر:٩

وعن الذين اتقوا ربهم ويدخلوا الجنة جاء في القرآن الكريم " **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**"الزمر: ٧٤

ومغزى الآية الأخيرة هو أن الله قد خص جنس الإنسان بالسكن في الأرض، وجعلها دار اختبار وابتلاء لعباده ؛ الذين جعل في فطرتهم قابليات التعقل والإرادة والاختيار في الحياة الدنيا، فمنهم من اهتدى إلى سواء السبيل فأنعم عليهم بدخول الجنة ؛ جزاء وفاقا لطاعته سبحانه، وأجراً لسيره وفقا للمنهج الذي شرعه الله في الإسلام.

ومن بوأ وتبوأ جاءت كلمة " البيئة " ومعناها لغة: المنزل، والحال ؛ يقال: بيئة طبيعية، واجتماعية، وسياسية، وثقافية. وفى التصور الإسلامي تعتبر الأرض كلها بيئة لحياة جنس الإنسان ؛ قال تعالى في قصة آدم عليه السلام: "**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى** (١٢١) **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى** (١٢٢) **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى** " طه: ١٢١ -١٢٣

وهبط آدم وحواء من الجنة إلى الأرض: " **وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** " المؤمنون: ٧٩

واستخلف الله سبحانه وتعالى جنس الإنسان في إعمار الأرض، قال تعالى: " **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** " الأنعام: ١٦٥ وفى الآية الكريمة ما يوحى بأن الناس يختلفون في تعاملهم مع بيئتهم، فمنهم من يصون هذه البيئة ويحميها وينميها ويجيد استغلالها، ومنهم من يدمر هذه البيئة، ومن يتهاون في صيانتها، ومن يفسدها بسوء عمله في نطاقات الكون المختلفة: المائي، والهوائي، واليابسة، والحيوي، للنبات والحيوان والإنسان. وجعل الله الأرض وما عليها وما في باطنها مُسخَّرة لجنس الإنسان قال تعالى:

- **" وَالَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ**"البقرة:٢٩
- **" هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** " الملك: ١٥
- **" وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**" البقرة: ٣٦
- **" الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى**" طه: ٣٥
- **" يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**" البقرة: ١٦٨
- **" وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ** "الأعراف١٠
- **" وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** " الرعد:٣
- **" وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ** " ص: ٢٧
- **" وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** " الدخان: ٣٩،٣٨

وأحسب أن الآيات القرآنية التي أوردتها قبلا تكشف بوضوح كامل أن بيئة الأرض التي يعيش عليها الجنس البشرى في التصور الإسلامي ليست مقصورة على الأرض التي تعرف بأنها اليابسة، وإنما هي كوكب الأرض الموصول بالجبال والصحاري والغابات والأنهار والبحار والحيوان والإنسان وأن الله خلقها وسخَّرها بكل ما عليها وما في باطنها للإنسان، وتلك نعمة كبرى تستوجب شكر الخالق جل علاه ؛ وجلّى – أيضا – في الآيات الكريمة أن الأرض خلقت ليستقر فيها الإنسان، وليستمتع بما هيأ الله سبحانه وتعالى في الأرض من هواء، وماء، ومزارع، ونباتات تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها؛ إذا ما أحسن الإنسان التعامل مع عناصر هذه البيئة وحماها من الفساد، والإفساد، وحرص على بقائها نقية نظيفة سائغة ممتعة.

وقد قدمت قبلاً تحريم الإسلام لأكل المَيْتَة من الحيوانات والطيور الداجنة، وأحلَّ أكل هذه الحيوانات إذا ذبحت أو تم صيدها بطريقة شرعية، تتسم بالرأفة بالحيوان عند ذبحه، كما حرَّم الأشربة التي تذهب العقل أو تخدره، وحرم الإسلام - بوجه عام - إفساد الطبيعة Nature، وتشمل في هذا المقام – عناصر الكون التي جُعلت موضوعات لعلوم: الفيزياء، والكيمياء، والفلك، وعلوم الأرض، وعلوم البحار والأنهار، وعلوم النبات والبيولوجيا الإنسانية والحيوانية، وعلوم الإنسان.

وقد أدى التقدم في كل هذه العلوم إلى نشأة علم جديد هو علم التبيؤ أو علم البيئة Ecology في بدايات القرن العشرين، ويُعرَّف بأنه العلم الذي يدرس العلاقات المتبادلة بين الكائنات الحية والبيئة التي تعيش فيها ؛ شاملة النهر والبحر والغابة والصحراء والنطاق الجوى، والنطاق الحيوي والكرة الأرضية كلها؛ بوصف أنها النطاق الكلى الشامل الذي تعيش فيه المنظومات الفرعية المختلفة.

ومغزى ما يقال في علم التبيؤ هو أن عناصر الكون الفسيح – في جملتها – يجب أن تحترم، وأن لكل منها حقوقاً يجب أن تؤدى، إبقاء على توازن هذه المنظومات، ولاستدامة أداء وظائفها، التي أرادها خالق الكون، وهو الأعلم بمن خلق وما خلق، ولكي تكون الأرض مستقراً ومتاعاً للجنس البشرى بوصف أنه مستخلف عن الله " **هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**" هود: ٦١ ومعنى استعمركم: طلب منكم عُمْرانها، وليس استعمارها ؛ بالمفهوم السياسي للكلمة. والعمران يعنى البنيان وليس الهدم، وما تُعمر به البلاد: بالفلاحة والصناعة والحرف والتجارة، وسائر الخدمات المهنية والمدنية،التي تتوفر على تقديمها المهن المختلفة في كل مجتمع، وعلم العمران – عند ابن خلدون – هو علم الاجتماع.

هذا وقد أكد القرآن الكريم على هذه الحقوق لعناصر البيئة في جملتها فلنتأمل سوياً الآيات القرآنية التي تشير إلى هذه الحقوق. قال تعالى:

- " **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ** " الأنعام: ٣٨
- " **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**" الإسراء: ٤٤

أرأيت هذه المثلية وهذا التشابه بين أمم الدواب والطير والأمم الإنسانية ؟ وكيف أنها جميعا تسبح بحمد الله الخالق العظيم وإن لم يكن الإنسان قادراً على فهم معنى تسبيح كل منها لله سبحانه.

أليس فيما تضمنته الآيتان ما يشير إلى أخلاقيات الأرض ؟ Land Ethics ؛ المصطلح الذي بدأ ترديده في الغرب بعد حوالي أربعة عشر قرناً من نزول القرآن الكريم هدى ورحمة وسراجاً منيراً للناس في تعاملاتهم مع الأرض.

وانتقل إلى تحديد التصور الإسلامي لبعض مكونات البيئة:

١- حق الماء

جاءت في القرآن الكريم آيات تتحدث عن نعمة الماء التي أنعم الله بها على الناس، وعن ضرورة الإبقاء عليه نقياً طهوراً ؛ لاستخدامه في الشرب وفى الزراعة وفى النظافة منها قوله تعالى:

- "**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** "الأنبياء: ٣٠
- **وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**"لقمان: ١٠
- " **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا** " فاطر: ٢٧
- " **فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ** " محمد: ١٥
- " **أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ** (٦٨) **أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ** (٦٩) **لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ**

  " الواقعة: ٦٨-٧٠
- " **وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا** " الفرقان:٤٨
- " **وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ** " الأنفال: ١١
- "**وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**"الروم: ٢٤
- " **وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** " الحجر:٢٢

وللماء الذي هو وسيلة ضرورية لحياة الإنسان والحيوان ولإنبات الزرع والثمار حق المحافظة عليه، وعدم إهداره أو تلويثه، والحرص على نقائه شراباً للناس والحيوان، وللتربة.

ومن هنا يحرم إلقاء الفضلات في الترع والبحيرات والأنهار، ويحرم الصرف الصحي في مجرى الماء نهراً كان المورد أو ترعة أو بحيرة أو بحراً، أو مصرفاً للماء وهذا السلوك الغبي الأحمق مشمول في تحريم قتل النفوس في قوله تعالى " **وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ** " النساء:٢٩

والواقع يشهد أن تلويث المياه بمثل هذا السلوك سبب أكيد في الإصابة بكثير من الأمراض التي لم تعرف من قبل، وأن كثيراً من الدول في العالم معرضة لكوارث شتى بسبب ندرة المياه الصالحة للاستخدام البشرى. ولري الأرض و ذلك يسبب مشكلات كثيرة بين الدول، وقد يؤدى تفاقمها إلى حروب.

والوفاء بحق المياه واجب على الأفراد في البيئات المختلفة، وهو فرض عين على مؤسسات الدولة التي ينشئها المجتمع وأنظمة الحكم التي تدير شئون الشعب، وفى صلاحياتها عقاب أصحاب المصانع التي تقذف بفضلاتها في مجارى المياه

وفى مقدمة مسئوليات الدولة إنجاز مشروعات الصرف الصحي ومشروعات الري المُغطَّى، والصرف المغطى ومحطات تنقية المياه ؛ حماية لنفوس الناس، وإنجازاً للأمانات التي استحفظتها جماهير الأمة على أدائها، وتحقيق الأمن الصحي لجماهير الشعب.

وفى النهى عن تلويث الماء جاء في الخبر عن جابر عن النبي(e) أنه نهى أن يُبال في الماء الراكد ([1])، وأن يبال في الماء الجاري([2]) وروى عن معاذ أن الرسول (e) قال: اتقوا الملاعين الثلاث: البُراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل " ([3])

٢-حق الحيوان

لعل أبرز دلالة على شمول البيئة للحيوان في التصور الإسلامي أن إحدى سور القرآن الكريم سميت سورة الأنعام وهى مكية، ,عدد آياتها ١٦٥ آية، والأنعام مراد بها – لغة – الإبل والبقر والغنم. وقد وردت في القرآن الكريم آيات توحي بأن للأنعام حقاً يجب أن يؤدى لقاء تسخير الله سبحانه وتعالى لها ؛ وليدوم انتفاع الإنسان بها قال تعالى:

- " **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**" غافر: ٧٩
- " **كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى**" طه: ٥٤

وثمة فرق بين الرعي والرعاية ؛ يقال رعت الماشية: سرحت بنفسها. يقال رعى الحيوان: أكل أما الرعاية فتعنى المراقبة ؛ وتولِّى الأمر، والحرص على حفظ العهد، وحرمة الإضاعة " وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ " المؤمنون: ٨ والرعاية في الآية الكريمة تعنى الرقابة والحفظ وأداء الحق.

ويلفت الانتباه بشدة التقرير الذي ورد في الآية الأخيرة مما سبق في وصف رعاية البشر. ورعاية الأنعام بأنها آية شاهدة على رجاحة عقول من يقومون بهذه الرعاية.

ولا يبيح الإسلام القسوة على الحيوانات، وإنما يحض على تربيتها بعناية ورفق ؛ ليستفيد منها جنس الإنسان في الانتقال، وليأكل لحوم غير المحرم منها، واستنكر القرآن ما كان يصنعه أهل الجاهلية من مثل شق آذان الأنعام وعدَّ هذا العمل من وحى الشيطان ؛ قال تعالى: **وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآَمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآَمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا** " النساء:١١٩

ومثل شق آذان الحيوان في النكران كيُّ الحيوان بالنار ؛ فقد رأى النبي (e) حماراً مكويَّاً بالنار في وجهه فقال عليه الصلاة والسلام: " أما بلغكم أنى لعنت من وسم البهيمة أو ضربها في وجهها " [4]ونهى الرسول- أيضاً- عن إخصاء البهائم ؛ لأنه يمنع تكاثرها، فضلا عن أنه يؤلمها.

---

١ رواه مسلم

٢ رواه الطبراني

٣ رواه أبو داود

(٤) رواه أبو داود

وروي عنه (e) قوله " في كل كبد رطبة أجر " وفى هذا دعوة نبوية إلى رعاية الحيــوان بالأكــل والشرب والعلاج (إن احتاج بقاؤه إليه). ودعا الرسول –أيضاّ- إلى كراهيــة تعــذيب الحيــوان أو الطائر أو التسلي بهما، حيث قال: " دخلت امرأة النار في هِرَّة حبستها ؛ فلا هي أطعمتها، ولا هــي تركتها تأكل من خشاش الأرض. [١]

وحصر القرآن المحرمات الأربعة من الأطعمة في قوله تعالى " **قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِــيَ إِلَــيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** " الأنعام: ١٤٥

ثم فصلت المحرمات من الأطعمة في قوله تعالى:" **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيــرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَــا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ** " المائدة: ٣ فصارت في إجمالها أربعا، وفى تفصــيلاتها عشراً.

وتتجلى شدة اهتمام التصور الإسلامي بحقوق الحيوان في الدعوة إلى ضرورة الرفق بالحيوان حتى عند ذبحه يقول الرسول (e) " إن الله كتب الإحسان على كل شيء؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلــة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِبحة، وليحدَّ أحدكم شفرته، وليُرح ذبيحتَه "[٢]

وحرَّم الإسلام الانتفاع بسنام الجمل الذي يقتطع منه، ويبقى الجمل حياً لقول الرسول (e) " ما قطع من البهيمة وهى حية فهو مَيْتة " [٣]

٣ – حق الهواء

الهواء عنصر خطير في البيئة ؛ ولذا تجب المحافظة عليه نقياً غير ملوث وهو مطلــوب للإبقــاء على سلامة الإنسان والحيوان والنبات ؛ وتلوثه يعنى أن يختلط به مواد معينة مثــل عــادم الوقــود والدخان، وثمة تقدير حديث –نسبياً- لمنظمة الصحة العالمية قدرت فيه أن ما يقرب من خمس سكان العالم يتعرضون لمستويات خطرة من تلوثات الهواء.

والغلاف الجوى في طبيعته الأصلية النقية يتكون من: النيتروجين والأكسجين، وكميات صغيرة من ثاني أكسيد الكربون وغازات أخرى، وشاءت إرادة الخالق جلَّ وعز، وهو الذي خلق كل شيء وقدره تقديرا – أن تحدث عمليات طبيعية تؤدى إلى حفظ التوازن بين مكونات الغــلاف الجــوى ؛ فالنباتات (الزراعات والأشجار الخضراء) تستهلك ثــاني أكســيد الكربــون وتطلــق الأكســجين،

---

١ - رواه مســـلم

٢ –رواه مسلم

٣ - رواه احمد وأبو داود والترمذي والحاكم

والحيوانات ومن أكرمها الإنسان تقوم بدورها باستهلاك الأكسجين، وإنتاج ثاني أكسيد الكربون من خلال دورة التنفس.[١]

ويحدث تلوث الهواء الخارجي من إطلاق مئات الملايين من أطنان الغازات التي تلوث الهواء، ومعظمها يحدث نتيجة لاحتراق الوقود المستخدم في تشغيل السيارات والجرارات للنقل وللإنشاء، وأجهزة التدفئة وحرق بالأخشاب وحرق الطوب النيء ومن أجهزة المصانع المختلفة، ومن حرق النفايات والأعشاب. ويحدث تلوث الهواء – أيضاً – من مركبات كيميائية تستخدم في الثلاجات ومكيفات الهواء (الكلورفلوروكربونات) وهذه المركبات من شأنها تدمير طبقة الأوزون في الغلاف الجوي، وهى طبقة واقية، وتدميرها يسمح للأشعة فوق البنفسجية بالوصول إلى سطح الأرض، والتعرض المفرط لهذه الأشعة يسبب سرطان الجلد، ويدمر الحياة النباتية[٢]

هذا، والثابت أن دول العالم تتقاسم حرمة انتهاك الهواء، وأن الدول الصناعية الكبرى تتحمل النصيب الأكبر من هذا الوِزر، الذي ينشأ من التنافس الشديد على إنتاج السيارات والأجهزة والآلات الصناعية، ومن تعميق وتوسيع نزعة الاستهلاك المادي السفيه.

والمؤسف أن الدول النامية وبينها الدول العربية الإسلامية قد زادت فيها النزعة الاستهلاكية للسيارات والأجهزة الصناعية التي تؤدى إلى تلوث الهواء وقد انتبهت منظمة الأمم المتحدة إلى مخاطر التلوث في عناصر البيئة ؛ فعقدت مؤتمرات وقمماً عالمية لمناقشة وسائل توقى مخاطر التلوث البيئي تحت عناوين مختلفة، وأسفرت المؤتمرات عن بعض الاتفاقات التي تقلل من هذه المخاطر ولكن الدول الصناعية الكبرى -وفى مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية واليابان- تباطأتا في تنفيذ هذه الاتفاقيات ؛ حرصاً على مواقفها الاقتصادية ومن هذه الندوات والمؤتمرات:

أ – اتفاقية بروتوكول مونتريال بكندا عام ١٩٨٩ م حول المواد التي تؤثر في طبقة الأوزون وعدلت عام ١٩٩١ ونصت التعديلات على خطر " الكلوروفلوروكربونات "

ب – قمة الأرض التي عقدت في دولة ريودوجانيرو عام ١٩٩٢ م حول " البيئة والتنمية " واتفق فيها على الحفاظ على الغابات والكائنات الحية المهددة بالانقراض وموضوعات أخرى.

---

١ - انظر الموسوعة العربية العالمية، الرياض: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ط٢ مقال التلوث البيئي (ص ص ١٥٩- ١٧١)

٢ - المرجع السابق ص ١٦٣

ولست راغباً في متابعة هذا الموضوع هنا ؛ حتى لا أخرج بعيداً عن سياق هذا الكتاب، وأدعــو من يحتاجون إلى التوسع في هذا الشأن أن يبحثوا عنه في مضامنه ومن أهمهــا الموســوعات فــي Encyclopdia في طبعاتها الحديثة، وفى بعض الدوريات وفى بعض الكتب [١]

هذا، وكراهية تلويث الهواء مشمولة فيما نهى الله عنه من الإفساد في الأرض، وجعلها مقابر للناس بدلا من أن تكون لهم فيها معايش. ولنتأمل سوياً قول الحق تبارك وتعالى:

- "**وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ**" القصص: ٧٧
- "**وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ** " الأعراف: ١٠
- "**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا** " الأحزاب: ٥٨
- " **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**" هود:١١٧
- " **وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ** " البقرة: ٢٠٥
- " **وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** " الأنعام: ٢٦

٤ - حق تربة الأرض

تربة الأرض هي الطبقة الترابية الرقيقة التي تستخدم فــي زراعــة المحاصــيل الزراعيــة والأشجار والنباتات والحدائق. وقد أودع خالق الســموات والأرض فــي تربــة الأرض البكتريــا، والفطريات وحيوانات صغيرة تحلل المخلفات التي تحتويها التربة ؛ فتساعدها على تغذية النباتــات ونموها وثابت الآن أن الإفراط في استخدام الأسمدة والمبيدات يؤثر على إنتاجية التربة، وقد يــؤدى ري التربة بالماء في المناطق الجافة – مع عدم وجود نظام جيد للصرف – إلى أن يظل الماء راكداً في الحقول ؛ فإذا تبخر بفعل حرارة الجو خلَّف وراءه رواسب مِلحية تجعل التربة شديدة الملوحــة وتضعف أو تبطل إنتاجية المحاصيل بدرجة ملحوظة كما يرى كثير من العلماء أن المطر الحِمضي يمكن أن يؤثر في خصوبة التربة.

كما تؤدى إلى تدمير خصوبة التربة المخلفات الصلبة التي يلقيها النــاس فــي الأرض مثــل البلاستيك والزجاج والورق والعلب الصفيح والنفايات الغذائية الصلبة، ونفايات الحدائق ومخلفــات "الخردة " مثل خردة السيارات والمعادن، ونفايات المستشفيات والمعامل المختلفة [١].

---

١ - انظر مثلاً

أ- السابق

ب- مايكل زيمرمان (ترجمة معين شفيق رومية) (٢٠٠٦):الفلسفة البيئية، سلسلة عالم المعرفة، العدد رقم ٣٣٢. وقد أورد مؤلف هذا الكتاب ومترجمه عدداً كبيراً من المراجع الأجنبية التي يمكن الرجوع إليها لمن أراد ذلك.

هذا، وقد جاء في القرآن الكريم آيات بينات تشير إلى نعمة الله سبحانه وتعالى على الناس بأن جعل تربة الأرض مصدراً لغذاء مختلف الأنواع والألوان والأشكال للإنسان والحيوان والطير والنحل. وهيأها لزراعة المحاصيل والفواكه، وهى نعمة توجب على أفراد الجنس البشرى فرادى ومجتمعين، حكاماً ومحكومين شكر الله عليها وحمايتها، ولنقرأ سوياً، وعلى مكث، قول الحق تبارك وتعالى:

- **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا**(١٩)**لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا**"

  نوح ١٩،٢٠

- **وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ** (١٠) **فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ** (١١) **وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ** (١٢) **فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**"

  الرحمن ١٠-١٣

- **فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ** (٢٤) **أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا** (٢٥) **ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا** (٢٦) **فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا** (٢٧) **وَعِنَبًا وَقَضْبًا**" عبس ٢٤-٢٨

(القضب: النبات الذي يؤكل رَطباً كالخيار والخس)

- **وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**" الأنعام:٩٩

(قنوان: عراجين النخل محملة بثمار سهلة التناول)

- **وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ**" الحجر: ١٩-٢٢

هذا، وقد نبه الرسول (e) إلى نعمة زراعة التربة، وأبان عليه السلام أن ثواب الغرس أو الزرع الذي يُنتفَع به ثواب موصول ؛ لا ينقطع بموت من غرس أو زرع، حيث قال عليه السلام: " ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان إلا كان له به صدقة " [٢] إنها الصدقة الجارية التي لا ينقطع ثوابها بالموت ولا بانتقال ملكية التربة المزروعة لمالك آخر.

---

١ الموسوعة العربية العالمية مرجع سابق

٢ متفق عليه

وجدير بالذكر هنا الإشارة إلى أمرين مهمين: أولهما أن الإسلام حرَّم زراعة النباتات التـــي يســـتخرج منها ما حُرِّم من طعام أو شراب أو تدخين، حتى وإن كان المزروع يباع لغير المسلمين. وثانيهمـــا: أن حفاوة الإسلام بزراعة التربة لا تعنى حصر نشاط الناس في الزراعة، لأن مطالب الحياة تقتضى إنتاج كثير من الصناعات والحرف،وعماد الاختيار فـــي مثـــل هـــذا القـــرار تحـــدده احتياجـــات البيئة،واحتياجات الناس فيها وهو أمر يقدره العلماء المختصون من أهل الحل والعقد في المجـــالات المختلفة.

وعبث كبير أن يكتفي الناس بالزرع وتربية الحيوان مثلاً ؛ فقد حذر الرسول (e) من الوقوع في هذه الخطيئة. جاء هذا في قوله (e):

" إذا تبايعتم بالعِينَة*، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم [١]

هذا، ومكروه في التصور الإسلامي تعطيل التربة عن أداء وظائفها التي هيأها لها خالق السموات والأرض، أو إفسادها – بأية صورة – أو تعطيل إنتاجها فالله قد لعن الذين يفسدون في الأرض " **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِـدُونَ وَلَكِـنْ لَـا يَشْعُرُونَ** البقرة:١١-١٢

وإفساد التربة –أحد أضراب الإفساد وأخطرها – وينشأ بسبب تصرفات كثيرة منها:

أ – استخدام الأسمدة الكيماوية التي تسمم النبات وتسمم الإنسان والحيوان والإفراط في رش المبيدات الحشرية التي تشربها التربة.

ب- إهمال زراعة الأرض وعدم رعايتها وتبويرها تمهيداً للبناء عليها أو رغبة في زيادة أسعارها.

ج- البناء السكنى على الأرض المنزرعة، وهذا جُرم ملحوظ في بعض البلاد العربيـــة الإســـلامية، كمصر مثلاً، وذلك على الرغم من تجريمه قانوناً؛ ولكن يتم التحايل عليه بسبل شتى غير مشروعة، وكثير من العشوائيات في أطراف المدن الكبرى والمتوسطة ناشئة من هذا العدوان.

ومن هنا يستبين أن حق التربة واجب، يتقاسم ضرورة أدائه الأفراد الذين اســـتخلفهم الله فـــي ملكية الأرض، والمؤسسات الاجتماعية والإدارية والتنظيمية التي تنشئها الدولة ؛ وبوجـــه خـــاص

---

* العينة: أن يبيع امرؤسلعةً بثمن إلى أجل معلوم، ثمّ يشتريها نفسها نقداً بثمن أقلّ، وفي نهاية الأجل يدفع المشتري الثّمن الأوّل، والفرق بين الثّمنين هو رباً، للبائع الأوّل

١ رواه أبو داود

وزارات الزراعة والإسكان، والبيئة. وسوف تكون لنا عودة لما يتصل بهذا الموضوع في جزء تال في هذا الكتاب ؛ حين نتحدث عن أخلاقيات الحكومات. كما أن البحث العلمي في الجامعات ومراكز البحوث في البلاد العربية الإسلامية مطلوب من العاملين فيها من علماء ومهندسين في مختلف الفروع أن يسارعوا إلى إيجاد طرق للتخلص من التلوث البيئي بكل أنواعه، وعلى الباحثين في المصانع أن يبذلوا جهوداً لاكتشاف وإيجاد طرق للتخلص من استخدام الوقود والمواد الأخرى التي تزيد في تلوث البيئة.

وعلى الحكومات في البلاد العربية الإسلامية أن تعنى بالتشريعات الخاصة بإعادة تدوير مواد النفايات وإعادة استخدامها بدلا من التخلص منها، وهذا يتطلب أن تحرص منظمات المجتمع المحلى على توفير الحاويات التي توضع فيها النفايات بعد تصنيفها حتى يسهل جمعها وتدويرها.

هذا، ونظراً للشعور بأهمية سلامة البيئة فقد نشأت – منذ سنوات كثيرة مضت – في بعض الدول الصناعية أحزاب سياسية عرفت باسم " أحزاب الخضر" وفى مركز اهتماماتها سن التشريعات، والمبادرة باقتراح مشروعات تحفظ حرمة البيئة، وتقلل من أخطار تلوثها، وهذه الأحزاب موجودة في أوروبا (ألمانيا، والنمسا، وفرنسا، والسويد، ونيوزيلاندا) وفى استراليا.

ولذا فإني أقترح على الحكومات في البلاد العربية الإسلامية التي تقدم سياستها على تعدد الأحزاب السياسية أن يكون من معايير الاعتراف بالحزب – رسمياً وشعبياً – مقترحاته ومشروعاته الهادفة إلى المحافظة على سلامة البيئة بكل عناصرها، وتقليل تلوثها.

النظافة من الإيمان

وفى التصور الإسلامي ما يؤكد ضرورة العناية بنظافة البيئة حتى تكون صالحة لأن تكون مستقراً ومتاعا لعباد الله، وأنهم أنداد في أداء هذه المسئولية. ولعل هذا ملحوظ في مصطلح " البواء " في اللغة العربية يقال: فلان بواءٌ لفلان بمعنى أنه مناظر أو مساو له في القوة والكفاءة والالتزامات التي تخص من يتعايشون في بيئة واحدة.

ومن هنا جاءت دعوة الإسلام إلى صحة الأجسام، ولن يكون للإنسان وزن في الإسلام إلا إذا حرص على نظافة بدنه ومأكله ومشربه، وحمايتها جميعاً مما يكدرها أو يُنفر الناس منه، أو يمنع الإنسان من النهوض بمسئولياته الفردية والاجتماعية " **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** " الشمس: ٩

ولم يكن عبثاً اشتراط الوضوء لصحة الصلاة "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا** " المائدة: ٦

وجاء عن الرسول (e) قوله " بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده[١]

والمقصود بالوضوء بعده غسل اليدين والفم بعد الأكل وفى هذا قال رسول الله (e): " من بات وفى يده ريح غمر فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه " [٢] والغمر رائحة دسم اللحم المطبوخ.

وعنى الإسلام بتطهير الفم وتنظيف الأسنان. قال رسول الله (e): " تسوكوا، فإن السِواك مَطْهرة للفم مرضاة للرب " [٣] وقوله أيضاً ما جاء جبريل إلا أوصاني بالسواك، حتى خشيت أن يُفرض عليّ وعلى أمتي " [٤] وفى حديث آخر قال: لقد أُمرتُ بالسواك حتى خشيت أن أدْرد " [٥] أي خفت أن تسقط أسناني من كثرة تدليكها.

وقد رخَّص الإسلام لمن أكلوا طعاماً يُنَتِن الأفواه كالثوم والفجل والبصل ألا يحضروا الاجتماعات العامة ؛ حتى لا يؤذوا الآخرين ممن يحضرون هذه الاجتماعات. مثل: صلاة العيد، وصلاة الجمعة، والصلاة في المسجد. وفى هذا صيانة لكرامة المرضى والأصحاء على سواء.

وحبب الإسلام أن يكون المسلم حسن المنظر، وأن يتزين لذهابه للصلاة في المسجد قال تعالى: "**يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ** "الأعراف: ٣١ ولا تقتصر الهيئة المقبولة للإنسان وتزينه على الذهاب إلى المسجد فحسب ؛ ولكنها دعوة إلى التجمل بصفة عامة ؛ فقد روى عن عطاء بن ياسر قوله: " أتى رجل للنبي (e) ثائر الرأس واللحية ؛ فأشار إليه الرسول (e) بأن يصلح شعره ففعل، ثم رجع ؛ فقال عليه الصلاة والسلام: " أليس هذا خير من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان " [٦]

وهكذا يتضح أن العناية بنظافة البدن، وتنظيف الأسنان، وتمشيط الشعر، والتطيب ونظافة الملبس سنة حسنة يستحب أن تكون عادة لعباد الله، فقد روى عن رسول الله (e) أنه قال: " إن الله تعالى طيب يحب الطيِّب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم جواد يحب الجود جميل يحب الجمال ؛

---

١ رواه أبو داوود
٢ رواه البزار
٣ رواه البخاري
٤ رواه ابن ماجه
٥ رواه البزار
٦ رواه مالك

فنظفوا أفنيتكم ولا تتشبهوا باليهود" (١) وليس من الزهادة في الدنيا أن يمتنع المرء عن طيبات ما أنعم الله عليه ؛ فيظهر للناس قبيح الهيئة أو مهلهل الثياب وهذا العمل – فيما أرى – يدخل في نطاق البخل والشح المنهي عنهما في قوله تعالى:

- " **هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ** " محمد: ٣٨
- " **كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ** " طه: ٨١
- "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ** " البقرة: ٢٦٧
- " **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** " الأعراف: ٣٣

وأحسب أن أمر التجمل في الهيئة وفى الملبس يتوقف على نية من يفعل ذلك ؛ فإن فعله بدافع التعالي والتباهي والتكبر على عباد الله كان عملا مكروها، وإن فعله على أنه تحدثٌ بنعمة الله وإظهار لها، ولون من ألوان شكر الله – كان عملا محمودا ؛ قال تعالى:

- " **فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**" الأنفال: ٢٦
- " **إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ** " فاطر: ٦١

وتبين من النصوص السابقة بصورة جلِّية ضرورة العناية بسلامة البيئة وعدم تلويثها في أية صورة: في المأكل أو المشرب وفى المظهر وفى المنزل وفى الشوارع وفى الساحات العامة.

هذا، وامتدت هذه العناية إلى حد أن جُعل – في التصور الإسلامي – رفع الأذى عن الطريق شعبة من الإيمان، ووصف في حديث رسول الله بأنه صلاة، وأنه صدقة ؛ فقد روى عن الرسول (e) أنه قال:" حَمْلُك عن الضعيف صلاة، وإنحاؤك الأذى عن الطريق صلاة (٢) وفى حديث آخر "......... بكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة، ويُميط الأذى عن الطريق صدقة " (٣) وإزالة الأذى عن الطريق تشمل الأشواك والأخشاب والحديد والأحجار، والنجاسات، والنفايات ونحوها؛ مثل أن يستولى بعض أصحاب المحلات التجارية على جزء من الطريق العام لعرض بضاعاتهم، وفى هذا الصدد قال الرسول (e) " من أذى المسلمين في طريقهم وجبت عليهم لعنتهم "(٤).

---

١ رواه الترمذي

٢ رواه ابن خزيمة

٣ رواه البخاري

٤ رواه الطبراني

الحجر الصحي

واهتم التصور الإسلامي بقواعد الحجر الصحي، ومغزاه أن إذا ظهر مرض مُعْدٍ في حي أو قرية أو مدينة – فإن الواجب أن يفرض – حصار على سكان الموقع الذي ظهر فيه المرض المعدي ؛ رغبة في حصر المرض في أضيق نطاق ممكن، وفى هذه الحال يقول الرسول (e) " إذا سمعتم بالطاعون ظهر بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها " ([1]) والسبب في ذلك الحصار هو أن الخروج من الموقع الموبوء يعرض البلاد الأخرى لخطر عظيم، يؤدى إلى نشر المرض في نطاق واسع، وحبب الإسلام استمرار الإقامة في البلد الموبوء مع ضرورة الأخذ بسبل الوقاية وإجراء العلاج لمن أصيبوا بالمرض، وجعل الإسلام أجر من يموت في استدامة إقامته في البلد الموبوء – بعد استفراغ الجهد في الوقاية والعلاج – مماثلاً لأجر الشهيد المجاهد في الحرب لنصرة الإسلام وأهله. وفى هذا يقول النبي (e) " ما من عبد يكون في بلد فيه الطاعون، فيمكث فيه لا يخرج – صابراً محتسباً – يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر شهيد " ([2]).

وخطأ أن يقال: إن الخوف من الذهاب إلى الأرض الموبوءة دليل على ضعف الإيمان بقضاء الله وهروب من قدره المحتوم ؛ ووجه الخطأ هو أن قضاء الله غيب لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى. ولذا فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رفض أن يرحل إلى الشام حين وقع فيه الطاعون فقيل له: تفر من قدر الله ؟! فقال: نفر من قدر الله إلى قدر الله.
أي إن الأخذ بالأسباب تنفيذ لأمر الله " **وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** " البقرة: ١٩٥

والأخذ بأسباب النجاة في مثل هذه الحالة واجب على الإنسان العاقل المفكر المريد، القادر على الاختيار بين بدائل العمل، وقدر الله واقع في كل الأحوال ولا مجال في مثل هذه الحال للاستناد إلى حديث الرسول(e)" لا عدوى........" لأن آخر الحديث ذاته لا يسوغ ذلك حيث قال (e):
" لا عدوى، وفِر من المجذوم فِرارك من الأسد " يقول الشيخ محمد الغزالي يرحمه الله: " ليس النفي منصبا على حقيقة العدوى، ويجب أن نعرف أنه ليست كل عدوى تصيب ؛ فقد يحمل شخص

---

١ رواه البخاري

٢ رواه البخاري

جرثومة المرض ولا يصاب به لأن فيه مناعة خاصة تنجيه، وإن تكن مخالطة الآخرين تنقل العدوى إليهم " ([1]).

حق الجوار

والندية والمساواة في التبيؤ تفرض حسن التعامل مع الآخرين في البيئة التي يعيشون فيها ؛ فلا يجوز لفرد أن يسبب قلقا لمن يعايشه في البيئة أو يثير في نفسه فزعاً بأية صورة من الصور، تأسيساً على قول الرسول (e) " لا يحل لمسلم أن يُروِّع مسلما " ([2]) وقوله:" إن الله أوحى إلىَّ أن تواضعوا ؛ حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد " ([3]).

ومن هنا كان حق الجار مرعياً إلى درجة كبيرة في التصور الإسلامي، وفيه يقول الله تعالى: " **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ** " النساء: ٣٦

واقتران الوصية في هذه الآية الكريمة بالجار في سياق اشتمل على الأمر بتوحيد الإلوهية وبر الوالدين والإحسان إليهما إيحاء بدرجة اهتمام الإسلام بضرورة التواد والتراحم والتعاون بين الجيران، ولو كانوا على غير دينك.

والجوار - لغة – يعنى: العهد والأمان، والجار –لغة – المجاور في السكن، والمجير، والمستجير، والحليف والناصر ([4]) والله سبحانه وتعالى يقول: " **وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ** " التوبة: ٦

وشدد الرسول (e) على البر بالجار والتعاون معه في الأعمال الصالحة المشروعة ويقول:" ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " ([5]) وأود أن أنهى الحديث عن أخلاقيات التبيؤ بالقول: إن صحة البيئة وسلامتها في كل عناصرها تحتاج إلى أن ترسِّخ في وعى الناشئة، وخاصة في المجتمعات التي تزداد فيها نسبة الأمية، ومن بينها بعض الدول العربية الإسلامية. والسبيل الآمن إلى هذه التوعية أن تحتل المعلومات الخاصة بالبيئة، واتجاهات وسلوكيات الناس تجاهها، وتعاملهم معها قدراً كبيراً من العناية في مؤسسات التعليم العام.

---

١ محمد الغزالي (٢٠٠٢) خلق المسلم، القاهرة: نهضة مصر ص:١٤٧

٢ رواه أبو داوود

٣ رواه أبو داوود

٤ انظر المعجم الوسيط مادة جار

٥ رواه البخاري ومسلم

دور مؤسسات التعليم

ونظراً إلى هذه المعارف والاتجاهات والسلوكيات لا يمكن تعليمها في ضوء مناهج التعليم التي تقدم المعارف مفككة ومنفصل بعضها عن بعض في مواد دراسية معينة – فإن الضرورة تقتضى أن تعلم في مشروعات تعليمية متكاملة، تتم فيها ملاحظة الطلاب للواقع البيئي الذي يكتنف المدرسة التي يتعلمون فيها، وذلك عن طريق أن تتسع برامج التعليم في المرحلة الابتدائية والإعدادية لما كنا نطلق عليه في نهاية العقد الخامس من القرن العشرين وفى المرحلة الإعدادية والثانوية ما كنا نطلق عليه اسم المعسكرات الدراسية.

لقد مارست في بداية حياتي وأنا معلم للغة العربية في مدرسة الأورمان النموذجية في الفترة من ١٩٤٦ – ١٩٥٢ م مثل هذه الممارسات التعليمية. وأوجز وصفها في ما يلي:

أ – الرحلات التعليمية

نشاط تعليمي يعتبر جزءا في الجدول المدرسي، يخطط فيه الطلاب والمدرسون زياراتٍ تعليميةً هادفة تقدم يها الطلاب مع معلمهم، وتتم فيها معرفة منظمة بأحوال البيئة، ومن بين هذه الأنشطة مشروع التعرف على البيئة التي تقع فيها المدرسة، وقد اخترنا ذات مرة دراسة حي " بين السرايات المواجهة لجامعة القاهرة " في الجيزة ؛ ليكون مشروعاً للدراسة يلاحظ فيه التلاميذ بأعينهم الحال التي عليها الشوارع والأزقة والحارات والأسواق التي كانت في هذا الحي آنذاك، وما يجرى فيها من أنشطة تجارية وخدمية وحِرْفية، فيجمعون عنها معلومات يستقونها من العاملين فيها أنفسهم، ويكتبون عنها تقريرات مختصرة تناسب مستواهم العمري والعقلي ؛ كأن يلاحظوا (مثلاً) ما يباع في الأسواق من خضروات وفواكه ولحوم، من أين جاءت ؟ وما حالتها عند عرضها ؟ وحين يعودون إلى مدرستهم تدور نقاشات بين الطلاب والمعلمين تغطى جانباً كبيراً من واجبات الناس نحو بيئتهم القريبة.

وتمتد المناقشات إلى المشكلات التي يعانى منها الناس، وما هي بدائل الحلول التي يمكن بها القضاء على هذه المشكلات أو التخفيض من حدتها.

وفى مثل هذا المشروع يتم تدريب الطلاب على الملاحظة الدقيقة لمفردات البيئة والتعبير عنها بأنفسهم وتدريبهم على القراءة الهادفة في الموضوعات المختلفة ؛ ويتم في المشروع تعليم الحساب، والتعبير بالرسم أو التجسيم. وبهذا نقيم التعليم على خبرة المتعلم، ومشاهداته وممارساته وتقديراته لما هو صواب وما هو خطأ، وما هو مشروع أو غير مشروع.

المعسكرات الدراسية

جرى تطبيق هذا المشروع على أنه جزء أساسي في أنشطة الطلاب، وجعل التعلـيم ذا مغـزى بالنسبة لهم ؛ حيث أقيم معسكر في سنورس (منطقة ريفية) بمحافظة الفيوم فـي إحـدى السـنوات. ومعسكر آخر في مدينة ادكو بمحافظة البحيرة (منطقة شبه ساحلية) تقع على الطريق الواصل بـين الإسكندرية ورشيد. وكان عدد المشاركين في هذه المعسكرات يتراوح بين ٣٠ – ٤٠ طالباً. ويقـيم الطلاب والمعلمون في خيام ينصبونها هم دون معاونة من أحد من خارج المشاركين في المعسـكر، ويوزع الطلاب في مجموعات تتراوح الواحدة منها بين ٥-٧ طلاب ومعهم احد المعلمين ليكوِّنـوا فريقاً يعهد إليه بدراسة إحدى القرى. وتناولت الدراسة ما يلي:

- o جمع معلومات ديموجرافية عن القرية: عد السكان – نسبة المواليد – نسبة الوفيات – نسـبة الأمية.
- o شملت الخيام خيمة للمكتبة تضم الإحصائيات في المجلدات الإحصـائية الرسـمية، ومـواد تعليمية أخرى (كتب وصحف ونشرات تخص المنطقة)
- o نمط توزيع الملكيات في القرية المعنية.
- o الأنشطة والأعمال التي يكسب الناس منها أرزاقهم (زراعة – تجارة – حِرف أخرى:كالحدادة والنجارة، وصيد السمك)
- o نوعية الخدمات: الأمنية، والطبية، والإرشادية، ووسائل الانتقال المهيأة لأهل القرية، ومـدى كفايتها في رأى الناس
- o جمع عينات من تربة الأراضي، وصيد بعض الطيور غير المحظور صيدها وتحنيطها.
- o ملاحظة وتسجيل بعض الطقوس السائدة في القرية في المناسبات الاجتماعية والدينية.
- o وسائل الترفيه المتاحة في القرية.

وكان من أساسيات العمل في هذه المعسكرات إعداد دليل للعمل الميداني الذي يقـوم بـه الطـلاب للاسترشاد به.

وهكذا كان وصل التعليم بالبيئات وبواقع حياة الناس وكانت عوائد هذه المعسكرات تتمثل فـي التقارير، ووصف المشكلات التي يعانى منها الناس والطيبات التي يستمتعون بها. بطريقة من شأنها توعية الطلاب بمشكلات الحياة.

هذا، وقد كانت حصيلة هذه المعسكرات موضوعات تنمى من خلالها فنون اللغة: قراءة، وحديثا، وكتابة، واستماعا وملاحظة، وتنمى المعارف والمهارات العلمية والاجتماعية والخلقية التي نتوخاها من التعليم.

وكانت المدرسة تقيم قرب نهاية العام الدراسي معرضا لإنتاج الطلاب يدعى إليه أولياء أمورهم فقط وكان محظورا أن يدعى لهذا المعرض كبار المسئولين عن التعلـيم، كمـا يحظـر أن يكـون المعرض مادة للدعاية في الصحف اليومية أو المجلات الأسبوعية.

الفصل السادس

أخلاقيات الدولة

الفصل السادس

أخلاقيات الدولة

أولاً: الدولة

ثانياً : أخلاقيات الدولة

١ - استقلالية الدولة
٢ - حفظ الدين
٣ - مسئولية حق الحياة
٤ - الحرية والمساواة بين الناس
٥ - تحقيق العدالة
٦ - الكف عن تعذيب الناس وعسفهم
٧ - حرية التفكير والتعبير والاعتقاد
٨ - الحقوق الاقتصادية للمواطنين
٩ - مسئولية مشاركة الناس في شئون الحياة
١٠ -حرية الانتقال

أخلاقيات الدولة

مفهوم الدولة:

الدَولة – لغة – تعنى الاستيلاء والغلبة، والشيء المتداول وعرفها مجمع اللغة العربيـــة بأنهـــا مصطلح يعنى جمعاً من الناس مستقرون في إقليم معين الحدود، ومن نظام راسخ (١) وجاء في لسان العرب أن الدَّولة – بفتح الدال المشددة – تعنى الغلبة ؛ يقال في الحرب: دالت إحدى الفئتـــين علـــى الأخرى بمعنى غلبتها وانتصرت عليها. ومن معاني الدولة الانتقال من حال إلى حال ؛ مـــن حـــال الشدة إلى الرخاء أو العكس. ودالت الأيام: دارت، والله يداولها بين الناس. ويقال تداولنا العمـــل أو الأجر أو المنصب بمعنى تصادرناه ؛ فعله هذا مرة وفعله الآخر مرة.(٢)

وأحسب أن هذه المعاني: القوة والضعف، وتداول الحكم في المجتمع الإسلامي، والانتقال من حال إلى آخر شدة أو رخاء صفات تنصب على النظام السياسي للحكم في الدول.

والدولة في المنظور الانثربولوجي مرحلة من مراحل التطور السياسي الاجتماعي ؛ تتميز بوجود حكومة مركزية تحتكر الاستخدام المشروع للقوة في إدارة شئون المجتمع العامة داخل إقليم محدد.

ويرى علماء الانثروبولوجيا أن المعالم المتكررة التي اتفق عليها في تطور الدولة هي:

(أ) التزايد السكاني في العدد وفى الكثافة.

(ب) أن هذا التزايد يرتبط بظهور تقنيات جديدة زراعية أو صناعية أو اجتماعية أو مهنية.

(ج) ظهور أعداد كبيرة في انجاز أعمال حياة الناس، وظهور التدرج الطبقي الاجتمـــاعي، وبالتالي ظهور الطبقات الاجتماعية.

(د) تميَّز بعض الدول بأن الحكم المركزي فيها اتسم بطابع ثيوقراطي (ديني).

(هــ) ظهور فكرة تقسيم العمل بين السكان (٣).

وأعتقد أن النظرة الانثروبولوجية في بعض ما يسمونه المعالم المتكررة لا تنطبق تماماً على مفهوم الدولة في الإسلام سواء في نشأتها أو في تطورها ؛ فالتصور الإسلامي في الأصل يســتنكر الطبقية، ويسوى بين الناس قويهم وضعيفهم، غنيهم وفقيرهم،كما أنه لا يؤمن بالثنائية النكـــدة التـــي تفصل الدين عن الدنيا، ويعتبر أن الدنيا دار ابتلاء واختبار، وأنها مزرعة للآخرة.

---

(١) مجمع اللغة العربية المصري، مادة دول

٢ لسان العرب مادة دول

٣) انظر: موسوعة علم الإنسان (١٩٩٨) المفاهيم والمصطلحات الانثروبولوجية.شارلتون سيمور سميث ترجمة مجموعة من أساتذة علم الاجتماع بإشراف محمد الجوهري صدر عن المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ص ص ٣٧١ - ٣٧٣

إن مفهوم الدولة في الإسلام لم ينشأ إلا بعد نشأة المجتمع الإسلامي في المدينة، بدعوة تتسم بأنها وحى من الله خالق الناس، وخالق السموات والأرض وبدأت هذه الدعوة بقوله تعالى لرسوله الأمين " **يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** " المدثر ١-٧.

ثم أمره ربه أن يبث الدعوة إلى الأقربين من أهله بقوله تعالى: " **وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** " الشعراء: ٢١٤.

وصدع الرسول بأمر ربه فلاقى عنتاً وأذى كبيرين ؛ حتى من أهله الأقربين، و من المجتمع الجاهلي في مكة لمدة استغرقت ثلاثة عشر عاماً، وحاول جدَّه عبد المطلب أن يثنيه **(e)** عن الدعوة فقال حديثه الأشهر " والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته ؛ حتى يأذن الله، أو أهلك دونه "[١].

وألخص رؤيتي لمفهوم الدولة في الإسلام في أن المجتمع الجاهلي بكل ما كان فيه من عبادة للأوثان، وتعصب للقبيلة، وتباه بالأنساب وعبادة لغير الله قد تحول بفضل هذه الدعوة إلى مجتمع جديد – بقيادة الرسول محمد **(e)** – سواء في دعوته أو هيكلة دولة المدينة يختلف تماماً عن نشأة الدول الغربية.

وفى ضوء ما تقدم فإني أرى أن ثوابت المجتمع الإسلامي دائمة لا تتغير، فهو دين إلهي عالمي ؛ يتجاوز الزمان والمكان، والتدين بهذا الدين يمثل ظاهرة قابلة للتطور، فالدين ثابت إلى الأبد وتطبيقاته تتغير طبقاً لتغير المكان والزمان والإنسان الذي يحل فيهما.

وفى عبارة أخرى أقول إن النصوص الدينية التي تحوى ثوابت الدين يتم إنزالها على واقع حياة الناس عبر الأماكن والأزمان ؛ فيحدث التغير الذي وصفه القرآن الكريم في قوله تعالى " **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ** " الرعد:١١ وقوله تعالى: " **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** " الأنفال: ٥٣.

وقد حدث هذا التغيير في حالات منها: إيقاف حصة المؤلفة قلوبهم في الصدقات ؛ بعد أن انتشر الإسلام، وازدهرت الدعوة إليه، ودخل الناس فيه أفواجا، وكان ذلك الإيقاف في عهد الخليفة الراشد أبى بكر الصديق، ومنها – أيضا – إيقاف حد السرقة في عام المجاعة في عهد عمر بن

---

١) رواه البخاري في التاريخ والطبراني في الكبير وأبو يعلى في مسنده والحاكم في المستدرك والبيهقي في الدلائل.

الخطاب – رضي الله عنه – وفى مثل هاتين الحالتين ملحوظ أن أحكام الشريعة الإسلامية تدور مع عللها إيجابا وسلبا.

وتباين تعريفات الدولة في النظرية السياسية تباينا شديدا ؛ حيث ثار حول المفهوم خلاف وجدل كبيران، يمثلها وصف الدولة بأنها واحد أو أكثر مما يلي: ليبرالية، ثيوقراطية (دينية)، ديمقراطية، دكتاتورية، اشتراكية، شيوعية، رأسمالية.

وأرى أن السياق يحتم عليَّ أن أوضح رؤيتي في العلاقة بين الإسلام ونظام الحكم أو الإسلام وسياسة أمور المجتمع المسلم، فأقول في تكثيف شديد:

ليس في النصوص القرآنية الكريمة، ولا في أحاديث الرسول (e) قطعية الثبوت قطعية الدلالة ما يتضمن نظاماً للحكم، محددة معالمه، وجلية تفاصيله ؛ بل إن الإسلام ترك للمتدينين به وخاصة علماء الأمة المؤهلين المتخصصين في مختلف جوانب الحياة أن يجتهدوا – فرادى ومجتمعين – في الأمور السياسية التي تتعلق بسلطات الحكم في الدولة، وفى علاقة الدول الإسلامية بغيرها من الدول، على أن يلتزم في الاجتهاد بالقواعد والقيم التي فرضتها الشريعة الإسلامية.

ولعل هذا الاجتهاد هو ما عناه الإمام الغزالي بقوله " بذل المجتهد الوسع في طلب العلم بأحكام الشريعة "، وما حدده ابن حزم الظاهري بأنه " استنفاد الطاقة في طلب حكم النازلة حيث يوجد الحكم " وهو الطريق الذي وصفه ابن القيم الجوزي بقوله: " إن أي طريق أسفر بها وجه الحق والعدل فثم شرع الله ودينه " وهو أيضاً ما ارتآه آية الله محمد مهدي شمس الدين في نظرية " ولاية الأمة على نفسها ".

والقول باجتهاد علماء الأمة المتخصصين في مجالات الحياة المختلفة في نظام الحكم في الدولة الإسلامية هو ما قرره الإمام الجويني قديماً في شأن أن المسألة السياسية كلها أو جلها مسألة ظنية تقتضى اجتهادا متجددا في كل عصر، اجتهادا يحقق مصلحة الأمة [١].

هذا، والاجتهاد في شئون نظام الحكم السياسي مقيدٌ بأن يلتزم فيه بالقيم الكبرى في التصور الإسلامي، وهى القيم التالية: [٢]

١- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

٢- الشورى المُعْلِمة – ابتداء – للحاكم، والملزمة له انتهاء.

٣- العدل في الحكم، وفى القضاء بين الناس، وفى إدارة شئونهم.

---

١ راجع: برهان غليون ومحمد سليم العوّا (٢٠٠٤) النظام السياسي في الإسلام، بيروت: دار الفكر المعاصر، دمشق دار الفكر. المبحث الثاني كتبه محمد سليم العوّا. ص ص ١٠٣ - ١١٧

٢ السابق: ص ص ١١٨ – ١٣٣

٤- كف سلطات الحكم عن ظلم الرعية.

٥- حرية الرأي السياسي لكل فرد.

٦- التناصح بين الحاكم والمحكومين ؛ إعمالا لقول الرسول (e) " الدين النصيحة.(قال السامعون من أصحابه): لمن يا رسول الله ؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم " (حديث متفق عليه، رواه مسلم). ولقوله (e) أيضا " أعظم الجهاد كلمةُ عدل عند سلطان جائر " رواه الترمذي.

٧- المساواة بين الناس ؛ فقد خلقوا من أصل واحد للتعاون لا للتنافر، ولا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى.

٨- مسئولية الحاكم أمام الأمة التي استحفظه الله عليها.

وما قدمت في هذا الموجز المكثف ينبئ بجواز تعدد النظم السياسية في الحكم الإسلامي، ما دامت مرتبطة بالقواعد والقيم التي أشرت إليها قبلا.وسوف أتناول تفاصيل هذا الموجز تحت عنوان مسئوليات الحكم في الإسلام.

هذا، ومعروف أن الحضارة الأوروبية القديمة نشأت بعيدة عن الدين لعدة قرون، وأن المسيحية لم تكن دين دولة في أوروبا إلا عندما اعتنقها الإمبراطور الروماني قسطنطين عام ٣٣٠ ميلادية. وبعدها كان أباطرة أوروبا وملوك فرنسا يجمعون في شخوصهم السلطة الزمنية والسلطة الدينية، وذلك على مدار القرون الوسطى.

واضطر فلاسفة عصر التنوير في أوروبا إلى خوض معارك طاحنة من أجل القضاء على الأغلال والقيود التي فرضها الكهنة ورجال الدين المسيحي على حياة الناس العامة، وقامت النهضة في عصر التنوير الأوروبي استناداً إلى مقولة مشتهرة للمسيح عليه السلام " دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله "

أما الحضارة العربية الإسلامية فقد قامت على وجه آخر ؛ قوامه أن الإسلام دين ودنيا، وأن أحوال الدنيا لا تستقيم إلا بسياسة تُنظِّم حياة الناس وعلاقاتهم بمن خلقهم وعلاقة بعضهم ببعض: سياسة تؤمن بالعقيدة والشريعة والأخلاق التي أوحى بها خالق الناس – سبحانه – مقرونةً – في آن واحد – بالخبرات البشرية والتقنية وبما تفرزه عقول البشر التي كرم الله بها بني آدم، واختارهم خلائفة في الأرض.

وأخلص إلى القول: إن الإسلام دين تتكامل وتتفاعل فيه **عقيدة** وحدانية الخالق. و**شريعة** عمادها مصالح الناس في دنياهم وآخرتهم، وأخلاق تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتعتبر الدنيا دار ابتلاء، وأنها مزرعة للآخرة.

وقد لخص هذا المنهج في قضية تكوين المجتمع السياسي الإسلامي، وقضية الدولة الإسلامية الشيخ محمد مهدي شمس الدين في كتاب له [1]

مشروع الدولة على المستوى النظري نتيجة ضرورية للتشريع الإسلامي. وإقامة الدولة في الإسلام نتيجة ضرورية لكون الأمة مسلمة ملتزمة بالشريعة، وأن الأسس والقيم السياسية والأخلاقية هي التي شكلت المجتمع الإسلامي أولاً، ومن ثم كان مشروع الدولة الإسلامية الذي بدأ في المدينة المنورة بعد هجرة رسول الإسلام إليها.

التشريع الإسلامي لم يرد فيه – أصلاً – تقسيم أحكامه إلى عقيدة، وشريعة، ومعاملات (اجتماعية وسياسية ومالية) وأخلاقيات ؛ إن هذا التقسيم جرى عليه الفقهاء والمحدثون والمفكرون وعلماء الدين.

إن ما سمته علوم الدين " عبادة " وما سمته " معاملة " وما سمته " تنظيماً " تمثل جميعها تشريعاً يتكامل فيه النص القرآني الكريم والحديث النبوي الشريف. وثمة وشائج وعلاقات داخلية بينها إنها جميعها تتركز في موضوع واحد هو: الإنسان المسلم: فرداً وجماعةً ومجتمعاً وأمةً.

ودلل على ذلك بأمثلة من القرآن الكريم، تمتزج فيها جوانب مختلفة، منها قوله تعالى: " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** " الصف: ١٠ – ١٢

في هذه الآية اقترن الإيمان، وهو التزام قلبي تعبيره المباشر في العبادة المحضة بالجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، وهو عمل سياسي مادي يتصل بالمجتمع السياسي ومضمونه العقيدي والثقافي والاقتصادي ؛ ودوره الإقليمي والعالمي.

وهذا وذاك يتصلان اتصالاً مباشراً بالمصير الأخروي للمسلم وهو النجاة في الآخرة، والفوز برضوان الله " [2]

الصلاة "عبادة "وهى في ذات الوقت تنهى عن الفحشاء والمنكر (أخلاقيات) والحج ركن من أركان الإسلام للقادرين عليه وهو في ذات الحين مؤتمر عام للقاء المسلمين من كل الدول وهكذا.

---

١ محمد مهدي شمس الدين (١٩٩٢) في الاجتماع السياسي الإسلامي: بيروت، المؤسسة الجامعية، تجد في هذا الكتاب تأصيلاً فقهياً وتاريخياً وفكرياً لوجهة نظر يمكن أن نطلق عليها " كل الإسلام "

٢ السابق ص ٢٦

ثانياً: أخلاقيات الدولة

أخلاقيات الدولة تعنى مسئولياتها العامة تجاه المجتمع الذي أنشأها بهدف تنظيم شئونه، وإدارتها، وتنمية مصادر ثروته الطبيعية وثروته البشرية في آن واحد. ويمكــن تصــنيف هــذه المســئوليات الأخلاقية إلى مسئوليات عامة ومسئوليات مهنية، ونتحدث في هذا الفصل عن المســئوليات العامــة للدولة، وفى الفصل التالي نتحدث عن المسئوليات المهنية التي تمثل مسئوليات ذوى المهن المختلفــة في المجتمع الذي ترعاه الدولة

١ – استقلالية الدولة

يجب أن ينهض النظام الحاكم في الدولة بحماية استقلالها ؛ وذلك بألا يفرط في ســيادة الدولــة على أراضيها، أو على أي من مصادرها الطبيعية كالماء والنفط والغاز وسائر ما أركز الله فيها من معادن كالذهب والفضة وغيرهما، مما له قيمة تنفع أجيال المجتمع الذي أنشأ الدولة، ويــدخل فــي سيادة الدولة سيادتها على قراراتها الكبرى ؛ بحيث لا تكون تابعة، ولا ذيلا لدولة أخرى كبــرت أو صغرت، قربت أو بعدت. وهذا لا يعنى أن ينكفئ النظام الحاكم على نفسه أو يتقوقع داخل حــدوده ومصادره ؛ فهذا أمر لا تقدر عليه أي دولة في العصر الذي نعيشه، وإنما يعنى أن يتعامل النظــام الحاكم بوصفه مُفوضاً من الشعب للتعامل مع كل الدول الأخرى بندية. وألا يسمح في تعامله مع تلك الدول بالابتزاز أو الاحتكار أو الاستعلاء باتخاذ قرارات من شأنها أن تحرم الشعب في حاضره أو مستقبله ؛ من أن تستمتع أجياله بما أفاء الله عليها من ملكيات الدولة ؛ سواء أكانت هــذه الملكيــات خاصة بأفراد المجتمع أم فئة من فئاته أم ملكية عامة للمجتمع.

وفى هذا الصدد جاءت الآيات القرآنية الكريمة. قال تعالى وعزَّ:

" **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا** " النساء: ٥٨

ونظام الحكم أمانة أوكلها الشعب إلى النظام الحاكم، وتقصيره في أداء هذه الأمانة على نحو ســليم، يحفظ للناس حقوقهم التي أؤتمن على إدارتها وتسييرها وتنميتها – خيانة للأمانة.

وقد حرَّم الإسلام أن تهدر الأموال العامة للدولة , ودعا إلى صيانتها، وعدم المساس بها قال تعالى:

- " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ** " النساء: ٢٩

- **" وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** "[1] آل عمران: ١٦١

وعلى النظام الحاكم أن يهئ في هيكل الدولة المؤسسات العسكرية، والأمنية والاقتصادية، والدبلوماسية، والتعليمية التي تكفل أداء المسئولية الأخلاقية في صيانة الدولة، وأن تسن الدولة التشريعات والقوانين والإجراءات التي تضمن أداء هذه المسئولية على أكمل وجه. قال تعالى:

- **" وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ** " الأنفال: ٦٠

وإطلاق القوة في الآية الكريمة ملحوظ فيه أنه يشمل ما هو عسكري واقتصادي وعلمي وتقني، وكذلك يُلحظ في الآية عمومية النفقة " وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ " لتشمل المال والجهد البشرى في مجال العلوم والتقنيات.

ويطعن في أداء النظام الحاكم لهذه المسئولية الأخلاقية (استقلال الدولة) أن يكون نظام الحكم في بلد أكثر جماهيره تدين بالإسلام موالياً لأعداء الإسلام، كما لا يجوز لنظام الحكم إظهار التواد والمحبة والتعاطف مع الأعداء، فقد قال الله سبحانه وتعالى:

- **" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ** " الممتحنة: ١
- **" إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ** " الممتحنة: ٢
- **" لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)** " المجادلة:٢٢

وأحسب أن مقولة نظام الحكم في دولة إسرائيل عن رئيس سابق لمصر:" إنه كنز استراتيجي " هذه المقولة تمثل تناقضاً حاداً وجاداً مع ما يشير إليه التصور الإسلامي في علاقة الدولة التي تدين أغلبية سكانها بدين الإسلام بدولة معادية وفى هذا جاءت الآية التالية:

---

١ يَغْلل: يخون مال الدولة ؛ فيعطيه للآخرين أو ينفقه على نفسه وعياله وأقاربه أو لمن يهوى لأغراض لا تمس الصالح العام بل تخدم مصلحة ذاتية للحاكم

- " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** " الممتحنة: ١

وفى الآيات الكريمة السابقة ما يدل صراحة على نصرة المسلمين بعضهم بعضاً ومقاطعة المعتدين، والبراءة منهم، وعدم إظهار المحبة لهم.

٢ - حفظ الدين

أود قبل بسط الحديث في هذه المسئولية أن أدعو القارئ الكريم ليستحضر ما سبق أن قلت في الفصل الأول في هذا الكتاب عن ضرورة التفرقة بين مفهوم " **الدين** " ومفهوم " **التـديُّن** " [(١)] فالدين هو النموذج الإلهي الأمثل، الذي شرعه الله، واصطفى لإبلاغه إلى الناس الأنبياءَ والرسلَ، ممثلاً في نصوص دينية جاءت في التوراة والإنجيل، واختتمت بالقرآن الكريم وسنة نبيه الأمين. والتدين مفهوم يشير إلى سلوكيات الناس الذين آمنوا بهذه الأديان الرسالية عبر مراحل زمنية مختلفة.

والناس بشر خلقهم ربُ الناس وربُ السموات والأرض، وفطرهم على استعدادات بدنية وعقلية واجتماعية، وجعلهم خلائفه في عمران الأرض. والثابت تاريخياً أن الدولة الدينية النقية التي تتطابق تطابقاً كاملاً مع نصوص الدين (أي دين) في جملته وفى تفصيلاته لم تنشأ، ولا أظن أنها سوف تنشأ على الأرض إطلاقاً ؛ فدولة الإسلام – مثلاً – عبر تاريخ هذا الدين تعنى أن البشر الذين آمنوا به، لتقترب سلوكياتهم الفردية والاجتماعية من المثل الإلهي الأسمى. الذي عبرت عنه النصوص الدينية في القرآن والسنة في مجالات العقيدة،والشريعة،والأخلاق. وهى محاولات تتراوح بين الكمال والنقصان ؛ لأنها ليست موجهة إلى ملائكة ؛ " لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون " ؛ وإنما هي موجهة إلى بشر، ركَّز فيهم الخالق العظيم سبحانه قابليات للهدى وقابليات للضلال، كما منحهم قابلية التفكير في أنفسهم وفى آيات الله في الكون، وترك لهم حرية الاختيار، وأعلمهم أن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى، وأنه سبحانه المجازى على الخير، والمعاقب على فعل المنكرات يوم القيامة، وفقاً لميزان قدَّره جل جلاله:

- " **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** " الزلزلة: ٧، ٨
- " **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** " النساء: ٤٠

هذا، وحرية التدين وتعدد الأديان مصطلحان بارزان في التصور الإسلامي قال تعالى:

---

١ راجع ص ص في هذا الكتاب

- " **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** " البقرة: ٢٥٦
- " **وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**" الكهف:٢٩
- " **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** " يونس: ٩٩
- " **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)** " الكافرون:١-٦
- " **كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** " الطور: ٢١

وتعدد الأديان في التصور الإسلامي سنة طبيعية و اجتماعية قال تعالى:

- " **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** " البقرة: ٢١٢
- " **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** " النحل: ٩٣
- " **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** " هود: ١١٨، ١١٩
- " **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**" المائدة:٤٨

هذا، والإيمان بالإسلام ديناً – يقتضى أن يؤمن المسلم بالأديان الكتابية التي سبقت الإسلام، قال جلَّ وعزَّ " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا** " النساء: ١٣٦

إن هذا الحشد الهائل من آيات القرآن المجيد يؤكد أن مسئولية النظم الحاكمة في حفظ الدين تنصب على حفظ دين أغلبية المواطنين في الدولة الواحدة ودين الأقلية في نفس الوقت على سواء ؛ وذلك برعاية حقوقهم المدنية العامة في الحياة، ,حرية التفكير،و حرية الاعتقاد الديني، وفى المساواة بينهم وبين الأكثرية، وفى العدالة الاجتماعية، وفى حمايتهم من تعسف السلطة وحماية أعراضهم وسمعتهم، وضمان مشاركتهم في الحياة العامة وفى الحياة السياسية، وضمان حقوقهم الاقتصادية.

أما أديان غير المسلمين محكومة بقول الله سبحانه وتعالى: **فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** " المائدة: ٤٢

والأصل في الأحوال الشخصية – التي مثلنا لها – هو أن يتحاكم أهل الأقلية الدينية إلى دينهم، ما دام ينتمي إلى أصل إلهي، وذلك لقوله تعالى: " **وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** " المائدة: ٤٧

٣- مسئولية حق الحياة

على السلطة الحاكمة في الدولة المسلمة أن يكون لب منهجها في التعامل مع المواطنين جميعا أن الإنسان أكرم خلق الله بإطلاق " **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ** " الإسراء: ٧٠ وتكريم الإنسان يعنى تقديس حياته، بالحفاظ عليها، وصيانتها، وتنميتها ؛ حتى يؤدى أمانة العمران التي وكلها خالقه إليه. " **ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** " يونس: ١٤ وقداسة حياة الإنسان حقٌ له ؛ يجب الوفاء به دونما نظر إلى عمره أو جنسه،أو لونه أو عرقه أو اعتقاده الديني، أو مكانته الاجتماعية أو المالية ؛ لقوله تعالى:

"**مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** " المائدة: ٣٢.

وقداسة حياة أي إنسان حق لا يجوز أن يسلبه فرد أو جماعة أو سلطة حاكمة، وللسلطة الحاكمة – وحدها – أن تسلب هذا الحق بسلطان قوانين الشريعة الإسلامية في حال القصاص " **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** " البقرة: ١٧٩ وحياة الإنسان مقدسة أيضا في حال موته، بدفنه دون تمثيل بجثمانه – في أية صورة - ؛ فقد روى عن الرسول محمد (e) أنه مرت به جنازة يهودي فوقف تكريما للميت، واستنكر أحد من حضر هذه المناسبة فعل الرسول (e) بقوله: إنها جنازة يهودي ! فقال عليه الصلاة والسلام: **أليست نفساً ؟!** واستنكر الرسول أيضا أن تسب النفس الإنسانية بعد موتها؛ فقال:" لا تسبوا الأموات؛ فإنهم أفضوا إلى ما قدموا [(١)]

هذا، ومؤسسات السلطة في البلاد الإسلامية مطالبة بأن يكون جماع وظائفها حماية نفوس الجماهير التي سلطت عليها، وتحقيق العدالة في رعاية مصالحهم، ومن واجب كل فرد أن يدفع عن نفسه وعن الآخرين ما قد تلحقه به هذه المؤسسات في مستوياتها المختلفة من أذى في أنفسهم أو في

---

(١) رواه البخاري

أموالهم، أو في كرامتهم. ومن واجب كل المظلومين أن يجهروا بما لحقهم من ظلم أو أذى بكافة الوسائل السلمية المشروعة، فالله سبحانه وتعالى يقول " **لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا**"النساء: ١٤٨ ومن هذه الوسائل الشكاوى والتظاهرات والاعتصامات السلمية، ويحرم على السلطة الحاكمة قَتْلهم أو إصابتهم بأذى يقعدهم، أو يسبب لهم أية إعاقة ؛ إذ إن من واجب كل فرد مسلم أن ينصر أخاه المظلوم، وأن يمنعه عن ظلم الآخرين ؛ إعمالاً لقول الرسول (e)" لينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً ؛ إن كان ظالماً فلينهه، وإن كان مظلوماً فلينصره " [(١)].

٤ - الحرية والمساواة بين الناس

هذا، وتقديس حياة الناس التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة لا تكتمل إلا بتقديس حرية الإنسان ؛ إذ إن الحرية هي السمة الطبيعية التي فطر الله الناس عليها منذ ولادتهم، وواجب على السلطة الحاكمة أن ترعى هذه الحرية، وأن يستقر في يقين الحكام في سائر مستوياتهم، أن الحكم ليس قهراً، ولا استعباداً، ولا إكراهاً ولا تعسفاً. إن الإسلام الحنيف – خاتم الديانات الكتابية – جاء لتحرير الناس من عبادة الناس ليعبدوا الله وحده، ويتبعوا سنة رسوله الأمين. قال تعالى في سمات المؤمنين المتقين:

" **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** "

الأعراف: ١٥٧

فسر الإصر والأغلال في الآية الكريمة السابقة على أنها الأحمال الثقيلة التي فرضها رجال الأديان السابقة وحملت الناس بأعباء ثقيلة كانت فوق طاقاتهم.

وتحرير الناس من أن يعبد بعضهم بعضاً والتي عناها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؛ بقوله " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا " وللحرية أوجه كثيرة منها: حرية الاعتقاد الديني، وحرية التفكير، وحرية التعبير بسائر الوسائل التي في طاقة الإنسان، والتحرر من عبادة الظواهر الطبيعية، ومن أن يكون هوى الإنسان هو إلهه

- "**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ** " الجاثية: ٢٣

---

(١) رواه البخاري ومسلم

- " **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ** " القصص: ٥٠

- " **وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ** " المؤمنون: ٧١

وتحريرهم – أيضا – من عبادة المال ؛ حقاً إن الأموال نعمة من الله سبحانه وتعالى والناس مستخلفون فيها قال تعالى: " **وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا** "الإسراء: ٦ وكثير من المسلمين في عالمنا اليوم أصيبوا بهوس جمع المال لذاته والتباهي به، هؤلاء ينطبق عليهم قول الحق تبارك وتعالى: " **وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ** " سبأ: ٣٥.

وسأعود – بإذن الله – إلى الحديث عن سيكولوجية المال وأمراضه في فصل تالٍ إن شاء الله [١]

هذا، ومسئولية تحقيق المساواة بين الناس – في التصور الإسلامي – صنوٌ لحرياتهم ؛ فالشريعة الإسلامية وأخلاقيات الإسلام لا تُفاضِل بين الناس ؛ فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى " **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)** " الزلزلة: ٧، ٨ والاستقامة على النهج الذي ارتضاه الله للناس " **وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا** " الأحقاف: ١٩ وأوضحت هذا النهج أحاديث عن النبي(**e**) قطعية الثبوت و قطعية الدلالة، فقد قال الرسول (**e**):" لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها " [٢] وتأكدت هذه المسئولية (المساواة) في خلافة العمرين: أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب في العهد الراشد لكل منهما ؛ فقد أعلنها أبو بكر مدوية للناس عند توليته الخلافة حين قال: " ألا إن أضعفكم عندي القوى حتى آخذ الحق له وأقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق منه " ومغزى هذا القول هو أن تتحقق المساواة بين الناس أمام القانون.

٥ - تحقيق العدالة

وفى قلب المسئولية الأخلاقية المنوطة بالسلطة الحاكمة تحقيق العدالة بين أفراد المجتمع وفئاته في فرص الحياة الكريمة: في التعليم، وفى العمل، وفى الخدمات الوقائية والعلاجية، وفى أجر العمل في مؤسسات الدولة – كلٌ بحسب جهده ومؤهلاته ودرجة إتقانه للعمل – دون تحيف.ومن

---

(١) انظر ص ص في هذا الكتاب

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي

مظاهر مجانية العدل في أجور العمل اتساع البَون بين رواتب العاملين – في العمل الواحد – بمؤسسات الدولة الإدارية والخدمية والاقتصادية، وفى مؤسسات القطاع العام اتساعاً فاحشا من شأنه أن يزداد الأغنياء غنى، وأن يزداد الفقراء فقرا.

وتشمل مسئولية تحقيق العدالة العدل في التعيين بوظائف الدولة، وذلك بأن يكون المعيار المعتَمد في الاختيار لهذه الوظائف هو الكفاءة ؛ دون الوساطات والشفاعات، وتوريث الوظائف التي يورثها الآباء للأبناء على النحو الذي يحدث أحياناً في مجالات مثل الإعلام والطب والقضاء.

وتحقيق العدالة هو القيمة العليا التي دعا الإسلام إلى الالتزام بها في كل سلوك تقوم به السلطة الحاكمة وهو أيضا مسئولية يجب أن يلتزم بها كل فرد مؤمن، إعمالاً لقوله تعالى:

- " **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** " النساء:٥٨
- " **وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون** " الأنعام: ١٥٢
- " **فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا** " الحجرات: ٩
- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** " المائدة: ٨

وتدل الآيات الكريمة على أن العدل قيمة تشمل: العدل في الحكم بين الناس، والعدل في البيع والشراء، والعدل لكل الناس حتى مع من يكرهونهم، والعدل في الشهادة التي تمثل الواقع الحقيقي دون تحريف، والعدل في الصلح بين الناس، والعدل في القضاء بأن يكون الناس سواء أمام القانون، دونما تحيز لمنصب أو جاه، وأن يُلتزم في العقوبات القضائية بما قدرته الشريعة " **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا** " البقرة: ٢٢٩ وألا يؤخذ إنسان بجريرة غيره " **كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** " الطور: ٢١ فلا يجوز أن تمتد المساءلة إلى ذويه من الأهل والأقارب أو الأصدقاء، لقوله تعالى " **قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ** " يوسف: ٧٩

والعدل والمساواة بين الناس أمام القانون يلزم السلطة الحاكمة بالمساواة في إحالة المتهمين إلى قاضيهم الطبيعي، وليس إلى القضاء العسكري، فمن الظلم البيِّن الذي يجب أن تكف عنه السلطة الحاكمة في البلاد الإسلامية إحالة غير العسكريين إلى القضاء العسكري أو إلى محاكم استثنائية.

٦ - الكف عن تعذيب الناس وعسفهم

تحدثنا قبلاً عن المسئولية الأخلاقية المنوطة بالسلطة الحاكمة إزاء المحافظة على حياة الناس ووقايتهم وعدم إهدار حرياتهم نضيف هنا مسئولية أن تمتنع السلطة الحاكمة في الدول المسلمة عن

تعذيب الناس، وإيذائهم بدنياً ومعنوياً والعسف – لغة – أخذ الناس بالعنف والقوة، والتعسف يعنى التكلف، و العزوف عن اتخاذ السبيل القويم، ويشمل العَسْف المسارعة إلى اتهام الناس بارتكاب جرائم دون أن تكون هناك قرائن وأدلة تؤيد هذا الاتهام ويدخل في عسف الناس ما تفعله سلطات الأمن في بعض الدول العربية الإسلامية إذ يتم تلفيق التهم للأبرياء، لغايات تهم نظام السلطة الحاكمة فقط، وتكفل بقاءها في السلطة أطول وقت ممكن، وأنشئت لإنجاز هذه الأعمال الآثمة وحدات داخل هيكل السلطة في بعض الدول وقد نهى الإسلام عن تعذيب الناس والتعسف معهم. جاء ذلك في قوله تعالى:

" **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا** " **الأحزاب: ٥٧،٥٨**

وقد روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله (e) يقول: " اللهم من ولى من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فأشقق عليه، ومن ولى من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فأرفق به " [١]

وتعذيب الناس بمجرد أن تحوم حول أحدهم شبهة عمل إجرامي ؛ ينهض به بعض السلطات الحاكمة المستبدة التي لا ترعى حدود صلاحياتها، و لا ترعى حرمات الناس ؛ وهذا ظلم عظيم يكرهه الله ورسوله، فقد قال عليه السلام: " أحب الناس إلى الله يوم القيامة، وأدناهم منه مجلسا إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم عنه مجلسا إمام جائر " [٢]

وفى حديث آخر وصف رسول الله (e) العلاقة بين السلطة الحاكمة والجماهير المحكومة بأنها علاقة قوامها تبادل المحبة والمودة ؛ حيث قال الرسول (e):

" خيار أمتي الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلون عليكم وتصلون عليهم. وشر أمتي من تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم "[٣]

وقد حرص الرسول (e) حين بعث معاذ بن جبل إلى اليمن أن يوجهه إلى تجنب ظلم الناس، وأن يعدل بينهم بالقسطاس المستقيم، حتى لا يبغضونه فيدعون عليه فقال (e) لمعاذ: " اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب " [٤]

والمؤسف أن بعض الحكومات العربية المسلمة ذاعت شهرتها في تعذيب الناس وإهدار كرامتهم ؛ وتجلى هذا الإثم الكبير في أن بعض من اعتقلتهم الولايات المتحدة الأمريكية بعد الأحداث المؤسفة

---

١ أخرجه مسلم

٢ أخرجه الترمذي

٣ رواه مسلم

٤ أخرجه الترمذي

التي وقعت في نيويورك يوم ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ م وتم إيداعهم سجن جوانتانمو – كانت أمريكا ترسل بعضهم إلى بلد عربي ليتولى تعذيبهم.

وتدل الأحداث الأخيرة التي وقعت في البلاد العربية: تونس ومصر وليبيا وسوريا واليمن، والتي نادى فيها عامة الناس وخاصتهم بطرق سلمية بإصلاح الأوضاع في هياكل وأعمال وقوانين السلطة الحاكمة، وأسفرت هذه الأحداث عن قتل أعداد كبيرة في كل بلد، وإصابة أعداد أخرى إصابات بالغة.

وقد جاء النهى عن تعذيب من ارتكب جرماً بطرق تتجاوز ما حدده الشرع قال (e): " إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا " [١]

ولا يجوز في شريعة الإسلام أن يكره شخص على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها، أو أن يُنزع منه الاعتراف بوسائل الإكراه، ومنها التعذيب البدني والتهديد بانتهاك عرض الشخص أو عرض من يهمه ؛ فقد قال رسول الله (e) إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " [٢]

والإسلام " **الدين** " نهى أن يكون المؤمن خصيماً مناصراً للمجرمين الذين يخونون أماناتهم وعهدهم قال تعالى " **إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا**" النساء: ١٠٥

ولذلك، جاء تحديد الإسلام عقوباتٍ معينة للجرائم لا يجوز تجاوزها، ودعا رسول الإسلام (e) إلى أن تدرأ الحدود بالشبهات قدر الاستطاعة ؛ قال الرسول (e):" دع ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبُك فإن الصدق طمأنينة، والكذب رِيبة " [٣] وكانت التفرقة بين الإثم الذي يرتكب عمداً، والإثم الذي يرتكب خطأ عن جهالة ؛ قال تعالى: " **وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ** " الأحزاب: ٥

وروي عن هشام بن حكيم أنه قال: سمعت رسول الله (e) يقول: إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا " [٤]

---

١ رواه الخمسة والخمسة في رواية الأحاديث النبوية هم: أحمد و أبو داوود والنسائي والترمذي وابن ماجة.

٢ رواه ابن ماجه بسند صحيح

٣ رواه البخاري

٤ رواه مسلم وأبو داوود والنسائي

٧- حرية التفكير والتعبير والاعتقاد

على السلطة الحاكمة أن تكفل لأفراد المجتمع وفئاته المختلفة أن يعبروا عن أفكارهم ومعتقداتهم – بشتى الطرق المشروعة – دون تدخل أو مصادرة من أحد، وذلك في إطار الحدود العامة التي أقرتها الشريعة وقررتها القوانين الوضعية التي اتخذت الشريعة مرجعية أساسية لها، وليس من الحرية في شيء أن يذاع على الناس في وسائل الإعلام الجماهيري – المسموعة والمرئية والمكتوبة – ما هو باطل، أو ما يروج للفحشاء والمنكر، أو ما يخذل الأمة ويفت في عضدها أو يبعث في نفوس جماهيرها اليأس والانهزامية. قال تعالى " **لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا** " الأحزاب: ٦٠، ٦١

وحرية التفكير ليست حقاً للفرد، وإنما هي واجب عليه ؛ يجب أن يقلب فيه وجهات النظر المختلفة ؛ ليصل إلى ما هو أفضل وأحسن وأرجح ؛ فالله سبحانه وتعالى يقول:

- " **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا** " الإسراء: ٣٦
- " **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا** " سبأ: ٤٦

ويجب أن تستيقن السلطة الحاكمة أن من حق كل فرد وواجب عليه أن يرفض الظلم الذي يلحقه، وأن يسهم في دفع الظلم عن الآخرين، دون خوف أو تهيب سلطة ظالمة، فالسلطة ليست إلا إجراءات تنظيمية لأنشطة الناس، وليست سيفاً مسلطاً على أعناق المحكومين.

وفى هذا الصدد يقول الرسول (e) عندما سئل أي الجهاد أفضل ؟ قال: " كلمة حق تقال عند سلطان جائر "[١]

وحرية الاعتقاد مكفولة في التصور الإسلامي – كما قدمنا أكثر من مرة – لقوله تعالى:

- " **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** " الكافرون: ٦
- " **فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** " الكهف: ٢٩

٨- الحقوق الاقتصادية للمواطنين

---

١ رواه الترمذي والنسائي بسند حسن

من المسئوليات التي يجب أن تؤديها للمواطنين الوفاء بالحقوق الاقتصادية التي تنتجها المــوارد الطبيعية التي خلقها الله، وجعل الناس خلائفه في استخدامها وتنميتها، لضمان عمران الكوكب الــذي يعيش فيه البشر. يقول الحق تبارك وتعالى:

" **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ** " المائدة: ١٢٠

" **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ إِنَّ رَبَّــكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** " الأنعام: ١٦٥

" **اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُــمْ تَشْــكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** " الجاثية: ١٢، ١٣

وإطلاق المخَاطَب بصيغة الجمع في الآيات السابقة قرينة صادقة على أن المُلك كله لله، وأن الجنس البشرى مستخلف في هذا الملك ؛ ليوظفه، وينميه، ويستمتع به، ويشكر الله عليه.

والناس جميعا مدعوون للسعي في طلب الرزق ؛ فالله سبحانه وتعالى يقول " **فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ** " الملك: ١٥ ويقول:

" **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** " هود: ٦

والملكية الخاصة مشروعة على سبيل الانفراد والمشاركة، والملكية العامة مشروعة – أيضا – وهى ملك لأبناء الدولة جميعا. وتوكِّل الأمة النظام الحاكم في رسم الخطط ووضع السياسات الكفيلة بالإبقاء على مصادر الثروة وإحسان استثمارها، وتوزيع عوائدها بالعدل والقسط بين أبناء الدولــة ؛ فجماهير الناس هم القوى الفعلية التي تنمى مصادر ثروة الأمة، وهم في الوقت ذاتــه المســتحقون للانتفاع بها.

وقد حرم الإسلام في التعامل مع الملكية العامة الغش والاحتكار،والضرر، والســلب والنهــب وليس من حق السلطة الحاكمة أن تتنازل لأحد عن شيء من الملكية العامة إلا لقاء ثمن مناسب يزيد في قيمة الملكية العامة في كمها وفى كيفياتها، ولا يجوز للسلطة الحاكمة أن تضع سياســة أو تسـن قانونا يجعل الثروة المالية دُولة بين الأغنياء ؛ بل يجب أن تحرص على تضييق الشقة بين الأغنيــاء والفقراء في البلد الواحد، لما لاتساع الشقة بين الأغنياء والفقراء من إثارة للأحقاد بين الناس قد تؤدى إلى فقدان التماسك والتعاضد في المجتمع الواحد. والنصوص القرآنية أوجبت وفاء السلطة الحاكمــة بحقوق المواطنين الاقتصادية منها قول الحق تبارك وتعالى:

" مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ "الحشر: ٧

وفى ذلك قال الرسول (e) " كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته " [١].

ومغزى هذا الحديث الشريف هو أن كل فرد في مجاله مسئول مسئولية أخلاقية عن حسن سير الأمور في هذا المجال.

وقال رسول الله (e) من أخذ من الأرض شيئا بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين " [٢] وإطلاق الأرض في الحديث يعنى التسوية بين اغتصاب الملكية الخاصة. ونهب الملكية العامة أشد حرمة ؛ لأنه عدوان على المجتمع كله.

وفى حديث آخر يقول الرسول (e): " من استخلفناه منكم على عمل فكتم منه مَخِيطاً فما فوقه كان غُلولا يأتي به يوم القيامة "[٣].

وفى استغلال بعض الرؤساء مناصبهم، وجعلها مصدراً لغناهم الفاحش، وغنى من يلوذون بهم جاءت الآية الكريمة:

" وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ " آل عمران: ١٦١

٩ - مسئولية مشاركة الناس في شئون الحياة

على السلطة الحاكمة أن تعنى بحق كل فرد في المجتمع في معرفة ما يجرى حوله في حياة المجتمع، وعليه أن يسهم بقدر ما تهيئه له طاقاته ومواهبه، وهذه الغاية تتحقق بوسائل شتى منها:

أ – أن تكون أجهزة الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب صادقة وموضوعية فيما تبث للناس من وقائع وأحداث وآراء، وألا تكون منابر لتمجيد النظام الحاكم، وعليها أن تبرز سلبيات أداء السلطة الحاكمة وإيجابياتها دون إفراط أو تفريط.

---

١ رواه البخاري ومسلم

٢ رواه البخاري في كتاب الوصية

٣ رواه البخاري

ب- أن تلتزم السلطة الحاكمة باستشارة الجماهير في شئون الأوضاع السياسية والاقتصادية وأن تتعرف الأوضاع التي يعيش فيها الناس بطرق علمية أمينة وشاملة دونما تزييف أو تضليل على النحو الذي يسود في استطلاعات الرأي العام، وأن تتعرف المشكلات التي يعانون منها في المأكل و المشرب، والسكن، والتعليم، وتوقى الأمراض، والتطبيب.

والشورى مبدأ بارز في التصور الإسلامي للأخلاق يجب على السلطة إعمال مقتضياته، ولا تسقط أهلية أحد من الناس في أهليته للتشاور، أو الانتقاص منها إلا إذا كان الشخص فاقداً للتكليف الشرعي، وحَدُّه " البلوغ والعقل ". وفى عبارة أخرى أقول إن هذه الأهلية للمشورة متكافئة بين المسلمين دونما تفرقة تبعا للجنس أو العنصر أو الطبقة التي ينتمي إليها الفرد أو معتقده الديني.

وفى ضرورة الوفاء بمشاركة الناس واستشارتهم جاءت النصوص الدينية التالية: قال تعالى:

- " **وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** " الشورى: ٣٧، ٣٨
- " **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** " آل عمران: ١٥٩

ويقول الرسول (e) " المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهى يد على من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم " [١].

والشورى يجب أن تكون أساس العلاقة بين السلطة الحاكمة والمحكومين، ولا يظنن أحد من الحكام أنه وحده قد وُهِبَ الحكمة ورجاحة العقل وصواب الرأي. ولذا فإن الشرع الإسلامي يقرر ضرورة أن يختار الناس حكامهم بإرادة حرة نزيهة وشفافية دون إكراه أو إغراء أو تضليل. وتأمل معي مقولة أبى بكر الصديق عند توليته خلافة رسول الله (e) " إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فيكم، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم "

والشورى في المنظور الإسلامي واجبة على الحاكم ؛ فلا يجوز إهمالها لأي سبب من الأسباب، وقد قال احد المجتهدين من المالكية " إن الشورى من عزائم الواجبات التي لا يجوز تركها، و إن من تركها فعزله واجب دون خلاف " [٢].

---

١ رواه أحمد

٢ محمد سليم العوا (٢٠٠٦) الفقه الإسلامي في طريق التجديد، القاهرة: سفير الدولية للنشر ص ١٢١ ط ٣

هذا، "ومعروف أن الآية الكريمة رقم ٣٨ في سورة الشورى جاءت وصفاً لازمـاً للمـؤمنين بعامة، ولو لم تكن لهم جماعة منظمة، ولا حكومة قائمة، ولا دولة محددة المعـالم والقسـمات. ولا يتصور أن تكون هذه الحالة مجرد أمر مستحب ؛ يفعله من يشاء ويهمله من يشاء ولكنه أمر واجب الأداء من قبل الأفراد والجماعات والنظم الحاكمة التي يُنشئها الشعب لإدارة شـئون حياتـه علـى صراط مستقيم. [١]

أما آية آل عمران: ١٥٩ فقد أوحى بها بعد غزوة أحد التي خرج إليها الرسول **(e)** وفقاً لرأى الأكثرية من أصحابه، وكان رأياً مخالفاً لرأى الرسول، وكان رأى الرسول هو الأصوب، ومع ذلك فقد أمر الله نبيه أن يستغفر لأصحابه، وأن يواظب على مشاورتهم في الأمر بإطلاق وتعميم ؛ ليشمل كل ما يهم المسلمين، فالشورى إذن واجبة واجبة وليست مستحبة ولا مندوبة، وهى واجبـة ابتـداء وملزمة انتهاء لمن يريد أن يجعل فكرتها وقواعد الإسلام بوجه عام مرجعية عليا في بنـاء النظـام السياسي للدولة، ولا يجوز لأحد أن يبرر لحاكم أن يتنصل من وجوبها، أو أن يتحلل من حكمها. [٢]

ويتسق هذا التصور مع رأى الإمام محمد عبده في تفسير قول الحق جل وعلا: " **وَلْتَكُنْ مِـنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** " آل عمران: ١٠٤ إذ رأى - يرحمه الله – أن وجوب الشورى مستمد من هذه الآية الكريمة التي تفرض أن يكون في المجتمع الإسلامي جماعة ذات عزم وقوة في العلم وفى الفكر وفى العلوم الشرعية تقـوم بهـذا المعروف، وتجبر الحاكم والمحكومين على الوفاء بأداء المعروف الذي توافق عليه أولوا العزم مـن المتخصصين وأهل الرأي الموثوق به في مجالات الحياة بوجه عام [٣].

وقد يفيد القارئ أن أذكر أن الجذر اللغوي لكلمات الشورى والمشورة والاستشارة هـو الفعـل الماضي " شاور " واستشار ومن معانيها في اللغة استخراج عسل النحل من خليته للاسـتمتاع بـه، وهكذا يستساغ القول: إن الشورى بين الحاكم والمحكوم، وبين الناس بعضهم بعضا عمل تسـتطيبه النفوس وتطمئن به القلوب، وتنمو من خلاله العقول.

هذا، والتقصير في وفاء سلطة الحكم بالوفاء بالحقوق الاقتصادية للمواطنين جرم خطير ؛ لأنـه يدفع كثيراً من الناس إلى فعل المنكرات وارتكاب الجرائم كالسرقة، والاغتصاب، والدعارة ووصلت الحال إلى قتل النفوس البريئة.

---

١ المرجع السابق ص ص: ١٢١، ١٢٢

٢ محمد سليم العوا (٢٠٠٦) الفقه الإسلامي في طريق التجديد مرجع سابق ص ١٢٤

٣ المرجع السابق ص ١٢٢

إن عدم الوفاء بحق المحكومين على الحاكمين في حيازتهم ما يضمن لهم ولأسرهم حياة كريمة قد امتدت آثاره الخطيرة إلى الأطفال الصغار، فاضطر الناس إلى أن يوظفوا أبناءهم في أعمال ليست منتجة ؛ وتمتلئ شوارع مدن كبرى في البلاد العربية المسلمة بصبية – ذكوراً وإناثاً يجوبون الشوارع لبيع المنظفات الورقية لراكبي السيارات، أو يعملون في أعمال شاقة وهم دون العاشرة ؛ ليسهموا في دخل أسرهم الفقيرة، ومنهم من يتكففون الناس.

وأحسب أن المسئولية في مثل هذه الظواهر تقع على السلطة الحاكمة إذا عجز والد الطفل عن الوفاء بمسئولياتهما تجاه أولادهما. وفى هذه الحالات تنتقل هذه المسئولية إلى المجتمع ممثلاً في الخزانة العامة للدولة لقوله تعالى:

" **النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ** " الأحزاب: ٦ ولقول الرسول **(e)**: " أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ؛ فمن ترك دَيْناً أو ضَيْعة فعليَّ ومن ترك مالاً فلورثته " [١]

(الضيعة هنا تعنى: ترك ذرية ضعافا يخشى عليهم الضياع)

هذا، وقد سبق أن قدمت في هذا الكتاب حقوق الأفراد في صيانة خصوصياتهم ودور السلطة الحاكمة في تأكيد الوفاء بحقوق حرمات الناس في المال والعرض [٢] ولقول الرسول **(e)** " لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رَحْلِه " [٣]

١٠ - حرية الانتقال

من حق كل فرد أن تكون له حرية الانتقال من بلده والعودة إليه، وله حق الارتحال والهجرة من موطنه الأصلي والعودة إليه دون تعويق أو تضييق من السلطة الحاكمة، فالله – سبحانه – دعا الناس إلى السعي في طلب الرزق في أي مكان يريد الواحد منهم. قال تعالى:

- " **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** " الملك: ١٥ وقوله تعالى:
- " **أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا** " النساء: ٧

وحماية المهاجرين طلباً للرزق أو فراراً من ظلم ينالهم في موقع إقامتهم في بلدهم الأصلي المسلم- واجبة على السلطة الحاكمة في البلد المسلم الذي هاجروا إليه ؛ فدار الإسلام واحدة، وكلها وطنٌ لأي

---

١ رواه الشيخان وأبو داوود والترمذي

٢ راجع ص ص   في هذا الكتاب

٣ رواه الشيخان وأبو داوود والترمذي

مسلم ؛ ولا يجوز أن تقيد حركات المسلمين بحدود سياسية أو جغرافية، فالمؤمنون إخوة في الإنسانية وإخوة في الإسلام يجب ألا يساء تعاملهم. قال تعالى:

- **" وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "** الحشر: ٩

وعلى السلطة الحاكمة في أي بلد مسلم أن تحمىَ من هاجر إليها، وإن كان غير مسلم، بنفس القدر الذي تحمى به أهلها، فالله سبحانه وتعالى يقول:

- **" وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ "** التوبة: ٦

ومغزى هذه الآية الكريمة هو أن الشريعة الإسلامية تحرم تهاون السلطة الحاكمة في بلد مسلم في حماية من هاجر أو رحل إليها، وحدث هذا الجُرم لوزير سابق للخارجية الليبية، حيث تم اختطافه والقضاء عليه، وهو لاجئ إلى مصر.

واختطف – أيضا – الإمام موسى الصدر وهو في رحلة من لبنان إلى ليبيا.

أما بعد، فثمة حقوق لكل من الزوجين على الآخر، وحقوق للأبناء على آبائهم وعلى السلطة الحاكمة. وقد أفردنا لها الفصل الثالث في هذا الكتاب وفقاً للتصميم الذي اخترناه لمحتويات الكتاب.[١]

---

١ راجع ص ص في هذا الكتاب

الفصل السابع

أخلاقيات المهن

أخلاقيات المهن

ماهية المهنة

المهنة مصطلح يطلق – عادة – على أنه مقابل للحرفة. والمهنة ممارسات محددة، تنهض بها جماعة معينة من الناس، تنتظم – عادة – في جماعة يطلق عليها اسم نقابة أو رابطة أو جمعيـــة أو اتحاد، وتتمايز المهنة عن الحرفة بأن الممارسة فيها لا تعتمد – بدرجة كبيرة – على الجهد البـــدني، وإنما تستند إلى معلومات ومعارف مركبة ومنظمة، ويقل فيها – غالبا – أسلوب المحاولة والخطـــأ كالطب، والهندسة، والتعليم، والقضاء، والصيدلة، والخدمة الاجتماعية، والمحاماة، والتجارة، وأعمال المصارف.

وللمهنة خصائص تتمايز بها عن الحرفة، ومنها:

١ - أنها تسد حاجة اجتماعية مشروعة وضرورية لحياة الأفراد والمجتمع.

٢ - تستند إلى معرفة Knowledge تتطور تبعا للتقدم العلمي والتقني، وتمتزج فيها المعرفـــة بالعمل الحسي ؛ أي أنها تستند إلى ما سميته علم الأداء، أو علم الممارسة praxiology.

٣ - تتطلب إعداداً ثقافياً وتعليمياً وأخلاقياً يمتد – في الأقل – إلى نهايـــة المرحلـــة الجامعيـــة. وتتطلب نمواً مستمراً يجب أن يحرص عليه المهني في أثناء الخدمة.

٤ - لكل مهنة ميثاق أخلاقي – متعارف عليه أو مكتوب - يلتزم به المهنيـــون العـــاملون فـــي مجالاتها ؛ ولذا حَرَص كثير من الدول في هذا العصر الحالي على ألا يمارس أحد مهنة إلا بترخيص من نقابة المهنة، ويُجَرم العمل في مهنة ما بدون ترخيص في كثير مـــن الـــدول، وتتم مساءلة أصحاب المهن وفقا للمواثيق واللوائح التي تنظم العمل في كل منها.

ويعمل الناس في الحرف وفى المهن – على سواء- لكسب الـــرزق، ولعمـــران الأرض التـــي استخلف الجنس البشري في تعميرها. والسعي إلى كسب الرزق وسيلة كل أحد ليكتسب مالاً ينفقـــه على احتياجاته واحتياجات من يعول. وفى هذا المعنى جاء في التنزيل الحكيم:

- " **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْـــرٌ أَمَلًـــا** " الكهف: ٤٦
- " **وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا** " الإسراء: ٦

فالمال يسد حاجات ضرورية للبشر بدنية كانت أو معنوية، والقعود عن العمل لكسب المـــال إثـــم كبير. ولكن المكروه شرعاً هو التماهي في طلب المال وجعله غاية في ذاتـــه ولذاتـــه دون رعايـــة للطرق التي يكتسب بها من حيث الحل والحرمة، ومن حيث عوائد كسبه على الآخرين في المجتمع.

وتدل بعض الدراسات النفسية على أن شخصية بعض الناس يمكن أن يطلق عليها " أنها شخصية مالية تكاد تتماهى في المال لدرجة توشك أن تكون عبادة Money personality – ومثـل هـذه الشخصية تكون هُويتها المال دونما اعتبار لطرق كسبه أو أوجه إنفاقه. والتطرف في سيطرة المال على هذا الوجه الفاسد يدفع بعض الناس إلى الارتشاء والنصب والاحتيال والجشع والطمـع وعـدم الأمانة، والسرقة والمقامرة.

وفى هذا النوع من الشخصية جاءت آيات القرآن الكريم ومنها قوله تعالى:

- " **إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** " التغابن: ١٥
- " **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ** " الحديد: ٢٠
- " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ**" المنافقون: ٩
- " **وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ** " سبأ: ٣٧

والرسول (**e**) يقول:

" تَعِس عبدُ الدينار وعَبَدُ الدرهم وعَبَدُ الخَميصة ؛ إن أُعطِى رَضِيَ، وإن لم يُعْـطَ سَـخِط ؛ تعـس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش " [١].

{ الخميصة: ومنها المخمصة بمعنى المجاعة والمراد أن تسيطر على الشخص شهوة البطن. شيك: أصيب بشوكة. فلا انتقش: فلا أُنتزِعت منه الشوكة }

ومغزى الحديث الشريف هو أن عبادة المال وعبادة البطن ستحققا دعوة الرسول (**e**) عليهم بالتعاسة والانتكاس لمن يسلك هذا المسلك.

والعاملون في مختلف المهن بشر ؛ يتسمون- أحياناً – بسمات الرشـد، والتعقـل، ويميـزون الطيب من الخبيث من الأقوال والأفعال ويقعون – أيضا – في الإثم والضلال وحب المـال لذاتـه أحياناً أخرى. ولذا كان ضرورياً أن تلتزم مؤسسات التعليم، وخاصة التعليم الجامعي والعـالي فـي كليات ومعاهد مختلفة، بتضمين مناهج التعليم فيها قدراً كافياً من المعارف والأنشطة والممارسـات التي ترسِّخ فيمن ينتظمون فيها أخلاقيات المهن التي يعدون لها ومن الضروري أيضا أن تلتزم كـل

---

١ رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة

نقابة أو رابطة أو جمعية مهنية بتحديد الأخلاقيات التي ينبغي أن يلتزم بها المهنيون المنتسبون إلى النقابة في أداء أعمالهم، وذلك بإعداد **ميثاق** بتعاهد المهنيون يكون موجهاً لهم في ممارساتهم وفي تعاملهم مع من يقدمون لهم خدمات المهنة وفى إتقان الخدمة، وفقاً لآخر التطورات العلمية ووفقاً لشرعة الله في أداء أمانات العمل.

واعتماد المهن على المعارف العلمية المركبة المنسقة يجعلنا نتساءل: ما مفهوم " العلم " ؟ وما سمات العلماء ؟، وما الأخلاقيات التي يحث التصور الإسلامي على الأخذ بها في المهن ؛ فلنبدأ:

أولاً: أخلاقيات العلم والعلماء والمتعلمين

ماهية العلم وغاياته وتصنيفاته

العلم نظام تتسج فيه المعارف نسجاً منظماً Disciplined محكماً ييسر تدريسه وتعلمه وهو في التصور الإسلامي مصطلح شامل، ويشمل كل معرفة مركبة، ينتفع بها الناس في أوجه حياتهم المختلفة، وقد درج بعض الكتاب على تقسيم العلم إلى قسمين هما: أ – علوم الماهيات Know What التي تقتصر على ما يتصل بظواهر الطبيعة المختلفة وممثلة في الفيزياء والكيمياء والفلك والجيولوجيا، والبيولوجي، وعلم الاجتماع وعلوم اللغة – ونحوها. ب- وعلوم الكيفيات والفنيات Know How ومنها علوم الأداء كالطب والهندسة والتعليم. وأطلق على علوم هذين القسمين العلوم العقلية وكأن غيرها يمتنع إعمال العقل فيه!! وأهملت في هذه القسمة الضيزى صنف ثالث من العلوم هو علوم المآلات Know Where to ويقصد بها العلوم التي تتصل بالغايات النهائية التي يؤدى إليها التصنيفين الأولين للعلوم:

ما غاياتها ؟ وما هو المشروع وغير المشروع في استخدام مخرجات هذه العلوم فمثلاً:

في علم الفيزياء النووية، هل من أخلاق العلم الطاقة النووية في الحروب لتدمير الأرض وما عليها من بشر وحجر ؟ وفى الحديث عن حرية الأفراد وحمايتها: هل تشمل هذه الحرية الوصال الجنسي الذي حرمته الأديان ؟ وهل يتم هذا الوصال على النحو الذي تسلكه الحيوانات في الغابات أو الحظائر ؟ أم أنه محدود بشروط تحفظ كرامة الإنسانية وتكفل التكاثر، وتضمن حقوق الذرية الناشئة عنها.

ومثل هذه الحالات لها معايير وضوابط حددها الشرع الإسلامي، وجاءت في شأنها نصوص دينية أوحى بها خالق الناس وهو سبحانه – أعلم بمن خلق في نشأته ومسيرته في الحياة ومصيره النهائي. مثل هذه القضايا لا يتكفل بها العلم الطبيعي المحض الخالص وإنما تكفل بها علوم الشرع والأخلاقيات التي جاءت بها الأديان الكتابية، وخاتمها الدين الإسلامي الحنيف.

لقد دعا الإسلام إلى طلب العلم وإلى الانتفاع بثمراته. ولنتأمل سويا قول الحق تبارك وتعالى:

- " **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ** " آل عمران: ١٨
- " **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ** " الزمر: ٩
- " **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** " فاطر: ٢٨
- " **بَلْ هُوَ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** " العنكبوت: ٤٩
- " **فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ** " الأعراف: ٧
- " **وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا** " القصص: ٨٠
- " **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ** " العنكبوت ٤٣

وجاء في الأخبار عن رسول الله (e) " من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده " [١] وقوله (e) " العلماء ورثة الأنبياء " [٢] وقوله (e) " من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة " [٣]وقوله (e) " من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام فبينه وبين الأنبياء في الجنة درجة واحدة" [٤]

هذا، وقرر القرآن الكريم أن التعليم والإرشاد وتوجيه الناس فضيلة يجب أن يتحلى بها المؤمنون بالله، المؤدون لأمانة استخلافهم في عمران الأرض ؛ وهذا مأخوذ من قوله عز وجل " **وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** " التوبة: ١٢٢ ومغزى الآية الكريمة أن العلم ليس مطلوب لذاته وإنما هو مطلوب لإذاعته ونشره بالتعليم، والتدريب، والمدارسة، والتفقه فيه وكتمانه حرام قال تعالى: " **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ** " آل عمران: ١٨٧

والعلم لمن حازه شهادة يجب ألا تكتم، بل يجب أن تؤدى لمنفعة خاصة الناس وعامتهم " **وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آَثِمٌ قَلْبُهُ** " البقرة: ٢٨٣، وقد قال الرسول (e) في تعليم العلم " ما أتى الله عالما عِلما إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين " [٥] وجاء في الخبر أن الرسول (e) لما بعث معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن قال له " لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها " [٦]

---

١ متفق عليه، رواه الطبراني

٢ أخرجه أبو داوود والترمذي وابن ماجه

٣ أخرجه مسلم من حديث عن أبي هريرة

٤ أخرجه الدارمي وابن السني

٥ أخرجه أبو نعيم في فصل العالِم العفيف

٦ أخرجه أحمد

أخلاق العلماء

وفى التصور الإسلامي لأخلاق العلماء كثيرٌ من المسميات التي ينبغي أن تبرز في سلوك العالِم ؛ ونقصد به في سياق الحديث عن الأخلاق كل من يتصدى لتعليم الناس وإرشادهم وتوجيههم. وقد قدمنا في الفقرة السابقة صفات للعلم. ونريد هنا أن نحدد بعض ما ينبغي تضمينه في ميثاق أخلاقي للمشتغلين بمهنة التعليم في كل مراحله وأنواعه ومستوياته، ونوجزها هنا فيما يلي:

التثبت من صدق ما يوجهه إلى المتعلمين من حقائق وتحري الحق والصواب من القول ومن الفعل، وألا يستهين بعقول من يتعامل معهم صغاراً كانوا أو كباراً فذلك أدعى إلى تقبله، وإلى ثقة المتلقين منه فيما يقول، وما أروع وأحكم ما قال الجاحظ (١٥٠-٢٥٥ هـ) في دعاء لمن كانوا يعيبون كتابته، إذ قال في مقدمة كتاب الحيوان:

جَنَّبَك اللّهُ الشُّبْهةَ، وَعصَمَك من الحَيرة، وجَعَلَ بينك وبين المعرفة نسباً، وبين الصدق سَبَباً، وحبَّب إليك التثبُّت، وزيَّن في عينك الإنصاف،..... وأودَعَ صدرَك بَرْدَ اليقين وطرد عنك ذلَّ اليأس، وعرَّفك ما في الباطل من الذلَّة، وما في الجهل من القِلَّة. [١]

ويتمثل الصدق - أيضا- في أن يقدم العالم للمتعلم ما هو ثابت بمعيار الواقع المعترف به في مؤسسات ومراكز البحوث العلمية والفقهية، وألا يقدم فكراً عفَّا عليه البحث العلمي في مجاله، وأن يلتزم في الموضوعات التي يدرسها للطلاب بأن تكون مشروعة في عقيدة المتعلمين الدينية، وملائمة لأعراف وتقاليد المجتمع الذي ينتمون إليه.

علاقة المعلم بالمتعلمين

ينبغي أن تكون علاقة المعلم بمن يعلمهم مماثلة لعلاقته بأبنائه ؛ فقد قدمنا قبلاً قول الرسول (**e**) " العلماء ورثة الأنبياء " ورسول الإسلام هو الأسوة الحسنة التي يقتدي بها المؤمنون في تعاملاتهم، والله سبحانه وتعالى يقول عنه: " **النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ** " الأحزاب: ٦، والمؤمنون – بعامة مطالبون بالتراحم والتواد فيما بينهم " **وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ** " البلد: ١٧ وقد روى أبو هريرة عن الرسول (**e**) قوله: " إنما أنا لكم مثل الوالد لولده " [٢].

---

١ الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر (١٩٦٩) الحيوان. تحقيق عبد السلام هارون، بيروت بلبنان: دار إحياء التراث العربي، الجزء الأول: ص ٣

٢ أخرجه أبو داوود والنسائي وابن ماجه وابن حيان

وما قدمنا لا ينفي أن يزجر المُعلِّم الطالب إذا أساء في القول أو العمل، وأن يكون زجر المعلم له بطريق التعويض بقدر ما في وسعه، وليس بالتقريع والتوبيخ الذي من شأنه أن يشعر المتعلم بالنقص والدونية.

التواضع

المعلم في نظر من يعلمهم قدوة، يتأسَّون به، ويقلدونه – بوعي أو بغير وعي – في توجهاته الفكرية ونزعاته السلوكية ؛ ولذا فإن المعلم يجب أن يتجافى عن الكبر والتباهي والاستكبار والاستعلاء بما حاز من معرفة أو مهارة عقلية أو اجتماعية أو بدنية، وأن يكون صادقاً حقاً ؛ لا يكذِّب فعله قولَه، التزاماً بقوله تبارك وتعالى: " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ** " الصف:٢، ٣ والاستعلاء على الناس – بعامة – بالعلم أو بالنسب أو بالمال من المنكرات في التصور الإسلامي ؛ قال تعالى:
" **تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** " القصص: ٨٣ والاستعلاء بالعلم أمارة الجهل بحقيقة أن العلم نامٍ ومتطورٍ دائماً وكثيراً ما ينقض جديدُه قديمه، **والله سبحانه وتعالى يقول:" وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** " يوسف:٧٦ وقد روي عن الرسول **(e)** قوله " لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء، وتماروا به السفهاء، ولتعرفوا به وجوه الناس إليكم، فمن فعل ذلك فهو في النار [١]

٤ - العفة والنزاهة

ومن السمات التي تزين العلماء أن يتنزهوا عن استغلال مكانتهم لاكتساب أموال فوق رواتبهم التي تخصصها لهم المؤسسات التي يعملون فيها، وعليهم أن يحرصوا على مطالبة المؤسسات بأجور أعمالهم التي تكافئ ما يبذل فيها من جهود، وذلك دون الانزلاق إلى مأثم الدروس الخصوصية في مراحل التعليم المختلفة التي يتحمل أولياء أمور الطلاب الأعباء المادية الكبيرة.

ولا يجوز للعالم والمعلم أن يقبل هدايا عينية أو معنوية ممن يعلمهم، ولا أن يقرب إليه بوسائل مختلفة – أبناء الأغنياء منهم، دون أبناء الفقراء ؛ بل عليه أن يتحرى العدل والقسط في سلوكه تجاه من يعلمهم. قال الإمام أبو حامد الغزالي في هذا الشأن " واعلم أن مثل العالم مثل القاضي، وقد قال

---

١ أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد صحيح

(e) " القضاة ثلاثة: قاضٍ قضى بالحق وهو يعلم فذلك في الجنة، وقاضٍ قضى بالجور وهو يعلم أو لا يعلم فهو في النار، وقاضٍ قضى بغير ما أمر الله به فهو في النار " [١]

أخلاقيات المتعلمين

هذا، وقد أولى التصور الإسلامي لحقوق المتعلمين عناية مماثلة لحقوق العلماء بوصف أن المتعلم إنسان كرمه الله، واستعمره في الأرض، واستخلفه في أداء أمانة العمران ولن يستطيع الإنسان - الجنس - أداء هذه الأمانات إلا بتزكية نفوس المتعلمين، وتنمية قابلياتهم البدنية والعقلية والاجتماعية والجمالية.

وتحقيق هذه الغايات العليا لا يتوقع حدوثه إلا إذا كان الجو العام الذي يكتنف مؤسسات التعليم والتدريب وسائر مؤسسات الخدمات ملتزماً بالوفاء بالحقوق الأساسية لمن ينتظمون فيها مثل: حرية التفكير والتعبير، والمساواة في الحقوق والواجبات المتبادلة في المؤسسة، وأن تكون الثقافة السائدة في مؤسسة التعليم متسمة بالسمات الجوهرية في التصور الإسلامي: العدل والإنصاف والتراحم والتكافل والتعاون، والاحترام المتبادل، وإتقان العمل في حينه المناسب.

وأحسب أني لست في حاجة إلى إيراد النصوص القرآنية والأحاديث النبوية قطعية الثبوت قطعية الدلالة في هذا الشأن، فكل ما قدمت من النصوص ذات الصلة بحقوق الإنسان قِبل سلطات الحكم في فصل أخلاقيات الدولة تستحضر في الحديث عن حقوق المتعلمين في مثل:

١- ألا تصادر المؤسسة أو أي من العاملين فيها حق المتعلمين في قاعة الدرس وخارجها في التعبير عن آرائهم وأفكارهم، وأن تكون هذه الآراء موضع اعتبار من المعلم، ولو كانت خاطئة، والمفروض أن تتخذ مثل هذه الأفكار الخاطئة وسيلة لتعلم ما هو أصوب وأحق أن يعمل عن طريق المجادلة بالحسنى.
٢- حق المتعلمين في تكوين جماعات النشاط الرياضي والثقافي والسياسي والترفيهي دونما إعاقة لوظيفة المؤسسة في التعليم، وأن تعاون المؤسسة الطلاب في تنظيم هذه الجماعات بتحديد الأماكن والأوقات المناسبة لمزاولة أنشطة كل جماعة، وتترك شئون الجماعة للطلاب ؛ ولمستشار الجماعة من أعضاء هيئة التدريس بالمؤسسة، وأن تتخذ هذه الجماعات مجالا لتعليم الطلاب أن الحقوق دائماً يجب أن تستوفى ويقابلها واجبات ينبغي أن تؤدى، وأن

---

١ أخرجه أصحاب السنن من حديث بريده وهو صحيح (راجع هامش لزين الدين العراقي (٨٠٦ هـ) في تخريج ما في الإحياء من الأخبار. إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، المجلد الأول بيروت: دار الكتب العلمية.

الحرية ليست مطلقة، وإنما تقيدها المنفعة العامة، وعدم إلحاق الضرر بالآخرين، وتأكيد أن التعسف في استيفاء الحق يؤدي إلى إلحاق الضرر بالآخرين.

٣- من حق المتعلمين أن تتم تربيتهم اجتماعيا وسياسيا في المؤسسات التعليمية، وذلك عن طريق انتظام الطلاب في " أسر مدرسية أو جامعية " يتدربون فيها على أصول " الحكم الذاتي " في المؤسسة وقواعد تنظيم العمل الديمقراطي، وآداب الحوار، والترشيح لعضوية الأسرة ولجانها المختلفة وقواعد الانتخابات.

٤- من حق المتعلمين في أية مؤسسة تعليمية أن تتاح لهم فرص النماء العقلي، والتأهيل الاجتماعي ؛ وذلك عن طريق التساؤل، والنقد البنَّاء، ومعرفة وقائع الحياة وأحداثها، وتطورات كل منها في المجتمع الذي يعيشون فيه، وفى مناقشة ما هو ماثل فيه من مشكلات، وما يواجهه من تحديات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية. وفى هذا المجال يجب العدول في التعليم عن طريق التلقين، واللجوء إلى استنفار القبليات العرفانية للمتعلمين، وربط التعليم بالواقع المعيش، وتحليله ومعرفة ما فيه من سلبيات للتغلب عليها، وما فيه من إيجابيات يجب دعمها وتمكينها وعلى المعلمين أن يستيقنوا أن التعلم عملية ذاتية ؛ ولذا يجب ألا يبادر المعلم بإبداء رأيه في الأمور التي يعرضها على طلابه، وأن يستثير فيهم – دائماً – القدرة على الاستنتاج والاستنباط والتحليل، وربط المسببات بأسبابها.

٥- واجب على المتعلم أن يوقر معلمه – وإن كان أصغر منه سناً – ولا يجوز له أن يتبسط معه في الحديث؛ فالمعلم يستحق التقدير والتوقير، دون نظر إلى عمره أو ماله، وفى ذلك يقول الإمام على بن أبى طالب (رضي الله عنه) " لا يعرف فضل أهل العلم إلا أهل الفضل" وقال احد الشعراء:

إن المعلم والطبيب كليهما لا ينصحان إذا هما لم يكرما
فاصبر لدائِك إن أهنت طبيبه واصبر لجهلك إن جفوتَ مُعلِّما

ولا أريد أن أستطرد كثيراً فيما يخص أخلاقيات مهنة التعليم ؛ فأنا واحد من الذين يعملون فيها، ولدي كثير مما يقال عن هذا الموضوع، ولكن أخلاقيات المهنة يجب أن يتوافق عليها جمهرة أعضاء المهنة ممثلة في نقاباتهم وروابطهم وجمعياتهم واتحاداتهم – الوطنية والإقليمية.

وسوف أحيل القارئ في هذا الشأن إلى مثال مكثف في تعبيراته، شامل في مضامينه لأخلاقيات المعلم والمتعلم، وهو جهد فيما أرى جدير بالقراءة المتأنية (انظر الملحق رقم (١)) في هذا الكتاب الذي صدر عن المؤتمر العام لمكتب التربية العربي لدول الخليج عام ١٩٨٥ م

أخلاقيات مهنة الطب

الطب مهنة من أقدم المهن في الثقافات المختلفة، وهي أكثر المهن تطوراً ؛ نتيجة للتقدم العلمي والتقدم التقني المتسارعين في عصرنا الحالي ؛ وللتقدم في تقنيات التواصل بطريقة متسارعة.

واقترن في الثقافة العربية وصفُ الطبيب بأنه " الحكيم " الذي يقول الحق، ويفترض فيه من خلال مهنته أن يفعل الخير للناس جميعا ؛ دون تمييز تبعا للعمر أو اللون، أو العقيدة الدينية، أو المكانة الاجتماعية أو القدرة المالية للمريض أو لذويه وأن يكتفي في أجره بما يتقاضاه من الفرد أو من السلطة الحاكمة أجراً مناسباً لعمله من المؤسسة التي ينتمي إليها أو بالقدر المناسب من الأجر الذي يدفعه من يُعالجون على نفقاتهم الخاصة وقبل أن أشير إلى بعض أخلاقيات مهنة الطب في الإسلام لابد لنا أن نؤكد أن الأخلاق في التصور الإسلامي في عمومها تتسم **بالايجابية،** إذ إن الإسلام لم يقتصر في نصوص القرآن الكريم وفى الأحاديث النبوية الشريفة على النهي عن الأخلاق الذميمة: كالنهي عن قتل النفس وشرب الخمر، وعن الربا والكذب والسرقة ونحوها، وإنما دعا إلى أداء الأمانة في مفهومها الواسع الشامل، وإتقان العمل وفعل المعروف ؛ ذلك أن مجرد النهى عن الأخلاق الذميمة خطاب سلبي ضعيف الأثر، وقد يؤدي الاقتصار عليه إلى الفعل المناقض لما نُهِى عنه، ومجرد الوعظ الشفاهي لا فعالية فيه ولا حركة ؛ فقد يتحقق من خلاله تجنب أذى الآخرين (مثلاً) ولكنه لا يعنى أن المخاطبين بمثل هذا الوعظ قد يأتون الأعمال الفاضلة التي يدعو إليها التصور الإسلامي.

وفي عبارة أخرى أقول: إنها أخلاق عملية تمت الدعوة إليها لتمارس، وتطبق في واقع الحياة المعيشة ؛ حقاً إن بعضها قد يكون مثاليا وغير ملزم، ولكن فعله أمر محمود ؛ كإيثار الآخرين بالطعام قال تعالى:

- " **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا** " الإنسان: ٨
- " **وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** " الحشر: ٩
- " **وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ**"البقرة:١٧٧

وملحوظ في الآيتين الأولى والثانية التعبير بالفعل المضارع " يطعمون، ويؤثرون " والصيغة تدل على الفعل المتكرر، وفى الآية الثالثة كان العبير بالفعل الماضي " آتى " ودلالة الإنجاز العملي للفعل.

هذا، والأخلاق في التصور الإسلامي أخلاق شاملة تُطلب في السر و في العلن فالجهر بالصدقات المفروضة محبوب ؛ ليشيع المعروف بين الناس.

وفى الصدقات الطوعية يستحب السر حفاظاً على كرامة من قدمت إليهم الصدقة غير المفروضـــة. وهى أخلاق مطلوبة في مجالات عدة: في الأسرة، وفى مواقع العمل، وفى معاملة ذوي القربى وفى التعامل مع الأجانب وفى معاملة الناس جميعا وفى ذلك قال الرسول (e) " اتق الله حيثمـــا كنـــت، واتبع السيئة الحسنة تمحُها، وخالق الناس بخلق حسن " [١].

وأعود إلى الإشارة إلى بعض أخلاقيات مهنة الطب، ولا أدعي لما سأقول أنه حصرٌ للأخلاقيات في هذه المهنة فهذا ليس في طاقتي، وليس واحدة من غايات هذا الكتاب، وإنما هو تذكرة، والذكرى تنفع المؤمنين فأقول:

١- ينبغي أن يكون الطبيب في كل مراحل إعداده وتقديم خدمات مهنته ؛ طالب علم لا يتوقــف عن السعي الدءوب لكسب المعرفة، واكتساب المهارة في مجال الطب بعامة، وفى مجـــال تخصصه بخاصة، وأن يوظف علمه ومهارته في خدمة المرضى فالرسول (e) استعاذ من العلم الذي لا ينفع قال (e)"اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومــن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها " [٢] وملحوظ في هذا الحــديث النبــوي اقتــران المعرفة والمهارة بوجدان الطبيب وإيمانه بأن عمله جزءٌ من العبادة والخشــوع لأمــر الله العلي العظيم، كما اقترن بألا يكون هدف الطبيب هو جمع المال (نفس لا تشبع) ومغــزى ذلك عدم المبالغة في أجر العلاج الجراحي أو العلاج بالأدوية

٢- أن يتسم بالتواضع ؛ امتثالاً لقوله تعالى "**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًـــا** " الإســـراء: ٨٥ وقوله "**نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** " يوسف: ٧٦

٣- أن يكون الطبيب قدوة لمرضاه ولغيرهم من الناس ؛ وأن يكون نصائحه الطبيــة لمرضـــاه متسقة مع سلوكه ؛ فلا يجوز (مثلاً) أن ينهى الطبيب مريضاً عن التدخين وهــو يــدخن، وليتذكر قول الله "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّـــهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ** " الصف: ٣ وقوله تعالى: "**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَـــوْنَ أَنْفُسَـــكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** " البقرة: ٤٤

٤- أن يسوى في التعامل بين المرضى سواء في معاينة حالاتهم والاهتمام بها دونما تفرقة تبعاً للجنس أو العرق أو المكانة الاجتماعية أو القدرة المالية أو المعتقد الديني. وأن يتذكر دائماً أن مهنة الطب مهنة إنسانية خالصة ؛ توجب على من يشتغل بها أن يكـــون مخلصـــاً فـــي

---

١ رواه الترمذي وأحمد والدارمي

٢ رواه مسلم وأحمد والنسائي

عمله، وصادقاً مع نفسه ومع مرضاه، وعليه ألا ينسى أن رسالة مهنته لا تؤدَّى على الوجه الأكمل إلا إذا ثابرَ على التمسك بالفضائل والقيم الإنسانية، وصبر على مرضاه الذين يختلفون في مستويات وعيهم، وأن يوقن أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

٥- لا يجوز للطبيب أن يعمل على أساس أن مهنة الطب غايتها المثلى هي جمع المال، وأن يتذكر دائماً **القَسَم** الذي توافق عليه الأطباء في نقابتهم، ونصه في نقابة الأطباء المصرية ما يلي: " اقسم بالله العظيم أن أراقب الله في مهنتي، وأن أصون حياة الإنسان في كافة أدوارها في كل الظروف والأحوال باذلاً وسعى في استنقاذها من الهلاك والمرض والألم والقلق، وأن أحفظ للناس كرامتهم واستر عورتهم واكتم سرهم، وان أكون على الدوام من وسائل رحمة الله باذلاً رعايتي الطبية للقريب والبعيد، للصالح والخاطئ والصديق والعدو، وان أثابر على طلب العلم أسخره لنفع الإنسان لا لآذاه، وان أوقر من علمني واعلم من يصغرني، وأكون أخا لكل زميل في المهنة الطبية متعاونين على البر والتقوى، وان تكون حياتي مصداق إيماني في سرى وعلانيتي نقية مما يشينها تجاه الله ورسله والمؤمنين، والله على ما أقول شهيد." [١]

وجدير بالذكر، والتنويه بفضل المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية في دولة الكويت ؛ حيث أصدرت سِفراً عظيماً بعنوان " الميثاق الإسلامي العالمي للأخلاقيات الطبية والصحية عام ٢٠٠٥ م [٢] ورصدت فيه نتائج التوصيات التي صدرت عن عدة ندوات في البلاد العربية حول التصور الإسلامي لأخلاقيات الطب والصحة، ثم عقدت لذات الموضوع مؤتمراً عاماً عقد في الكويت في الفترة من ١١ – ١٤ – ديسمبر ٢٠٠٤ م.

شارك فيه عدد كبير من الأطباء المرموقين في بعض البلاد الأجنبية، وفي بعض الدول العربية بلغ عددهم ٢١٥ مئتين وخمس عشرة متخصصاً ؛ منهم وزراء للصحة العرب وأساتذة الطب في

---

١ لمن شاء التوسع في أخلاقيات مهنة الطب أن يرجع إلى المراجع الآتية:
- الملحق رقم (٢) في هذا الكتاب، ص ص
- مجدي محمد شريف (بدون تاريخ) آداب وأخلاقيات الممارسة الطبية والقوانين المنظمة، القاهرة. (المؤلف أستاذ قسم الطب الشرعي والسموم الإكلينيكية بكلية الطب جامعة الأزهر في القاهرة)

٢ عبد الرحمن العوضي (مشرفاً) وأحمد رجاء الجندي (محرراً): (٢٠٠٥)، الميثاق الإسلامي العالمي للأخلاقيات الطبية والصحية. الكويت: المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية والصحية. عدد صفحات الكتاب ٥٤٩ صفحة.

المدخل للإنترنت: http://wwwislamest.com

الجامعات العربية، ومثلت فيه منظمات عالمية وأوروبية وأمريكية وعربية بلغ عددها أربعة وستين:جمعية، واتحاد، ووزارة، وجامعة، وفقهاء في الدين الإسلامي.

ويشمل الميثاق ثلاثة أجزاء عُني فيها بما يلي:

- الجزء الأول: يشمل السلوكيات والواجبات والحقوق التي يجب أن يلتزم بها الطبيب في علاقته بزملائه، وبالمرضى وبالمجتمع، وواجباته أثناء السلم والحرب.
- الجزء الثاني: عرض عام لأخلاقيات البحث العلمي الذي يجري على الإنسان، وهو موضوع أثار جدلاً كبيراً منذ عقدين من الزمان تقريباً مثل:

التطوع بنقل عضو من سليم إلى مريض يحتاجه، واستخدام الأطفال والأجنة أو المعوقين من الأطفال في تجارب، وتمَّ وضع كل هذا في إطار الشريعة الإسلامية لاستنباط الأحكام المتعلقة لكل حالة على حدة.

- ويتضمن الجزء الثالث المستحدثات في مجال الطب في الساحة العالمية مثل أطفال الأنابيب، وزراعة الأعضاء، والقتل الرحيم،ورفع أجهزة العلاج عن المريض الميؤوس من شفائه، والهندسة الوراثية، والخريطة الجينية. وقد عولجت كل حالة على حدة من منظور إسلامي.
- ومما يحمد للمنظمة الإسلامية للعلوم الطبية في الكويت عنايتها بترجمة الميثاق إلى اللغة الإنجليزية، وأتاحت الاطلاع عليه عن طريق الانترنت.

مهنة القضاء

القضاء في كل أمة أعز مقدساتها ؛ فهو الحصن الحصين للمواطنين جميعاً، حكاماً كانوا أو محكومين، في حاضرهم ومستقبلهم ؛ يصون حرياتهم، ويلجأ إليه المظلومون.ونزاهته قوة للمستضعَفين ؛ ولذا كانت الدعوات الصارخة في كل الأمم إلى تمتين استقلاله الكامل عن السلطتين: التشريعية والتنفيذية وإلى العناية بتأهيل القضاة في كليات ومعاهد إعدادهم، ومتابعة تصعيد كفايتهم المهنية في أثناء الخدمة، وإلى تحصينهم بالضمانات الكاملة التي تحميهم من السلطة الحاكمة بما لديها من سيف المعز وذهبه ؛ سعياً إلى تأكيد الثقة فيهم، ومن المقولات المشهرة في الثقافة العربية " العدل أساس الملك " – والملك كله لله – فالعدل إذن أساس الحكم ؛ فبدونه تنهار أسس الحياة في أي مجتمع ينشد العدل والحرية والإنصاف والقسط والمساواة بين الناس جميعا دونما تفرقة أو تحيز أياً كان سببه، وذلك هو ما يدعو إليه التصور الإسلامي، ولنقرأ سوياً قول الله عز وجل:

- " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ "المائدة: ٨
- " فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ " الشورى: ١٥
- " وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى " الأنعام: ١٥٢
- " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " النحل: ٩٠
- " وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ " النساء: ٥٨
- " فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا " الحجرات: ٩
- " وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ " الأنعام: ١١٥

وقد انتبه قضاة مصر الأجلاء إلى ما يعاني منه التقاضي، فعلى الرغم من تفرغ القضاة لفرائض العدل، والصبر على مقتضياته تكاثرت مشكلاته ؛ من حيث: استكمال استقلاله، و إزالة معوقات حسن سير العدالة، وتضاعف عدد القضايا والطعون، فقد ناهز عدد الطعون المدنية وحدها المتراكم أمام محكمة النقض ١١٠٠٠ طعناً عام ١٩٨٦م. [١]

وأوجز القول في أخلاقيات مهنة القضاء بأن أذكر أن في مصر قانوناً للسلطة القضائية ؛ برقم ١٩ لعام ١٩٧٢ م تدور حوله الآن مناقشات ومجادلات قوية، بهدف تعديل أحكام القانون الحالي ؛ بدليل أن رئيس مجلس القضاء الأعلى المستشار حسام الغرياني شكل لجنة برئاسة المستشار أحمد مكي للنظر في التعديلات التي تقترحها هيئة القضاء والمعنيون بأمر القضاء من أبناء الأمة في المجالات المختلفة، وحدث بعد ذلك أن شكَّل نادي قضاة مصر لجنة أخرى لنفس الغرض. وسوف يتم عرض الرؤية النهائية للجنتين على الجمعية العمومية لمجلس القضاء الأعلى.

ويأتي في صدر التعديلات المقترحة ما يلي: [٢]

---

١ انظر المرحوم المستشار يحي الرفاعي (١٩٩٠) في ملحق الكتاب الذهبي للمحاكم الأهلية: ١٨٨٣ – ١٩٣٣ في كلمة افتتاح المؤتمر الأول للعدالة في مصر الذي عُقد في أبريل ١٩٨٦: القاهرة، نادي القضاة،الطبعة الثانية، ص ١١

٢ اعتمدت في إيراد هذه التعديلات المقترحة على مصدرين:

أ – حوار تليفزيوني مع المستشار أحمد مكي مع الأستاذ يسري فوده على قناة On T V

ب- ما نشر في صحيفة الأهرام القاهرية بتاريخ ٦ سبتمبر ٢٠١١ م ص ٣ تحت عنوان " عرض مشروع السلطة القضائية على الجمعية العمومية للقضاة "

١- إلغاء سلطة وزير العدل في تعيين رؤساء المحاكم، وجعل هذا التعيين من صلاحيات قضاة كل محكمة من خلال الاقتراع السري بينهم. وحظر تفويض رؤساء المحاكم في تنظيم مجريات العمل داخل المحكمة، وجعله من صلاحيات الجمعية العمومية لقضاة كل محكمة.

٢- حظر جواز ندب القضاة للعمل في غير الأعمال القضائية ؛ بهدف عدم إغرائهم بأية مطامع مالية أو سلطوية ؛ كأن يكون القاضي مستشاراً لوزارة، أو لشركة من الشركات، أو عضواً في مجلس إدارة أي من المصارف أو الشركات أو عضواً في مجلس الشعب أو مجلس الشورى بعد انتهاء خدمته في القضاء.

٣- حظر تعيين القضاة الحاليين في مناصب تنفيذية ؛ كأن يكونوا وزراء أو محافظين أو مدراء لشركات.

٤- حظر تعيين القضاة بعد انتهاء مدة خدماتهم للقضاء في مناصب عليا كأن يكون القاضي وزيراً أو محافظاً أو عضواً في مجلس إدارة إحدى الشركات إلا بعد مرور ثلاث سنوات من انتهاء الخدمة.

٥- توسيع اختصاصات مجلس القضاء الأعلى، ليشمل الدفاع عن حق المواطنين جميعا في التقاضي أمام القاضي الطبيعي، وليس أمام محاكمات استثنائية أو عسكرية.

٦- إلزام مجلس القضاء الأعلى بأن يصدر تقريراً سنوياً عما تواجهه العدالة في مصر من معوقات أو مشكلات على أن يوجه هذا التقرير إلى: الأمة، ومجلس الشعب، والمجلس القومي لحقوق الإنسان، ووزير العدل، ووزير الداخلية.

٧- إلغاء تبعية " التفتيش القضائي " لوزير العدل، وجعلها من صلاحيات مجلس القضاء الأعلى.

٨- الالتزام بألا ينتدب القضاة لأعمال قانونية خارج منصة القضاة خارج البلاد أو داخلها أكثر من مرة واحدة بحد أقصى أربع سنوات.

٩- أن يخضع اختيار النائب العام للأقدمية المطلقة، ولاقتراع مجلس القضاء الأعلى، مع تحديد فترة زمنية لشغل هذا المنصب أقصاها أربع سنوات.

هذا، وملحوظ في هذه التعديلات المقترحة أنها تستهدف بالدرجة الأولى ؛ مصلحة جماهير الأمة التي يصدر القضاء أحكامه باسمها، وكفالة ترسيخ حقوق: العدل والإنصاف والمساواة لكل المواطنين، وجعل القضاء سيد نفسه، وسد كل الذرائع التي من خلالها تتحيف السلطتان التنفيذية والتشريعية على السلطة القضائية أو تغريها بوسائل مختلفة.

أخلاقيات المهنة في التجارة والمؤسسات المالية، والمحاسبة

من أمهات القيم في هذه المهن جميعا ما يلي:

الكفاءة والأمانة

ينبغي أن يكون العامل في أي من هذه المهن مؤهلاً للأعمال التي تتطلبها المهنة ويستوي في هذه الكفاءة ما هو مهني، وما هو شخصي إعمالاً لقوله تعالى: " **إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ** " القصص: ٣٦

والكفاءة في المهنة تتطلب الإعداد في الكليات والمعاهد المخصصة لها، ومتابعة النمو فيها عن طريق التدريب في أثناء الخدمة، والمشاركة في الندوات وورش العمل الخاصة بالمهنة، كما تقتضي أن يكون الفرد أميناً ؛ لا يَقْفُ ما ليسَ له بع عِلمٌ أو خبرة سابقة، وأن يؤدي عمله بأقصى ما في وسعه من دقة وإتقان.

الصدق

ومعناه هنا أن يكون المرء صادقاً فيما يتداوله في عمله ؛ غير هيَّاب أن يقول ويفعل ما هو حق، وأن يعزف عما هو باطل وزور ؛ لقوله تعالى: " **وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ** " الحج: ٣٠ وقوله جل شانه " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** " التوبة: ١١٩.

إن الصدق – حقاً – مطلوب من كل مسلم في كل حال وفى كل حين، ولكنه أوجب وأحق في المؤسسات التجارية والمصارف والمحاسبة، لما في الكذب من أخطار داهمة، للأفراد والفئات والمجتمع كله. وفى هذا الصدد قال الرسول (e) في حديث متفق عليه " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قالوا: بلى يا رسول الله، قال: " الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت " [١]

وروي عن صفوان بن سليم أنه قيل لرسول الله (e) أيكون المؤمن جباناً؟ فقال: نعم، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال: نعم، فقيل له: أيكون المؤمن كذَّاباً ؟ فقال:لا " [٢].

---

١ رواه البخاري في صحيحه

٢ رواه مالك في الموطأ وحسّنه

(٣) توازن الولاء بين المسئوليات الأخلاقية

يؤكد التصور الإسلامي للأخلاق على التوازن في أداء المسئوليات الأخلاقية ؛ فالعامل في مؤسسة تجارية أو مالية أو محاسبية مطالب بأن يحق الحق لصاحب الحق ؛ سواء أكان حق المؤسسة التي يعمل فيها الفرد أو حق المتعاملين معها ؛ إذ إن المساعدة في إيصال مال إلى من لا يستحقه منهيٌ عنها في قوله تعالى:"**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ**"النساء: ٢٩ والمعاون على الباطل كفاعله، يقول ابن حزم الأندلسي " حَدَّ العقل استعمال الطاعات والفضائل، وهذا الحد يتضمن اجتناب المعاصي وعدم اقتراف الزُلل في كل الأوقات والأحوال والمواقف [١] وهذا التوازن في المسئوليات الأخلاقية هو المراد من قوله عز وجل:"**وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**"النحل: ٩٣ وقوله جل شأنه" **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ**"الزخرف: ٤٤

وتحتل مهنة المحاسبة مكانة عالية وخطيرة، إذ إنها توفر معلومات مالية عن الشركات والمؤسسات الاقتصادية، يتوقف عليها حركة الاستثمارات والمؤسسات داخل الدولة خارجية كانت أو أجنبية ؛ ولذا فقد عنيت نقابة التجاريين في مصر (مثلاً) بتحديد القيم الأخلاقية التي ينبغي أن يلتزم بها المحاسب في مادتين من مواد دستور مهنة المحاسبة في مصر، وثلاث مواد لآداب المهنة وسلوكياتها فيما يلي:

١- يضمن مراقب الحسابات تقريرَه الحدودَ التي قد تفرض عليه - مما له صلة بأصول المهنة، وما تقتضيه قواعد المحاسبة والمراجعة، التي لم يشر إليها تقرير مجلس إدارة المؤسسة في الحسابات الختامية أو الميزانية العامة.

٢- يعتبر تقرير المحاسب مُخِلاً بالأمانة المهنية، ومضللاً:

أ – إذا لم يفصح عن الحقائق المادية التي تشهد الأوراق بصحتها، وإذا لم يذكر ما علمه من تزييف أو تحريف أو تمويه في إدارة المؤسسة.

ب- إذا أبدى رأياً لم يحصل على البيانات الكاملة المؤيدة لهذا الرأي.

ج- إذا تراخى أو تهاون هو أو أحد أعضاء فريق المحاسبة في اكتشاف خطأ أو غش وقع في الحسابات.

د- إذا اكتفى في تقريره بالإشارة لأشخاص قاموا بجرد أو تقديم بعض أصول المؤسسة، دون التحقق من كفايتهم بهذا العمل وأمانتهم في أدائه.

٣- يعتبر المحاسب والمراجع مُخِلاً بأخلاقيات وسلوك مهنة المحاسبة في الحالات التالية:

---

١ ابن حزم: (١٩٨١) الأخلاق والسِّير في مداواة النفوس، تحقيق الطاهر مكي، القاهرة: دار المعارف، ص ١٨٣

- إذا أشرك شخصاً غير مرخص له بمزاولة المهنة في مهمة إعداد التقرير وإخراجه.
- إذا مَنَح – بطريقة مباشرة أو غير مباشرة – سَمْسرة أو حصة من أتعابه لأفـراد نظير حصوله على عمليات. أكثر من أعمال المهنة.
- إذا حصل على عملية في المهنة عن طريق الدعاية وإرسال المنشـورات أو الخطابـات الخاصة، أو دَخَل في مناقصات على الأتعاب ونحو ذلك من الوسائل.
- إذا لجأ أو فاوض العملاء بطريق مباشر في الحصول على عمل يقوم به زميل آخر، وحين يطلب منه العمل مراقباً لحسابات منشأة بدلاً من زميل في المهنة و عليه أن يخطـر هـذا الزميل.
- إذا لم يراع في تقدير قيمة أتعابه أن تكون مناسبة للجهد والوقت وقيمة الأعمال التي يؤديها للمنشأة.
- إذا أفشى أسراراً مهنيه أو شخصية أو مالية علم بها عن طريق عمله بالمحاسبة.
- إذا لجأ إلى منافسة زميل له في المهنة عن طريق قبول أتعاب تقل عن أتعاب زميلـه دون سبب مقبول.

هذا، وفى دستور مهنة المحاسبة ما يتسق مع عدم جواز أن يبدأ عضو فـي النقابـة إجـراءات قضائية ضد زميل له قبل إذن كتابي من النقابة.

هذا وقد أعدَّ المعهد المصري للمحاسبين والمراجعين ميثاقاً لآداب وسلوكيات مهنة المحاسبة منذ فبراير ١٩٩٣ م حدد فيه المبادئ الأساسية التي يجب على المحاسبين أن يأخذوها في اعتبارهم، وأن يلتزموا بها في سلوكياتهم، منها:

(١) الالتزام بالأمانة في أداء العمل المهني.
(٢) التزام العدل دون تحيز أو تأثير يقع عليه من الآخرين.
(٣) أن يحفظ سرية المعلومات التي يحصل عليها.
(٤) أن يتذرع دائما بأخلاقيات السلوك المهني تجاه الزملاء والعملاء، وأصحاب الأعمال [1].

خلاصة القول

وأود أن أنهي هذا الفصل عن أخلاقيات المهن في التصور الإسلامي بكلمات قصار فأقول:

---

١ أحمد عبد الكريم سلامة وآخرون (٢٠٠٥) حقوق الإنسان وأخلاقيات المهنة، القاهرة: جهاز نشر وتوزيع الكتاب الجامعي. ص ص ٢٣١ – ٢٤٠

إنه لا يراد من مواثيق المهنة التي يتوافق عليها المهنيون في مختلف تخصصـــاتهم أن تكـــون مجرد تسجيل لآداب السلوك في كل مهنة ؛ إبراء للذمة ثم تطوى في الملفات، وإنما هي عهد يجـــب الوفاء به بين لأعضاء المهنة جميعاً، ومن هنا تكون متابعة أعضاء المهنة في كل موقـــع بعضـــهم بعضاً، وتواصيهم وتناصحهم بالاستمساك بأخلاقيات المهنة أموراً حتمية، يجب أن تسود كل مواقـــع العمل المهني في مستوياته المختلفة ؛ إنها أمانة يجب أن تؤدى، وأداؤها على أكمل وجه يبعث فـــي نفوس المهنيين والمتعاملين معهم الطمأنينة، ويزيد في عائدات المهنة على الأفراد أنفســـهم، وعلـــى أعضاء المهنة جميعا وهى مبعث تقوية لأواصر الثقة و المحبة بين جماهير الأمة وبين المهنيين وفى هذا الصدد جاءت نصوص قرآنية مجيدة منها قول الحق تبارك وتعالى:

- " **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** " المائدة: ٢
- " **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ** " آل عمران: ١٠٤
- " **الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَـــوْا عَـــنِ الْمُنْكَرِ** " الحج: ٤١.

الفصل الثامن

أخلاقيات علاقة الدولة المسلمة مع الآخر الديني

أخلاقيات علاقة الدولة المسلمة مع الآخر الديني

الأخوة في الإنسانية

يستند التصور الإسلامي للعلاقات على مُسلَّمة عقدية ؛ قوامها أن الناس جميعا في كل البقاع وفى سائر الأمصار إخوة في الإنسانية Humanism ؛ لأنهم خلقوا من أصل واحد كلهم لآدم، وآدم من تراب، وكل بنيه إلى تراب، وخطاب الإسلام موجه إلى الناس جميعا دونما تفرقة بينهم وفقا للمعتقد الديني أو للجنس أو للون أو للعرق أو للمكانة الاجتماعية أو للموقع الجغرافي الذي يعيشون فيه قال جلَّ وعزَّ:

- " **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ** " الأعراف: ١٧٢
- " **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ** " النساء: ٦

وهذا الأصل الإنساني سُنةٌ من سنن الله ؛ وثمة أصل آخر وهو ثابت في الحضارة الإسلامية منذ نشأة الدعوة إلى الإسلام، وهو أن خلْق الله من البشر يتمايزون ويتنوعون في انتماءاتهم الفرعية ؛ كالجنس والعِرق واللغة والقوميات، وأن الواحدية مقصورة على الله وحده، وهذا التنوع والاختلاف ماثل في كل عوالم المخلوقات: في الإنسان وفى الحيوان وفي النبات وفي الأفكار والمعتقدات. وهو سنة كونية لا يطرأ عليها تبديل ولا تحويل قال جل شأنه:

- " **فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا** " فاطر: ٤٣
- " **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** " البقرة: ٢١٣
- " **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**"الحجرات: ١٣
- " **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** " البقرة: ٢١٣

والآيات الكريمة السابقة تؤكد في وضوح أن هذا التنوع و التعدد والاختلاف ليس عبثاً – حاشا لله – وإنما المراد به أن يتسابق الناس جميعا في فعل الخيرات، التي دعا إليها الأنبياء والمرسلون " **وَلِكُلٍّ**

وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " البقرة: ١٤٨

تصديق الإسلام باليهودية والمسيحية

والإسلام ليس أول الديانات الرسالية، وإنما هو خاتمها، وسبقته الديانة اليهودية والديانة المسيحية. ولم ينكر الإسلام الحنيف اليهودية أو المسيحية، وذلك حيث يؤكد القرآن الكريم ما يلي:

- " **آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ** " البقرة: ٢٨٥
- " **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ** " آل عمران: ٢-٤

والإيمان الإسلامي لا يكتمل إلا إذا آمن المسلم بكل النبوات والرسالات السابقة على الإسلام اليهودية والمسيحية. والإسلام يقرر في كتابه المقدس أن التوراة هدى ونور " **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ** "المائدة: ٤٤وأن الإنجيل الذي نزله الله على عيسى عليه السلام - كذلك - هدى ونور " **وَآَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ** " المائدة: ٤٦ والقرآن الكريم يقول للرسول محمد **(e)** عن القرآن: " **فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**" البقرة: ٩٧ وأن القرآن ما أنزل إلا ليبين للناس ما اختلف فيه اليهود والمسيحيون عن المسلمين " **وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** " النحل: ٦٤

وأعتقد أنه افتراء كبير وجهل بيّن أن يقال: حيث إن الإسلام جاء بعد المسيحية واليهودية في مسرى التاريخ البشري ؛ لذا فإنه تطوير لما جاء في التوراة وفى الإنجيل، إن الإسلام ليس مكملاً للأديان السابقة عليه، وإنما هو مصدق بها ومهيمن عليها ؛ والتصديق يعني الإيمان اليقيني بأن اليهودية والمسيحية دينان رسوليان، ولا يكتمل إيمان المسلم إلا إذا آمن برسوليهما موسى عليه السلام و عيسى عليه السلام، وبالكتابين اللذين أنزلا على الرسولين الكريمين: التوراة والإنجيل.

والهيمنة تعني حفظ الديانتين، وصيانة حرية من آمنوا بهما في التعبد ؛ انطلاقاً من القاعدة التي أرساها الإسلام في قوله تعالى:

- " **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** " البقرة ٢٥٦
- " **فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** " الكهف: ٢٩
- " **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ** " البقرة: ١٣٤
- " **أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** " يونس: ٩٩

إن اتفاق الأديان الرسالية على معالجة بعض الموضوعات لا يعنى تطابق رؤية هـذه الأديـان أو تشابهها ؛ وإنما يعني فقط أن الموضوع الذي ينصب عليه الحكم واحد ؛ ووحدانية الموضوع لا تعني وحدة الأحكام، وفى التوجه العام لا تنفى التنوع والاختلاف داخل هذه الوحدة ؛ فالصيام كان معروفاً في الأديان السابقة على الإسلام، ولكن كنه الصيام وكيفياته، وغايته ووقته مختلفة في هذه الأديـان. وتحريم الربا كان في الأصل محرماً في اليهودية ولكنه حُرِّف من تحريم الاقتراض بالربا لكل الناس إلى تحريمه بالنسبة لليهود فقط؛ حيث فُسرت الأخوة التي جاءت في التوراة بأنها الأخوة في الـدين، وليست الأخوة الإنسانية.

وحدة الأديان الرسالية في التوجه فقط

وهكذا يمكن القول: إن الأديان الرسالية تمثل وحدة في الاتجاه ؛ جوهرها الإيمان بـالله الواحـد الأحد الذي لم يلد ولم يولد، وليس له كُفواً أحد. وقد أكد القرآن الكريم لرسوله (e) ولمـن تبعـه وآمن بالإسلام أن لكل دين شرعة ومنهاجا، وأن تنوع الأديان يمثل اختباراً وابتلاء للناس، وأنه ليس مطلوبا من أهل الأديان الرسالية أن يحسموا الاختلاف بين الأديان، فيحكم بعضهم على بعض بالكفر (مثلاً) فهذا ليس من صلاحياتهم، وإنما المرجع فيه إلى الله سبحانه وتعالى يوم الحسـاب، ولنتأمـل سوياً قول العزيز الحكيم في القرآن الكريم:

- **" وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** " المائدة: ٤٨

و مغزى هذه الآية الكريمة هو أن الإسلام " الدين " له خصوصيات وتطبيقات في الشريعة، وفى المعاملات وفى أخلاقيات التعامل، وفي شئون الحياة الدنيا، بوصف أن الدنيا مزرعة للآخرة، وأنها دار اختبار ؛ يتسابق الناس فيها في فعل الخيرات، والعزوف عن المنكـرات، والله يجـازيهم يـوم الحساب.

لكل دين شرعة ومنهاج

وأحسب أن قِيمة الاختلاف بين بعض الطوائف اليهودية والمسيحية في جانب، والإسلام فـي جانب آخر ممثلة في نصوص محكمة في القرآن الكريم في الآيات التالية:

- **" وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِـكَ قَـوْلُهُمْ بِـأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّـى يُؤْفَكُـونَ (٣٠) اتَّخَـذُوا أَحْبَـارَهُمْ**

وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ " التوبة: ٣٠، ٣١

- " **لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا** " النساء: ١٧٢، ١٧٣
- "**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**(٧٢) **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** "

  المائدة: ٧٢، ٧٣
- " **مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ** " المائدة: ٧٥

فلا يظنَّ أحد أن أية دولة إسلامية سوف تتوحد في عقيدتها أو تتحالف دينياً مع دولة أو دول أخرى تكون عقيدة أكثريتها ليست من ثوابت الدين الإسلامي فيما يخص أحدية الإلوهية. ويبقى الخيار الوحيد في علاقة الدولة المسلمة بالدول الأخرى هو الحوار والجدال بالتي هي أحسن في الأمور الدنيوية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تحفظ للمسلمين عقيدتهم ولغير المسلمين عقائدهم وثمة مساحة واسعة ومفردات كثيرة يمكن أن يشترك فيها المسلمون وغير المسلمين من الدول، وأن يتعاونوا عليها خدمة للإنسانية كلها في كافة الأعصار والأمصار.

والحوار يقتضي – منذ البداية – الندية في معرفة الحقائق الدينية الفارقة بين الأديان، واحترام تنوعها والاختلافات بينها، وأن تتوقف عمليات التبشير ومحاولات التهويد أو التنصير للمسلمين أو أسلمة غير المسلمين، سواء كانت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

كما يقتضي – أيضاً – أن تتوقف موجات " العولمة " و " الأمركة " والأوربة " التي سادت منذ العقد الأخير في القرن العشرين، وامتدت آثارها إلى القرن الحادي والعشرين، وتمت فيها محاولة تسييد الثقافة الغربية على ثقافات العالم الأخرى، واعتماد الدول الكبرى على مقولة الصراع بين الحضارات، وأن مَن ليس مِن ثقافتنا عدو لثقافتنا، وكتاب صمويل هنتنجتون في هذا الصدد مشهر ومعبَّر.

وينبغي ألا يخفي على ذوي العقول في الثقافة الغربية بخاصة الموروثات السياسية التي خلقها الاستعمار الغربي منذ نهاية القرن التاسع عشر وامتداداتها في القرن العشرين كله، وبدايات القرن الحالي من قهر وتسلط واستبداد ونهب لثروات الدول الإسلامية، ومحاولات طمس الهوية الثقافية والقومية واللغوية والاجتماعية والحضارية لكثير من البلاد الإسلامية.

ومن أسوأ شائنات علاقة الدول الإسلامية بأمريكا خاصة – جريمة إقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين السليبة، ومناصرتها في كل فعل وفى كل قول، وفى كل حين ولجوئها - أمريكا - إلى معايير مزدوجة غير أخلاقية في هذه العلاقات، وما حدث لدولة العراق المسلمة وما حدث ويحدث في الأرض الفلسطينية وعلى المستوى الدولي في مجلس الأمن وأجهزة الأمم المتحدة خير شاهد على توجهات أمريكا نحو الدول الإسلامية في منطقة الشرق الأوسط وغيرها وعلى فرية مناصرتها للديمقراطية.

وليس صحيحا على الإطلاق ما تردده بعض الكتابات في الغرب،وفى بعض الدول الإسلامية حول صعوبة تقبل المسلمين للديمقراطية،وعندي أن هذا إفك عظيم، وجهل عميم وذر للرماد في العيون حتى يتيسر للدول الكبرى تحقيق الديمقراطية – كما عرفها الغرب وكما هي مطبقة فيه، ولنتذكر أنه في عهد هتلر في ألمانيا كان يطلق مصطلح" الديمقراطية الاشتراكية"على الحكم في ألمانيا.

الإسلام والديمقراطية

إن المسلمين يسعون من خلال تطبيق ما شرعه الله فيما هو حلال وما هو حرام، وما هو واجب وما هو مستحب، وما هو مكروه. وقد دلت دراسة ميدانية رصينة أجراها المعتز بالله عبد الفتاح[١] حيث تجيب هذه الدراسة عن تساؤلات منها: ما الذي يعتقده المسلمون بشأن الديمقراطية كقيم ومؤسسات؟

هل معتقدات المسلمين تزيد من فرص، أو تنال من احتمالات التحول الديمقراطي في المجتمعات ذات الأغلبية المسلمة؟ إن تحليل المعتز بالله عبد الفتاح وفريقه في البحث لمعتقدات وتوجهات قطاع واسع من المسلمين في أكثر من ثلاثين دولة من دول العالم تعطينا تصوراً متماسكاً منطقياً بشأن كيف يفكر المسلمون بعيداً عن فخ التعميمات والأقوال المرسلة، ومدى رغبة المسلمين في تطبيق الديمقراطية من خلال الشريعة الإسلامية.

---

١ راجع إن شئت: المعتز بالله عبد الفتاح (٢٠٠٨)، المسلمون والديمقراطية، دراسة ميدانية، دار الشروق، القاهرة.

وإذا جاز لي في هذا المقام أن أذكر نتائج استطلاعات للرأي في مصر (مثلاً) التي عبر عنها الناس – مسلمون وغير مسلمين – فأقول: إن هذه الاستطلاعات تقول إن ٨٨% من المصريين يؤمنون بالديمقراطية، و ٩٧% يريدون أن تحكم بلادهم بدستور يكفل لجميع المواطنين الحق في التعبير عن آرائهم وأفكارهم، وأن ٧٥% يؤيدون النص في الدستور على أن يكون المواطنون أحراراً في اختيارهم لعقيدتهم الدينية، وممارساتهم لتعاليم دينهم ومعتقداته، وأن ٧٨% متسامحون – إن لم يكونوا مندمجين – مع الديانات الأخرى، وأن ٦٩% يرغبون في قصر دور القادة الدينيين في الحياة السياسية على دور الاستشارة، وأن الأغلبية العظمى بين المصريين الذين تم استطلاع آرائهم يؤمنون بالانتماء الإسلامي لمصر [١]

وواقع الحال اليوم في بعض البلاد الإسلامية في الشرق الأوسط وفى مصر – مثلاً – هو أن ثمة خلافاً جوهرياً حول المبادئ الدستورية التي يجب النص عليها في دستور البلاد. هذا الخلاف في جوهره خلاف سياسي، بين النخب السياسية: إسلامية كانت أو ليبرالية أو اشتراكية، وبين الشعب ؛ فالنخبة – بعامة – ترى أنها صاحبة الحق في وضع الدستور دون وصاية من أحد، والشعب يرى أن موافقة القوى السياسية على مثل هذه المبادئ لن تعطيها الشرعية ؛ وأنها تظل دائماً تعبيراً عن إرادة فوقية نخبوية غير ديمقراطية.

والشعب يرى أنه صاحب الحق الكامل في تقرير المبادئ التي تخص هوية الدولة بطريقة ديمقراطية؛ لا تفرض فيها النخبة رؤيتها بشكل غير ديمقراطي. هذا عن الشكل، أما عن مضامين المبادئ الدستورية المقترحة لوصف الدولة فإنها تؤكد انتماء مصر لمحيطها العربي، وانتماءها للإسلام ديناً رسمياً للدولة، واعتبار أنه المصدر الرئيسي لمبادئ التشريع وأن لغة الدولة الرسمية هي اللغة العربية.

وهذه المضامين ليست جديدة على مصر، وإنما كانت مضمنة في دساتير سابقة، وإن اختلفت درجة تفضيل هذه المضامين في واقع النظام السياسي المصري في العقود الخمسة الماضية ؛ تبعاً لإرادة ونوايا السلطة الحاكمة.

إن علاقة الدولة المسلمة بالدول الأخرى يجب أن تؤسس على الندية، وعلى الاعتراف المتبادل والمعاملة بالمثل ؛ فليس مقبولاً في الشرع الإنساني ولا في المنطق أن تنكر دول على المسلمين أن يكونوا مسلمين، وأن يحققوا هويَّتهم الإنسانية والدينية والثقافية والوطنية والقومية، وأن يكون للدول

---

١ إبراهيم الهضيبي (٢٠١١) الحوار لا فرض الوصاية مفتاح الدستور التوافقي، صحيفة الشروق القاهرية اليومية (٢٠١١/٩/١٠ م) ص ٧

الأخرى حق النصح، وتقديم المشورة إذا طلبت منهم، دون محاولات الاستتباع أو اللجوء إلى وسائل الترغيب والترهيب لتحقيق تبعية دولة مسلمة لدولة أخرى أياً كانت ؛ طمعاً في صوالح اقتصادية أو ثقافية أو سياسية للدولة المتبوعة.

وقد أشرت – قبلاً - إلى رصيد انعدام الثقة بين الدول المسلمة والدول الكبرى التي استعمرتها وأذلتها وأوقفت نموها في القرنين التاسع عشر والعشرين، ولا يزال بعضها مستغرقاً في عملية الاستتباع بوسائل سياسية ودبلوماسية وتقنية مستحدثة، وأضيف إلى مآسي الاستعمار القديم كلام صريح من سياسيين ومفكرين مرموقين في الدول الكبرى يوسع الفجوة بين الدول التي يؤمن معظم أهلها باليهودية، أو المسيحية وبين الدول الإسلامية. يقول عمارة في تلخيص هذه الفجوة الواسعة العميقة:

" قانون الإيمان لدى كل ملة غير الإسلام لا يكتمل إلا بإنكار كل الآخرين وتكفيرهم. والإيمان الإسلامي – وحده – هو الذي لا يكتمل إلا إذا آمن صاحبه بكل النبوات والرسالات وكتب وشرائع هذه النبوات والرسالات:

ولا يكتمل هذا الإيمان الإسلامي إلا إذا مكَّن المسلمون أهل تلك الشرائع والملل من إقامة عقائدهم المخالفة للإسلام، بل والتي تنكر الإسلام وتجحده... وليس في الآخر الديني من يعترف بالإسلام ديناً، وبنبي الإسلام رسولا، وبقرآن الإسلام وَحياً إلهياً ؛ وإنما يتفرد الإسلام بالاعتراف بالآخر حتى الذي يجحده وينكره "([1].

وسوف نقصر الحديث عن أخلاقيات الإسلام في التعامل مع الأغيار في الدين على اليهودية والمسيحية في تكثيف أرجو ألا يكون مُخلاً.

الإسلام واليهودية

يؤمن المسلمون بأن موسى رسول الله وكليمه" **وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا** " النساء: ٦٤ وأنه رسول اصطفاه الله وأرسله إلى بني إسرائيل:

- " **قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آَتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ** " الأعراف: ١٤٤
- " **قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا** " الأنعام: ٩١

---

١ عمارة، محمد (٢٠٠٤) الإسلام والآخر: من يعترف بمن ؟ ومن ينكر من ؟ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ص ص: ٢١: ٢٢

ملحوظ في الآية الأخيرة وصف القرآن للتوراة بأنها هدى للناس، وأن اليهود تعمدوا إبــداء أجــزاء وردت في التوراة وأخفوا كثيراً مما جاء فيها واستبدلوا بها قراطيس من لدنهم. وقد وضع رســول الإسلام (e) الصورة القرآنية عن الأغيار من اليهود موضع التطبيق في دستور الدولة الإســلامية الأولى في المدينة المنورة ؛ حيث قنن المساواة بينهم وبين المسلمين في حرية العقيدة لكــل مــنهم، وقرر فكرة التنوع الديني بين من ترعاهم الدولة الإسلامية، وساوى في ذلك بين أغلبية المــواطنين من المسلمين، وأقليتهم من اليهود، وجاء ذلك في وثيقة المدينة التي عرفت في المراجــع الإســلامية باسم " الصحيفة أو الكتاب ".

ولنقرأ سوياً ما جاء في هذه الوثيقة:

" ويهود أمة المؤمنين: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم... مواليهم و أنفسهم..وأن بطانة يهود كأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ (يفسد) إلا نفسه وأهل بيته.. ومن تبعنا من يهود فإن له العهد والأسوة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، غير مظلومين ولا مُتناصَر عليهم...ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.. على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهــل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم " [١]

كان ذلك عهداً بين المسلمين واليهود نص فيه على الحرية الدينية، وعلى تنوع الأديان في البلد الواحد، وعلى حقوق المواطنة في البلد الواحد دون تفرقة بسبب الاعتقاد الديني.

ولم يرع اليهود حرمة هذا العهد ولا الوفاء به ؛ وذلك ماثل في خياناتهم وسعيهم الدءوب ضــد جوهر الدين الإسلامي، وهو توحيد الإلوهية، حتى شهدوا – وهم أهل كتاب – بأن الشرك والوثنيــة أفضل من دعوة التوحيد التي جاء بها الإسلام خاتم الأديان الرسالية، وتجلت هذه الشــهادة فــي أن مشركي قريش سألوهم قائلين [٢]:

" يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه مع محمد، أفــديننا خيــر أم دينه ؟ فكانت إجابة يهود خيبر على هذا السؤال هي: بل دينكم خيرٌ من دينه، فأنتم أولــى بــالحق " وفى ذلك نزل قول الحق تبارك وتعالى:

" أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا سَبِيلًا " النساء: ٥١

(الجبت: كل ما عبد من دون الله، والطاغوت = المعتدي كثير الطغيان)

---

١ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (١٩٥٦) جمعها وحققها محمد حميد الله الحيدر أبادي طبعة القاهرة ص ص ١٧ - ٢١

٢ محمد عمارة. الإسلام والآخر. مرجع سابق ص ٢٩

وعداء اليهودية لما هو إسلامي – بل لما هو إنساني – واضح في تفسيراتهم لمفهوم " الأغيار " فالكلمة العبرية " جوى " مقابلها في العربية " قوم أو شعب "، وجمعها في العبرية " جو ييم " وكانت الكلمة تنطبق في بادئ الأمر على اليهود وغير اليهود ولكنها استخدمت لديهم لتشير إلى الأمم غير اليهودية فقط، واكتسبت الكلمة ايحاءات تطفح بالذم والقدح في كل من هو غير يهودي، وأصبح معناها "الغريب" و"الآخر" غير اليهودي.

وصُنِّف الأغيار عند اليهود في درجات ؛ أدناها من يعبدون الأصنام والأوثان وأعلاها المسيحيون والمسلمون. وعند اليهود نزعة متطرفة ؛ فهم – فيما يتصورون – شعب الله المختار، وهم أبناء الله وأحباؤه، وقد حكى القرآن عنهم هذه النزعة في قوله تعالى:

- " **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ** " المائدة: ١٨
- " **وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا** " البقرة: ١٣٥
- " **وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى** " البقرة: ١١١

واتسع نطاق مفهوم الأغيار عند اليهود ليشمل ؛ دون تمييز بين درجات دنيا وعليا ؛ فامتد إلى حظر تناول طعام من ليس يهودياً، وإلى عدم الاعتراف بالزواج من الأغيار بحجة أن الأغيار – جميعا – كذَّابون بطبيعتهم، ولذا فإنه لا يؤخذ بشهادة غير اليهودي في محاكمهم الشرعية، وأنه لا يصح مشاركة غير اليهوديين في احتفالاتهم بأعيادهم،إلا إذا أدى الامتناع إلى إلحاق أذى باليهود.

هذا، وقد حدث في اليهودية تضييق شديد في مفهوم "الأخ "،ومفهوم"الرجل"

فأصبحت الكلمتان لا تشيران إلى الأخوة في الإنسانية ؛ وإنما اقتصرت في الزواج وفى تحريم السرقة وفى كراهية التواصل الجنسي، وفى التعامل بالربا على اليهودي فحسب [١]

وفى التلمود " دعوة صريحة – في حالات كثيرة متناقضة – إلى عدوانية لا تتسم بالعقلانية مع الغرباء عن الدين اليهودي ؛ حيث استحل قتلهم، مما سبب كثيراً من الحرج لليهود ؛ فلجأوا إلى إصدار طبعات منه حلّت فيه كلمة " مصري " أو "صدوقي" أو " سامري " محل كلمة مسيحي أو غريب " [٢].

---

١ انظر عبد الوهاب المسيري (٢٠٠٩)، موجز موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية. القاهرة: دار الشروق الجزء الثاني ص ص ٥٣ – ٥٤

٢ التلمود أحد أهم الكتب الدينية عند اليهود، ومعنى كلمة تلمود في العبرية " الدراسة والتعليم " وهو كتاب يخلع على نفسه القداسة، وهو ثمرة الشريعة الشفوية في اليهودية ؛ المقابلة للشريعة المكتوبة في التوراة، ويضم موضوعات شتى تتناول الدين والشريعة والتأملات الميتافيزيقية والتاريخ والأدب والعلوم الطبيعية والزراعة والصناعة والفلاحة والمهن والتجارة والربا

وأحسب أن هذا التعديل كان سبباً في الوصول إلى التيار الذي يطلق عليه الآن " صهيو مسيحي " الذي يؤمن به بعض السياسيين والمفكرين في أمريكا وأوروبا، ومن خلاله تم تنصير اليهودية وتهويد المسيحية.

وهكذا تبنت اليهودية على يد أتباعها دعوة عنصرية لا يؤمَن جانبها، وعلى من يتعامل معها من المسلمين أن يتصف بالحذر الشديد في التعامل الاقتصادي والسياسي والاجتماعي.

الإسلام والنصرانية الكاثوليكية والبروتستانتية

ثم موقف النصرانية أقول: إن صورة رسول الله عيسى بن مريم في القرآن الكريم صورة مُبجَّلة، وإيمان المسلم لا يكتمل إلا بأن يؤمن بعيسى رسولاً مصطفى من الله، وبالإنجيل كتابا مقدسا ولنقرأ سوياً قول الله عز وجلَّ:

- " **وَآَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** " البقرة: ٧٨
- " **وَقَفَّيْنَا عَلَى آَثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ** " المائدة: ٤٦
- " **وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ** " آل عمران: ٤٨

وعيسى عليه السلام وجيه في الدنيا والآخرة، ومؤيد بروح القدس وبالمعجزات، وسلَّم الله عليه يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يبعث حيا.

والنصارى أتباع عيسى عليه السلام أقرب الآخرين في الدين إلى المسلمين " **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آَمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آَمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** " المائدة: ٨٢

وقد تحدث رسول الإسلام (**e**) عن عيسى فقال: أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، الأنبياء أولاد علاَّت أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وليس بيننا نبي "[1] وقد أوضح الرسول محمد (**e**) هذه العلاقة، ووضع أسسها العملية في بداية الدولة الإسلامية الأولى، فكتبت عهوداً موثقة ؛ تقررت فيها المساواة بين المسلمين والنصارى في الحقوق والواجبات ؛ بوصف أنهم مواطنون في دولة

والضرائب وقوانين الميراث والملكية والفلك والتنجيم، وهو كتاب ضخم أكثر من عشرين مجلداً في طبعاته المختلفة، ومترجم إلى الإنجليزية ومن أهم محتويات التلمود " تثنية التوراة " أو إعادة الشريعة التي كتبها موسى بن ميمون في القرن الثاني عشر

١ رواه البخاري ومسلم وأبو داوود والإمام أحمد

واحدة ؛ للنصارى ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. جاء ذلـك فـي عهـد رسـول الله (e) لنصارى نجران، ولكل من تدين بالنصرانية. وفيما يلي اقتباسات من ذلك العهد:

"... لنجران وحاشيتها وسائر من ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض – جوار الله، وذمة محمد رسول الله على أموالهم وأنفسهم ومِلتهم، وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وتبعيتهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير... أن أحمي جانبهم، وأذب عنهم وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السياح، وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا بما أحفظ به نفسي وخاصتي وأهـل الإسلام من ملتي.. لأني أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم بالعهد الـذي استوجبوا به حق الذمام والذب عن الحرمة، واستوجبوا أن يذّب عنهم كل مكـروه، حتـى يكونـوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم ؛ لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، ولا يغير حقٌ من حقوقهم ولا سلطانهم، ولا شيء مما كانوا عليه.

"وليس عليهم دنيّة ولا دمُ جاهلية ولا يُحشَرون(لا يجمعون للقتال ومتطلباته) و لا يُعَشَّرون(لا يدفعون ضريبة العشر التي يدفعها الأجانب) وليس عليهم خراج ولا جزية إلا على من يكون في يده ميراث من ميراث الأرض، ممن يجب عليه فيه للسلطان حقٌ، فيؤدى ذلك على ما يؤديه مثلـه، ولا يجار، ولا يحمل منه إلا قدر طاقته وقوته على عمل الأرض وعمارتها وإقبال ثمرتهـا،ولا يكلـف شططا، ولا يتجاوز به أصحاب الخراج من نظرائه.

ولا يطأ أرضهم جيشٌ،ومن سأل منهم حقا فلهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ".

" ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر، ولا إدخال شيء من بنائهم في شيء من أبنية المسـاجد ولا منازل المسلمين".

" وإذا صارت النصرانية عند المسلم (زوجة) فعليه أن يرضى بنصرانيتها، ويتبع هواهـا فـي الإقتداء برؤسائها، والأخذ بمعالم دينها، ولا يمنعها ذلك، فمن خالف ذلك وأكرهها على شيء من أمر دينها فقد خالف عهد الله وعصى ميثاق رسوله، وهو عند الله من الكاذبين".

ولهم إن احتاجوا إلى مرمة بيعهم وصوامعهم أو شيء من أمور دينهم إلى رِفْد (دعم ومعونة) من المسلمين وتقوية لهم على مَرَمَتها أن يُرْفَدوا على ذلك ويعاونوا، ولا يكون ذلك ديناً عليهم، بـل تقوية لهم على مصلحة دينهم، ووفاء بعهد الله لهم، ومنة لله ورسوله عليهم.

ولا يجبر أحد منهم ممن كان على ملة النصرانية كرها على الإسلام.

وقد اشترط الرسول (e) على نصارى نجران أموراً منها:

" ألا يكون أحد منهم عيناً ولا رقيباً لأحد من أهل الحرب على أحد من المسلمين في سره وعلانيته، ولا تأوي منازلهم عدوٌ للمسلمين، يريدون به أخذ الفرصة وانتهاز الوثبة، ولا ينزلون أوطانهم ولا

ضياعهم ولا في شيء من مساكن عبادتهم غيرهم من أهل الملة، ولا يَرْفُدوا أحداً من أهل الحــرب على المسلمين بتقوية لهم ؛ بسلاح ولا خيل ولا رجال ولا غيرهم، ولا يصانعوهم.

وإن وإذا احتيج إلى إخفاء أحد من المسلمين عندهم وفي منازلهم ودور عبــادتهم أن يــؤوهم ويَرفدوهم" ([1])

وشهد على هذه المعاهدة أبو سفيان بن حرب، وغيلان بن عمرو، ومالك بن عوف مــن بنــى النَّحر، والأقرع بن حابس الحنظلي، والمغيرة بن شعبة.

وفى كتاب آخر كتب (e) لأهل نجران ما يلي:

- بسم الله الرحمن الرحيم

" هذا كتاب أمان من الله ورسوله ؛ للذين أوتوا الكتاب من النصارى، من كان منهم على دين نجران، أو على شيء من نحل النصرانية كتبه لهم محمد بن عبد الله، رسول الله إلى الناس كافة ؛ ذمة لهم من الله ورسوله، وعهداً عهده إلى المسلمين من بعده ؛ عليهم أن يعــوه، ويعرفــوه، ويؤمنوا به، ويحفظوه لهم، ليس لأحد من الولاة ولا لذي شيعة من السلطان وغيره نَقْضُـــه، ولا تعدِّيه إلى غيره، ولا حَمْل مؤونة من المسلمين سوى الشروط المشروطة في هذا الكتاب، فمــن حفظه ورعاه ووفَّى بما فيه – فهو على العهد المستقيم والوفاء بذمة رسول الله ومن نكثه وخالفه إلى غير وبدله فعليه وزره، وقد خان أمان الله، ونكث عهده وعصاه، وخالف رسوله، وهو عند الله من الكاذبين، لأن الذمة واجبة في دين الله المفترض، وعهده المؤكد، فمن لم يرعَ خالَفَ،ومن خالف حرمها فلا أمانة له، وبريء الله منه، وصالح المؤمنين"[٢]

تلك كانت صورة النصرانية في التصور الإسلامي فكراً وعملاً، ومكانة للآخر النصراني فــي الدولة الإسلامية الأولى، بل ومكانة لمن يدين بالنصرانية في سائر أقطار الأرض.

لقد نظر إليهم على أنهم جزء من أجزاء الأمة الواحدة، وأنهم رعايا دولــة واحــدة، وأنهــم متساوون في الحقوق والواجبات التي تقتضيها المواطنة، ومنها حرية التنوع والاختلاف في الدين ؛ دونما عسف أو تمييز أو إكراه، واعتبار هذا الاختلاف سنة من سنن الله. وصدق الله العظيم " **وَلَــوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِــذَلِكَ خَلَقَهُــمْ** "

---

١ انظر العهد كاملاً في:

محمد حميد الله الحيدر أبادي (١٩٥٦) مُحققاً مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة طبعة القاهرة: ص ص ١١١ – ١٢٨

٢ السابق: ص ١١٧ - ١٢٢

هود: ١١٨ – ١١٩ واختلاف الشرائع الدينية في التصور الإسلامي سنة من سنن الله ولن تجد لسنة الله تحويلا.

هذا، وتعدد الأديان وتنوعها وخاصة الأديان الرسالية الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام الخاتم لا ينفى أن لكل دين خصوصيات، فالوحدة لا تنفي تعدد العناصر المكونة لها قال تعالى:

- " **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** " المائدة: ٤٨

صورة الإسلام عند السياسيين في الغرب

لننظر الآن إلى الوجه الآخر لقضية تنوع الأديان أي في الصورة التي يراها بعض رجال اللاهوت النصراني وبعض السياسيين للإسلام.

- تحدث أكبر فلاسفة الكاثوليكية "القديس" توماس الأكويني (١٢٢٥ – ١٢٧٤) بقوله " لقد أغوى محمد الشعوب من خلال وعوده لها. وبالمتع الشهوانية.... وحرَّف جميع الأدلة في التوراة والأناجيل من خلال الأساطير والخرافات التي يتلوها على أصحابه، ولم يؤمن برسالته إلا المتوحشون من البشر الذين كانوا يعيشون في البادية "[١]
- ووصف مارتن لوثر (١٤٨٣ – ١٥٤٦) رأس البروتستانت رسول الإسلام (e) بأنه خادم العاهرات في مقام تحبيبه للقساوسة في الحرب ضد الأتراك العثمانيين فقال: " على القساوسة أن يخطبوا أمام الشعب عن فظائع محمد ؛ حتى يزداد المسيحيون عداوة له، وأيضاً ليقوى إيمانهم بالمسيحية، ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم في الحرب – ضد الأتراك، ويضحوا بأموالهم وأنفسهم " [٢] كما وصف القرآن الكريم بقوله: " أي كتاب بغيض وفظيع وملعون هذا القرآن المليء بالأكاذيب والخرافات والفظائع"[٣]

وفيما سبق ترى البشاعة والفحش في القول عن جهالة ونزعة عداء، وترى استحالة المقارنة بين هذه الثقافة اللاهوتية العدوانية (الكاثوليكية والبروتستانتية) وثقافة الإسلام التي اعتبرت من لا يؤمن بالنصرانية ناقصاً في إيمانه.

- وسيطرت الكنيسة الكاثوليكية على مختلف جوانب حياة الناس في أوروبا في القرن الثاني عشر الميلادي ؛ فقرر مجمع "لاتران " ضرورة أن يُقسِّم كل حاكم يطمع أن يكون في عداد

---

١ هوبرت هيركومر، ترجمة ثابت عيد بتقديم محمد عمارة (١٩٩٩) القاهرة، دار نهضة مصر. ص ٣٢، ٣٣ سلسلة التنوير الإسلامي

٢ السابق ص ٢١

٣ السابق

المؤمنين بأن يستأصل من إقليمه كل من تعدهم الكنيسة مهرطقين.. ومنحت البابوية صك الغفران لمن يجاهد في القضاء على أعدائها – شنقاً وحرقاً وذبحاً – وشرعت مبدأ نصه " يحتفظ الحاكم بعرشه متى قام بواجبه في استئصال الإلحاد، فإن تردد في الاستجابة لأوامر البابا باضطهاد المخالفين في الدين أُكْرِه على الطاعة وصودرت أملاكه، وسيقت لأعوان الكنيسة، وعرَّض نفسه للاعتقال والإذلال [١].

واستحضر معي هنا قول الحق تبارك وتعالى:

- " **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** " البقرة: ٢٥٦
- "**وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**"الكهف: ٢٩
- " **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** " الكافرون: ٦

اضطهاد النصرانية الأرثوذكس

هذا، ولم تنج النصرانية الأرثوذكسية من اضطهاد نصرانية الكاثوليك في الحملات الصليبية لاحتلال الشرق الإسلامي، ونهب ثرواته تحت شعارات الصليب وتخليص المسيح ؛ فاجتاحت – في طريقها القسطنطينية – وطن الأرثوذكسية اليونانية، ومقر كنائسها و كاتدرائياتها ومتاحفها وكتباتها، وصنعت بها أسوأ ما صنعه الوثنيون التتار بعاصمة الإسلام - بغداد آنذاك. حيث عاث الصليبيون فساداً في القسطنطينية في أسبوع عيد الفصح، واستولوا على كل ما رأت أعينهم، فجردوا الكنائس مما تجمع من الذهب والفضة والجواهر والآثار المقدسة، وبيعت كلها في أوروبا بأثمان غالية.[٢]

رؤية بعض سياسي الغرب للإسلام

أما بعد، فأود أن أتوقف قليلاً لأنهى هذا الفصل بكلمات قصار أرجو أن تغنى عن التطويل والإسهاب عن رؤية لبعض السياسيين في الغرب للإسلام.

إن النزعة العدوانية لدى بعض المسيحيين لا تزال ممتدة في العصر الذي نعيشه في كتابات مثل "صموئيل هنتجون "عن صراع الحضارات واعتبار الإسلام هو العدو الذي يجب أن تواجهه الحضارة الغربية بعد سقوط الشيوعية في الاتحاد السوفيتي السابق وازدادت هذه النزعة العدوانية حدة بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م في أمريكا التي دمر فيها برجا التجارة العالمية في نيويورك،

---

١ توفيق الطويل (١٩٩١) قضية الاضطهاد الديني في الإسلام والمسيحية: القاهرة: (بدون) صفحة: ٧٧

٢ ول ديورانت (١٩٧٤) قصة الحضارة، ترجمة عبد الحميد يونس. طبعة القاهرة المجلد الرابع ص ٤٦ - ٥٣

وقصف فيها مبنى وزارة الدفاع (البنتاجون) في واشنطن؛ حيث أعلن بوش الابن رئيس أمريكا آنذاك حملة صليبية ضد العالم الإسلامي، ووصف المسلمين بأنهم أشرار وإرهابيون - وتمثلت هذه الحملة في بدايتها– بالهجوم الأمريكي على العراق، وقبله إشعال الحرب على أفغانستان.
وتعاضدت أقوال وزير الدفاع الأمريكي، ومرشح سابق للرئاسة الأمريكية " جوزيف ليبرمان " مع ما قاله بوش عن صليبية الحملة على الدول العربية والإسلامية [١].

وانضمت مارجريت تاتشر رئيسة مجلس وزراء بريطانيا الأسبق إلى هذه الدعوة الحمقاء بقولها " إن المسلمين يرفضون القيم الغربية لأن مصالحهم تتعارض مع مصالح الغــرب، وأنهــم يمثلــون أيديولوجية عدائية لأمريكا والغرب. فهم كالبولشيفية في الماضي وكما كان الحال مــع الشــيوعية ؛ فلابد من تبنى إستراتيجية طويلة المدى ليتسنى لنا هزيمتهم " [٢]

ويقول " فوكوياما" أحد المنظرين الأمريكيين " إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة فــي العالم التي لديها مشاكل مع " الحداثة " ؛ فالحركات الأصولية الإسلامية لا ترفض السياسات الغربية فحسب ؛ وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة "العلمانية" نفسها.... وهو الصراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التي تقف ضد الحداثة الغربية... وهذا هو التحدي الأيدلوجي الذي يمثل في بعض جوانبه أكثر أساسية من الخطر الذي شكلته الشيوعية [٣]

وقال القس "روبرتسون" صاحب أوسع نفوذ في الإعلام الأمريكي، وخاصة في حملات رئاســة الجمهورية، وهو رئيس ما يسمى " التحالف المسيحي " " إن الدين الإسلامي دعا إلى العنف... وإن أمريكا بحاجة إلى إنذار ضد خطر المسلمين الذين يكرهون أمريكا،ويحاولون تدمير إسرائيل"[٤]

كراهية أمريكا

وأنا واحد من المسلمين الذين تعلموا في أمريكا – أقرر -حقاً – أنني أكره أمريكا والسؤال الذي يجب أن يسأله الأمريكيون هو لماذا يكره المسلمون الأمريكيين؟
وأجيب:

---

١ عمارة، محمد (٢٠٠٨) الإسلام في عيون غربية: بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء، القاهرة: دار الشروق ص ص ٤٧، ٤٨

٢ صحيفة الأهرام القاهرية في ١٦ / ٢٠٠٢ م

٣ النيوزويك الأمريكية العدد السنوي ديسمبر ٢٠٠١ م

٤ الحياة اللندنية في ٢٦ / ٢٠٠٢ م وصحيفة الشرق الأوسط في ٣ / ٣ / ٢٠٠٢ م

١- المسلمون لا يكرهون الأمريكيين أفراداً أو جماعات، ما استقامت حكوماتها على الطريق الإنساني السوي الذي حددته الشرائع السماوية النقية غير المحرفة، وغير المفبركة، وستبقى هذه الكراهية ما دامت حكوماتها تقف في جانب الظالم المستبد الذي يهدر كرامة الأفراد والشعوب، ويحرمهم متع الحياة بحرية في أوطانهم وبما أفاء الله عليهم من موارد طبيعية.

٢- انعدام ثقة المسلمين في الدعاوي التي تعلن أمريكا أنها تعمل لتحقيقها كالديمقراطية ؛ لأنها في الواقع المعيش وفى المعاملات – مع الدول العربية والإسلامية تسعى لتأصيل ودعم أنظمة الحكم الاستبدادي القائمة على كبت حريات الشعوب، وحرمانهم من حقوقهم الإنسانية العامة التي جاءت بها الشرائع الرسالية الحقة، وصدقت عليها مواثيق الأمم المتحدة.

٣- محاولات دول الغرب وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية مناصرة إسرائيل التي سلبت أرض فلسطين، وشردت أبناءها، وشتتهم في بقاع الأرض الممتدة، وحكمت عليهم أن يعيشوا لاجئين في معسكرات في فلسطين ذاتها وفى الدول العربية منذ عام ١٩٤٨ إلى الآن. وتوشك سياسة أمريكا تجاه القضية الفلسطينية قضية المسلمين والعرب الأولى – أن تتطابق تماماً بل أن تتوحد مع إسرائيل في الفكر وفي الإستراتيجية.

وأقرب شاهد على ذلك موقف السيد أوباما رئيس أمريكا تجاه مطالبة فلسطين الأمم المتحدة بأن تقرر دولة فلسطين المستقلة على حدود ١٩٦٧م ويقول أوباما:" إنه مع قيام دولة فلسطين يتم التفاوض مع إسرائيل مع بقاء الاحتلال الإسرائيلي الاستيطاني ؛ حتى لا تبقى في فلسطين أرض تقوم عليها الدولة المنشودة " أليس هذا استخفافاً بعقول البشر، وازدواجية مقينة في سياسة أمريكا تجاه العرب والمسلمين ؟!!.

٤- مظاهر الاستعلاء والاستكبار والاستتباع الماثلة في سياسة أمريكا تجاه دول العالم كافة وخاصة الدول العربية الإسلامية لصوالح مادية بحته تخص أمريكا وتضر الدول العربية المسلمة.

٥- السعي الدؤوب الذي تقوم به أمريكا لأمركة العالم تحت اسم"العولمة " وطمس الهويات الدينية والثقافية للشعوب الأخرى.

٦- ولا رجاء في تغيير هذا الموقف إلا إذا:

أ – حرص عقلاء المفكرين من رجال السياسة في الغرب والمفكرين ورجال السياسة المسلمين على الحوار النِدي ؛ للتوافق على حد أدنى للمواثيق الأخلاقية في علاقات الدول بعضها ببعض.

ب – أعتقد أن بعض المسئولية عن هذا الموقف المتردي يقع على علماء الدين المسلمين الذين لم يفصحوا للآخرين بلغاتهم عن أخلاقيات الإسلام ووسطيته في جوانب الحياة، والعمل المختلفة،

وضرورة أن يتحلى هذا الإفصاح عن الاستغراق في التفصيلات وإنما يكون التركيز على حقوق الإنسان العامة والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في المنظور الإسلامي

وأحسب أن المؤسسات الثقافية في البلاد العربية الإسلامية ينبغي أن تتوسع في ترجمة بعض الكتب التي تتصل بهذه الحقوق ونشرها في الأقل بلغتين: الإنجليزية والفرنسية؛ حتى لا يكون هناك حجة لمن لا يعلم عن هذه الأخلاقيات.

ج- أن يستدعي المؤهلون من المسلمين لتناول هذه الأخلاقيات وبثها في الفضائيات باللغات الأجنبية.

ورائدي في هذه الاقتراحات قول الحق تبارك وتعالى:

- " **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آَمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** " العنكبوت: ٤٦
- " **عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** " الممتحنة: ٧

الفصل التاسع

أخلاقيات الإسلام في الحرب

أخلاقيات الإسلام في الحرب

الإسلام دين سلام

الإسلام دين السلام، وليس دين حرب وتقاتل، دين يدعو الناس جميعاً إلى أحدية الخالق جل وعلا، الذي خلق السموات والأرض، وما بينهما، وهو أعلم بمن خلق ؛ في كل حال وفى كل حين، وأنعم على الإنسان فصوَّره في أحسن صورة، وكرَّمه ونعَّمه، وجعله خليفة في عمران الأرض ؛ لتكون الأرض متاعا للناس في حياتهم الدنيا، وسخَّر للإنسان ما عداه من مخلوقات ؛ ليوظفه في التعمير وفى التزكية لذاته وجنسه ومجتمعه وأمته، وللأرض التي يحيا عليها؛ كي تكون الأرض دار قرار وأمن وطمأنينة للناس جميعا :

- " **وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ** " البقرة: ٣٦

واعترضت الملائكة على أن يكون البشر خلائف الله في الأرض :

- "**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** " البقرة : ٣٠

ولم يدع الخالق العظيم الإنسان مهملاً ؛ بل هيأه لأداء الأمانة التي استخلف فيها " **أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى** " القيامة : ٣٦ ففطره على قابليات وإمكانات واستعدادات وطاقات : بدنية وعقلية واجتماعية، ميزته عن الحيوان ؛ ليحسن أداء أمانة عمران الأرض، ومنحه القدرة على الإرادة، وهداه إلى النجدين : نجد الهدى والاستقامة ونجد الضلال والإضلال، والفساد والإفساد " **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** " المائدة : ٤٨

وكثر الفساد والإفساد في الأرض عَبْر العصور والبقاع بما يرتكبه الناس من الفواحش ظاهرة وباطنه، بما كسبت أيديهم، ومن أعظم مظاهر هذا الفساد اشتعال الحروب – عبر التاريخ – بين من ينتمون إلى دين واحد، ومن يتغايرون في معتقدهم الديني . واختلفت الأديان الرسالية في الأخلاقيات التي يلتزم بها المحاربون-إذا لم يكن بد من الحرب- بعد استنفاد وسائل تسوية النزاعات بالجدل بالحسنى والتفاوض .

وأود أن أبرز هنا التصور الإسلامي لأخلاقيات الحرب بين المسلمين بعضهم بعضا وبين المسلمين و المغايرين لهم في الدين :

التقاتل بين المسلمين

من الثوابت في الإسلام أن القتال مكروه بين المسلمين بعضهم بعضا وبينهم وبين الأغيار في الدين ؛ لقوله تعالى :

- " **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** " البقرة: ٢١٦ وحرمة القتال مستمدة من قول الله تبارك وتعالى:
- " **مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** " المائدة : ٣٢، ٣٣

وتجدر الإشارة إلى أن "النفس" في الآية ٣٢ ذكرت بإطلاق ؛ دونما تفرقة أو قيد بين من يُقتلون بالباطل . وجاءت الآية الثانية ٣٣ بإطلاق كلمة الفساد وخاصة الموجه إلى الله ورسوله، أو إلى دينه الموحى به إلى النبي الأمين الذي أبلغ الأمانة، وشددت العقوبة، وحددت في الآية الثانية .

والمفروض أن لا يتراخى المسلمون أو يتهاونوا أو يتباطؤوا في السعي إلى الصلح بين الطوائف المسلمة المتنازعة؛ لتلافي اتساع مشقة الخلاف بينهما حتى نفضي إلى الحرب،وفى هذه الحالة جاءت الآيات الكريمة التالية :

- " **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** " الأنفال : ١
- " **وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** " الحجرات : ٩، ١٠

(فاءت = رجعت عن غضبها وعادت إلى رشدها)

وروى البخاري عن الأحنف بن قيس قال " ذهبت لأنصر هذا الرجل فلقيني أبو بكرة فقال أين تريد ؟ قلت : أنصر هذا الرجل . قال ارجع، فإني سمعت رسول الله (e) يقول : " إذا التقى

المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار، فقلت يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال إنه كان حريصاً على قتل صاحبه " [١]

ومغزى آيتي سورة الحجرات هو أن الصلح بين الطوائف المسلمة المتنازعة فرض كفاية، يجب أن يقوم به أفراد أو جماعات من المسلمين وأن يتوخى المصلحون العدل والقسط في الحكم بين المتنازعين، فالصلح مأمور به من لدن الرحمن الرحيم الرءوف بعباده، وموجه إلى جماعة المسلمين، ويأثم المسلمون المجاورون للمتنازعين إن لم يقوموا بإصلاح ذات البين بينهما؛ حقناً لدماء المسلمين أن تهدر عبثاً في الحرب .

أخلاقيات الإسلام في حرب الأغيار في الدين

التقاتل أو التحارب بين المسلمين والمخالفين لهم في الدين عمل مكروه ؛ لأنه غير إنساني، وينبغي على المسلمين – حقاً – أن يتجنبوه ؛ لإطلاق كراهية قتل النفس أيا كانت، ولكنَّ المكروه والمحرم يباح ارتكابهما عند الضرورة القصوى، واستنفاد الوسائل الأخرى السلمية التي يمكن أن تقضى على أسباب النزاع بين الفريقين ؛ فالطلاق مكروه وقال عنه الرسول (e) إنه أبغض الحلال إلى الله، ولكنه جائز ومشروع إذا استحال الصلح بين الزوجين. وأكل لحم الخنزير محرم، ولكنه جائز عند الضرورة القصوى حتى لا تهلك نفس الجائع، وشرب الخمر حرام إلا إذا كانت ضرورية وأوصى بها طبيب مسلم متخصص لإنقاذ حياة إنسان مشرف على الهلاك وهكذا .

وفى هذا المعنى جاءت الآية الكريمة: " **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** " البقرة: ٢١٦

نزعة الغرب للاستكبار والعدوان

والسؤال الذي يثار في مقام الحرب بين المسلمين والآخر الديني خارج الوطن المسلم هو: ما مظاهر التحدي والعدوان اللذين تواجههما الحضارةُ العربيةُ الإسلامية - بوجه عام- من الحضارة الغربية ؟ والجواب هو ما يلي:

١- إن ثمة نزعة مركزية قديمة وراسخة في الحضارة الغربية، جعلت العالم الغربي ينكر تنوع العالم إلى حضارات متعددة ومتمايزة في نشأتها وتطورها وثقافتها . هذه النزعة كانت سبباً في الموجة الاستعمارية العارمة التي أحاطت بالعالم العربي – في القرن التاسع عشر وفى

١ رواه البخاري في صحيحه رقم : ٦٨٧٥

القرن العشرين، ولا تزال -في القرن الحالي – هذه النزعة فعَّالة وإن اختلفت دواعيها، وتنوعت أساليبها وأدواتها منذ منتصف القرن العشرين .

ومفاد هذه النزعة هو أن البلاد التي تظلها الحضارة الغربية هي الأقوى على إنجاز مظاهر التقدم الحضاري المختلفة، ولذا فإنها الأصلح والأبقى، ويجب أن تَصرَع الثقافات الأخرى، وتَحِل محلها، وكانت حركة العولمة العسكرية والاقتصادية والثقافية في الغرب، وظُنَّ خطأ أنها كفيلة بصب ثقافات العالم في قالب حضاري وثقافي وحيد سمته " التغريب " وسبقتها في محاولة "تغريب" العالم العربي الحملات الصليبية ضد الإسلام "الدين"، وضد أمة المسلمين وحضارتهم وتشويه ثقافتهم .

٢- تواكب هذا الموقف الثقافي مع الموقف اللاهوتي لليهودية والمسيحية تجاه الإسلام،على النحو الذي أشرنا إليه بإيجاز في الفصل السابق ونتج عن هذا الالتقاء رؤية غربية معاصرة تجاه الإسلام وأهله وأصبح لها تأثيرات عميقة على صناع القرار في الدول الغربية، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية . وإليك عينة مما قاله مسؤولون سابقون في أمريكا :

- قال الرئيس الأمريكي الأسبق " ريتشارد نيكسون " عن صورة المسلمين في العقل الأمريكي " إن الكثير من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى المسلمين كأعداء، وأنهم شعوب غير متحضرة، ودمويين وغير منطقيين، وأن سبب اهتمامنا بهم هو أن بعض زعمائهم يسيطرون – بالصدفة – على نحو ثلثي النفط الموجود في العالم . وليس ثمة صورة أسوأ من هذه الصورة – حتى الصين الشيوعية – في ضمير المواطن الأمريكي عن العالم الإسلامي .."

ويضيف نيكسون قوله " إن الإسلام والغرب متضادان، وأن نظرة الإسلام للعالم تقسمه إلى قسمين : دار الإسلام، ودار الحرب ؛ حيث يجب أن تتغلب الأولى على الثانية . إن المسلمين يوحِدُون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب، وعلى الغرب أن يتحد مع الاتحاد السوفيتي(سابقاً) ليواجه هذا الخطر الداهم بسياسة واحدة " [١]

- سئل رئيس سابق للمجلس الوزاري الأوروبي (جيانى ديميلكيس) : ما مبررات بقاء حلف الأطلنطي (NATO) مع انتهاء المواجهة بين الغرب الليبرالي والمعسكر الذي كان اشتراكياً ؟ فأجاب :

---

١ ريتشارد نيكسون (١٩٩٢) الفرصة السانحة، ترجمة أحمد صدقي مراد، القاهرة، دار الهلال ص ١٣٥، ١٣٨ - ١٣٩

" صحيح أن المواجهة مع الشيوعية لم تعد قائمة، إلا أن ثمة مواجهة أخرى يمكن أن تحل محلها بين العالم الغربي والعالم الإسلامي "

فقال السائل " مراسل مجلة النيوزويك " : وكيف يمكن أن نتجنب نلك المواجهة المحتملة ؟ فأجاب ديميكليس بقوله :

" الشرط هو تعميم النموذج الحضاري الغربي، وقبول المسلمين لــه، وينبغــي أن تحــل أوروبا مشاكلها ؛ ليصبح النموذج الغربي أكثر جاذبية وقبولا من جانب الآخــرين فــي مختلف أنحاء العالم، وإذا فشلنا في تعميم ذلك النموذج الغربي فإن العالم سيصبح مكانــاً في منتهى الخطورة " [١]

وهكذا يكون تلبيس الحق بالباطل، وحديث من يجهلون الإسلام وثقافته وعالمية دعوته .

واستحضر في هذا المقام قول الحق تبارك وتعالى عن المسلمين ومبادئ دينهم وقواعده التي نزل بها الوحي الأمين. قال تعالى:

- " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ**" آل عمران : ١٠٠
- " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ**(١٤٩) **بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ** " آل عمران: ١٤٩، ١٥٠
- "**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** " البقرة : ١٠٩
- " **وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** " البقرة: ٢١٧

ومغزى الآيات الكريمة السابقة هو أن القرآن الكريم أكد وقوع هذه المحاولات ؛ فــي إصــرار الآخر الديني على أن يتحول المسلمون عن القواعد والضوابط التي شرعها الإسلام الحنيف، ولكــن ذلك ليس في مُكنتهم، فإن من يميل عن نهج الإسلام إلى ما يدعون إليه من الخاسرين الذين حبطــت أعمالهم، ولهم في الآخرة عذاب عظيم، وهذا حكم الله العليم الحكيم .

مسوغات القتال في الإسلام

---

١ مقال " فهمي هويدي " في الأهرام القاهرية في ١٧ يوليو ١٩٩٣ م تحت عنوان " من يعادي من ؟ "

وقد حدد القرآن الكريم الشروط التي تسوغ للمسلمين القتال بأنه لا يجوز أن يفاجئ المسلمون غيرهم بالقتال، وأن يكون قتالهم مقصوراً على الدفاع، ورد العدوان عن إسلامهم وديارهم ؛ قال تعالى :

- **" وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ "** البقرة: ١٩٠
- **" أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ "** الحج : ٣٩، ٤٠

وفى هاتين الآيتين ما يؤكد أن القتال مأذون به للذين ظُلِموا، حين بادر الآخرون في الدين بالاعتداء على ديارهم، وعقيدتهم، وشريعتهم، وأعراضهم، وأموالهم ؛ فالقتال في هذه الحالة رد للعدوان " **وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ " البقرة : ٩١**

والقتال في هذه الحالة جزاء من جنس العمل الذي ارتكبه المبادئون بالقتال ؛ وقد اختتمت هذه الآية الكريمة بما يوحى بالسماحة، ونفى تعميق الحقد والضغينة بين المسلمين ومن اعتدوا عليهم ؛ " **فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ "** البقرة :١٩٢

هذا، وقد عنى المفكرون الإسلاميون بتتبع ما جاء في القرآن الكريم عن الإذن في شأن القتال، أو وجوبه، والتحريض عليه، فوجدوا أن ثمة إطاراً واحداً يجمعها، حتى ليبدو أنه المعيار العام، الذي يحكم قتال المسلمين الآخرين في الدين. ويتلخص هذا الإطار في حالتين لجواز أو وجوب القتال الذي يقوم به المسلمون ضد الآخرين في الدين الذين اعتدوا عليهم :

- **الأولى** : أن يَفْتِنَ الآخرون المسلمين في دينهم ؛ بأن يكرهوهم على الكفر بما جاء به الإسلام، أو يحولون بينهم وبين إقامة شعائر دينهم أو حرية الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن .
- **الثانية** : الحالة التي يعتدي فيها الآخرون على المسلمين ؛ فيخرجونهم من ديارهم وأوطانهم، ويشتتونهم في بقاع الأرض، ومن أمثلة هذه الحالة إخراج المسلمين من الأندلس، وتخييرهم بين أمور أحلاها مر ؛ وهى : أن يتنصروا، أو يُنْفَوا من الأندلس أو يُحرَّقوا . ومن أحدث

أمثلتها سلب أرض فلسطين، وإخراج أهلها من ديارهم، وإقامة دولة إسرائيل. ويدخل في هذه الحالة قتال المساعدين والمظاهرين على مثل هذا الإخراج من الديار والأوطان المسلمة (١)

الجهاد في الإسلام

إن القتال في الإسلام ليس مطلوباً لذاته، أو للتوسع لتحقيق غايات مادية بحتة، وإنما هو أحد أوجه الجهاد في سبيل الله " **انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** " التوبة : ٤١ .

وللجهاد في الإسلام أوجه كثيرة منها طلب العلم والتزود بالمعارف في مجالات الحياة المختلفة، " **فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** " آل عمران : ٦٦ و الجدل بالحجة والبرهان " **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** " البقرة : ١١١، " **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا** "الإسراء: ٣٤

والجهاد ليس عدواناً على أحد، ولكنه تحقيق للذات، ودفاع عن الأمة في دينها وكرامتها وثروتها، وكل ما ينضوي تحت هيبة الأمة المسلمة واستقلالها، ومن الجهاد إعداد القوة التي تكفل تلك الغايات " **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** "الأنفال: ٦٠

ويشمل الجهاد ما تنهض به وسائل الإعلام المسموع والمقروء والمرئي الذي تنهض به أجهزة الإعلام لتبيين حقائق الدين والدفاع عن منهجيته في الحياة، ونشر مبادئه ومقاصده في التنمية الشاملة للأمة فكرياً وسياسياً واقتصادياً . وحري بنا أن نؤكد – في إيجاز – على أخلاقيات الإسلام في الحرب . ويمكن تلخيصها فيما يلي :

١- تحريم قتل الأبرياء الذين لا يسهمون في قتال المسلمين ؛ لقوله تعالى " **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** " البقرة : ١٩٠ سواء كانوا مواطنين أو مأجورين، فقد غدت الحرب سلعة تباع وتشترى على نحو ما فعله شركة Black Water في العراق لحساب الأمريكيين .

٢- تحريم قتل النساء والأطفال وكبار السن والرهبان ورجال الدين غير المسلمين ما داموا لا يشاركون في القتال ؛ فقد روي في صحيح مسلم نَهْي الرسول **(e)** عن قتل النساء والصبيان في الحرب لما جاء في الخبر : أن امرأة وُجدت مقتولة في إحدى غزوات الرسول

---

١ عمارة، محمد (٢٠٠٤) الإسلام والآخر : من يعرف من ؟ ومن ينكر من ؟ : القاهرة : مكتبة الشروق الدولية ص ٥٦

(e) وأن الرسول أنكر ذلك . وروى أبو داوود بسنده أن الرسول (e) قال : " لا تقتلوا فانياً ولا طفلا صغيراً " . وروى أحمد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الرسول (e) كان إذا بعث جيشاً قال : " أخرجوا باسم الله، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع " ومن هنا جاء في وصية الخليفة الراشد الأول أبى بكر الصديق ليزيد بن سفيان، وهو يودعه أميراً على الجيش الذي ذهب إلى الشام قوله : " إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فَذَرْهُم ؛ لا تقتلنَّ امرأة ولا صبياً، ولا كبيراً هَرِماً، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تخربنَّ عامراً ولا تَعْقِرنَّ شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة، ولا تحرقَن نحْلاً، ولا تغرقنه، ولا تغلل ولا تجبن "[١] .

هذا، و قد وضع المسلمون هذا الدستور لأخلاقيات القتال موضع التطبيق في غزواتهم كلها ضد المشركين في الجزيرة العربية على عهد الرسول (e) إذ بلغ عدد من قتل من المسلمين ١٨٣ شهيداً، وعدد قتلى المشركين ٢٠٣ قتيلاً في عشرين غزوة .

ولمن يريد أن يقارن بين ذلك الرقم الضئيل في غزوات المسلمين أن يعلم أن الحروب الدينية داخل المسيحية بين "الكاثوليك " و " البروتستانت " قضت على عشرة ملايين من سكان وسط أوروبا أي بنسبة ٤٠% من تعداد شعوب تلك البلاد، وفقاً لإحصاء " فوليتر (١٦٩٤ – ١٧٧٨ م) [٢]

٣- وحرم الإسلام **قتل الرُسُل** الذين ينقلون الرسائل المتبادلة بين الطرف المعادى غير المسلم إلى الطرف المسلم. وكذلك عدم قتل الرهائن الذين يأسرهم المسلمون، فقد حدث أن مسيلمة الكذَّاب أرسل إلى النبي (e) رسولين، وحين قرئ كتاب مسيلمة سأل النبي (e) الرسولين : ماذا تقولان أنتما ؟ فأجابا نقول : كما قال مسيلمة . فقال الرسول (e) لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكم "[٣]

٤- **وحرم الإسلام – أيضا- استعمال أسلحة تؤدى إلى الإبادة الشاملة لغير المسلمين** وهي مهمة تضطلع بها محكمة الجنايات الدولية الآن بالنسبة لكل الحروب بغض النظر عن طرفي الحرب، وهذه الإبادة محرمة في الإسلام لأنها تقضي على كثير ممن لا يساهمون في الحرب بصورة فعلية- مباشرة كانت أو غير مباشرة -.

---

١ رواه مالك في الموطأ

٢ انظر ابن عبد البر (١٩٦٦) الدرر في اختصار المغازي والسير تحقيق شوقي ضيف، طبعة القاهرة نقلاً عن محمد عمارة، مرجع سابق " الإسلام والآخر"، ص ٦٤-٦٥

٣ روا ه الحاكم وقال : حديث صحيح ودعم صحته أبو داوود

ولا يقتصر تحريم الإبادة للبشر على الفترة الزمنية التي تجرى فيها الحرب، وإنما تمتد إلى الأذى الذي يصيب الناس بعد انتهاء الحرب، وذلك على النحو الذي حدث في الحرب العالمية الثانية بين ألمانيا الهتلرية وباقي الدول الكبرى، فقد امتدت عمليات الحرب إلى تلغيم الصحراء الغربية في مصر بالألغام التي تحتاج إزالتها إلى عشرات السنين، وإلى تكلفة مالية ليست في طاقة الدولة، وهذا التحريم ينطبق على القنابل الذرية والقنابل العنقودية ؛ فقد زرعت إسرائيل في حربها مع لبنان عام ٢٠٠٦ م في أرض جنوب لبنان قنابل فسفورية وعنقودية أهلكت كثيراً ممن يطؤون هذه الأرض للزراعة أو للإقامة في محيطها أو المرور بها .

٥- **وحرم الإسلام قتل الحيوانات** في الحرب، فقد جاء - كما قدمنا – في وصية أبى بكر الصديق رضي الله عنه لمن كان يرسلهم للقتال " لا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة " وتحريم الإضرار بالبيئة مثل تلويث الماء أو تسميمه أو قطعه عن الناس، وقطع الأشجار أو تحريقها، وتخريب مؤسسات العلاج والإسعاف للمصابين في الحرب .

- إعطاء الأمان والإجارة لمن يقع في أيدي المسلمين ؛ رهينة كان أو أسيراً، تطبيقاً لقوله تعالى :

- " **وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ** " التوبة : ٦ ولقوله سبحانه :
- "**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا** (٨) **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا** "الإنسان:٨،٩

ومغزى هاتين الآيتين هو حماية الأسرى من المحاربين ضد الإسلام بوصف أنهم بشر؛ بتوفير ما يحتاجون إليه من إيواء ومأكل ومشرب، وعلاج ؛ فقد جاء في الخبر أن أم هانئ بنت أبى طالب عمة رسول الله (e)، أجارت رجلاً أو رجلين من المشركين المحاربين فقال لها الرسول (e) " قدْ أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ، وإجارة من استجار بالمسلمين إذن ينبغي أن ينهض بأدائها كل مسلم ومسلمة ؛ لقول الرسول (e) عن المسلمين .... ويسعى بذمتهم أحدهم رجلاً كان أو امرأة.

الجنوح إلى السلم موازياً للإعداد للحرب

وباب المصالحة والتهادن مع من بادروا بالاعتداء على المسلمين مفتوح، لما جاء في القرآن الكريم:

- " **وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** " الأنفال: ٦١

- " عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ " الممتحنة: ٧

وتعني هذه اللفتات الإنسانية السمحة مع أهل الأديان الأخرى ضرورة أن تكون سلطة الحكم في الدولة الإسلامية فَطِنة ويَقِظة ومتحسبة لكل أساليب المكر والخداع التي يستغرق فيها الآخرون ضد الإسلام وأهله ؛ فمن الضروري أن تتوفر في الدولة الإسلامية وسائل حماية استقلالها، وحفظ دينها، وصيانة نفوس أبنائها وأموالهم وأعراضهم وذلك بأن يكون في بنية نظام الحكم هيئةٌ تتولى شئون الاستعداد للحروب، وخوضها عند الضرورة، وهم "القوات المسلحة"، حفاظاً على هيبة المسلمين، وكرامتهم وتمكيناً لعقائدهم الدينية، وهويتهم الوطنية والقومية ؛ وإنجازاً لقوله تعالى: " **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ** (٦٠) **وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** "

الأنفال: ٦٠، ٦١

وإطلاق كلمة " قوة " في الآية الكريمة تشمل كل ما استحدث في شئون الحرب مما كشف عنه التقدم العلمي والتقدم التقني وثورة التواصل، واقتران القوة في الآية الكريمة رقم ٦١ السابقة يعني أن تتكامل خطط ومشروعات الاستعداد للحرب مع الجنوح إلى السلم وكراهية الحرب، وأن الحرب في الإسلام يجب أن تكون للدفاع وليست للهجوم والبغي والعدوان

ومكروه في حرب المسلمين مع الآخرين في الدين أن يقتل إنسان مسلم أحد أبويه إن كان على غير دين الإسلام ؛ فقد روي أن حنظلة بن أبي عامر وعبد الله بن أبى بن سلول قد استأذنا النبي (e) في قتل أبويهما غير المسلمين فنهاهما الرسول عن ذلك العمل وقد ذكرنا قبلاً أن النبي (e) نهى الوالد عن قتل ولديه غير المسلمين .[١]

عقد الاتفاقات

ومما يتصل بأخلاقيات التعامل مع الآخر الديني عقد الاتفاقيات والمعاهدات التي تحفظ الحقوق المشروعة لكل فريق، وقد تتم هذه الاتفاقيات قبل وقوع حرب أو بعدها . وعلى المسلمين

---

١ انظر ص في هذا الكتاب

ألا يتهاونوا في المفاوضات التي تهيئُ لهذه المعاهدات، وأن يتأسوا فيها بقول الحق تبارك وتعالى :

- " **فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ** " محمد : ٣٥
- " **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ** " المنافقون: ٨
- " **الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** " النساء : ١٣٩

وعلى المسلمين أن يوفِّروا لهذه المفاوضات المؤهلين في السياسة واللغة والتاريخ وشئون التفاوض، وأن يُرْجع في المعاهدات قبل إبرامها إلى الأمة لمعرفة رأى عامة المواطنين وخاصتهم في فكرتها وجملتها، ونصوصها ومضامينها، وما بين سطورها، وأن يحدد العمل بما في هذه المعاهدات لآجال مناسبة لإعادة النظر فيها، فهي ليست أبدية، وليست عملاً مقدساً، وإنما هي بشرية تحتمل الخطأ والصواب، في جملتها، وفى تفريعاتها، وشروطها وملحقاتها .

الوفاء بالعهود

ومع إبرام الاتفاقات بعد اتفاق القوى المختلفة في الدولة الإسلامية عليها -يجب احترامها، والالتزام بها، وألا يُنْقَض أي مما نصت عليه إلا بعد اتفاق الطرفين ؛ تطبيقاً لقوله تعالى :

- " **بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**" التوبة:١
- " **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا** " الإسراء: ٣٤
- " **إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ** "آل عمران: ٧٧
- " **إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** "

  التوبة: ٢٤
- " **وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** " البقرة: ١٧٧

والمعاهدات التي تتم بين المسلمين والآخرين في الدين ليست ضربة لازب وإنما يجوز تعديل شروطها وتغيير قيودها، والسبيل المشروعة لمثل هذا العمل هي أن يعلن ذلك للآخر غير الديني صراحة بوسائل شتى ؛ لقوله جل شأنه :

- "**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ** "

الأنفال: ٥٨، ٥٩

- وتتوالى في هذه السورة ذاتها آيات :
- " **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** " الأنفال : ٦٠، ٦١ وهكذا تتكامل الفِطنة واليقظة لدى المسلمين مقرونة بدعوتهم إلى السلم إن جنح الآخرون إليه .

ولابد أن أسجل هنا أن غير المسلمين في الدولة لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، فمن حقهم وواجب على الأغلبية المسلمة والسلطة الحاكمة، أن تكفل لهم حرية التعبير عن عقائدهم، وإقامة شعائر دينهم، وحماية نفوسهم، وأموالهم، وأعراضهم، وكافة حقوقهم، وفاء بذمة الله تعالى وذمة رسوله (**e**) وذمة المسلمين جميعاً وذلك على النحو الذي فصلت فيه القول في الفصل السابق .

وأضيف هنا أن الحرب التي يؤسَر فيها غير المسلم مع المسلم يجب أن تنهض السلطة الحاكمة في الدولة المسلمة بواجب السعي لإطلاق سراح غير المسلمين [١] وأن تذود عنهم بنفس القدر وبذات الوسائل والطرق التي تتخذ لإطلاق سراح غير المسلمين ؛ و لأنهم وهم (غير المسلمين) جزء أصيل في الأمة الوطنية لهم للمسلمين وعليهم ما عليهم - .

التخوف من الإسلام

ولابد لي قبل أن أنهي هذا الفصل بالقول أن : الصورة التي عُرضتها في بداية هذا الفصل عن رؤية الغرب للإسلام وأهله صورة مشوهة وقاتمة في آن واحد، وهي ممثلة لرأي السياسيين ونظم الحكم ومؤسساته في الغرب، وهي فيما أرى صورة شاذة ABNORMAL توصف حقاً بأنها Islamic Phobia وتعني كلمة Phobia التخوُّف مما لا يُخيف، شأنها شأن النظر إلى الأرض من دور مرتفع في بناية عالية . ويعبَّر عن هذه الحالة بأنها " تخوُّف "سببه التخيل والتوهم، وهو أشبه

---

١ القرضاوي، يوسف (بدون)، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي . القاهرة : مؤسسة الرسالة ص ص ٩ - ١٠

وألصق بما تسميه معاجم المصطلحات النفسية الكذب المرضي Pathological Lying الذي يظل فيه الفرد يكذب ويكذب ويجافى – دونما حاجة - الحقائق ثم يُصَدِّق نفسَه أنه قال الحقيقة .

إن التخوف والتخويف من الإسلام ينبئ عن اضطراب نفسي وعقلي لدى من يصنعونه، والفعل تخوَّف فعل مطاوع من " خوَّف " أي جعل الشيء أو الفكر غير المخيف مَخُوفاً ، ومع الإلحاح في هذا الصنيع ومداومته بوسائل مختلفة يمكن أن يخاف منه البسطاء من الناس فعلا، وذلك على النحو الذي يصنعه بعض الكبار بتخويف أطفالهم الصغار من رجل الشرطة، أو من الجيران أو مما يسمونه " أبو رجل مسلوخة " التي كانت تقال لي في طفولتي في القرية لأخاف ولا أقلق الكبار .

شهادات منصفة

وتقتضي الإنصاف للغرب أن أذكر أن رؤية بعض من علمائه ومنظريه الذين اتيحت لهم فرصة الدراسة العميقة المتأنية للإسلام(المستشرقين) يرون الإسلام ديناً مُشرقاً، وأن شريعته تتضمن كثيراً من الخصوصيات التي يمكن أن تنتفع بها الإنسانية في كل زمان ومكان، وأن تتخطى من خلالها – كثيراً – من المآزق والمواقف التي يعاني منها العالم الآن .

وأستأذن أن أنقل للقارئ بعض الشهادات الموثقة في هذا الصدد وهي شهادات غربية لكوكبة من علماء الاستشراق المنصفين للدعوة الإسلامية، وغاياتها النبيلة .[١]

تضمن كتاب الدكتور محمد عمارة الذي أشرت إليه في الهامش اثنين وثلاثين شهادة، استغرقت نحو ٣٠٠ صفحة من صفحات الكتاب من ٧٣ – ٣٧٠ وسوف اقتبس هنا – بعضاً قليلاً – من تلك الشهادات التي اشتمل عليها الكتاب:

أولاً : من شهادة " **دافيد دي سانتيلانا**" : إيطالي ولد بتونس وتفقه في مذهبي مالك والإمام الشافعي، ودرس الفلسفة الإسلامية في الجامعة المصرية الأهلية سنة ١٩١٠ م قال :

- " عبثاً نحاول أن نجد أصولاً واحدة تلتقي فيها الشريعتان: الشرقية والغربية (الإسلامية والرومانية) . إن الشريعة الإسلامية ذات الحدود المرسومة، والمبادئ الثابتة لا يمكن إرجاعها أو نسبتها إلى شرائعنا وقوانيننا ؛ لأنها شريعة دينية، تغاير أفكارنا أصلاً، وقد يحصل في العادة خَلط بين ناحيتين، فالإسلام كالمسيحية أو كأي دين آخر له عقائد مخصوصة ينفرد بها، مما لا يمكن بالطبع أن يُعَرضها الذين نزلت فيهم إلى النقد والبحث،

---

١ راجع عمارة، محمد (٢٠٠٨) الإسلام في عيون غربية : بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء، القاهرة : دار الشروق . (القسم الثاني في الكتاب)

ولكن من الظلم والتجني أن نصفها بالجمود والشدة، كما لو ألصقنا بالمسيحية التهمة نفسها ؛ إذ يوجد في النظام الديني عظيم الخطر، جليل الشأن شيء أكثر من محض العقيدة " [١]

قال عن الشريعة الإسلامية :

- " ..... من بين المسائل القانونية التي غنمناها من الشريعة الإسلامية ؛ الأنظمة القانونية الخاصة بالشركة المحدودة (السهم) وبعض المصطلحات القانونية المُعينة في قانون التجارة ..... فلا شك أن المستوى الأخلاقي الرفيع الذي يسم الجانب الأكبر من شريعة العرب قد عمل على ترقية مفاهيمنا العصرية، وهنا يكمل فضل هذه الشريعة الباقي على مر الدهور ... [٢]

- " ...... إن الله وهب المرء متاع هذه الدنيا ليصلح بها حاله، ويكفي حاجته، وبمعنى آخر ليحسن الانتفاع به، لا ليبدده أو ليبعثره نزولا على أهوائه ونزواته الطارئة ....

فلو نظرنا إلى الشريعة الإسلامية المستوحاة من القرآن الكريم والعُرف لوجدناها تتجاهل ما يسمى " حق الاستعمال والتمتع " فهي ترى في كل صرف لا نفع فيه تبذيراً، وهو إثم بالنتيجة. فالسَّفه في الإسلام نوع من الخلل العقلي يحجر على كل معتل به شرعاً . هذه الشريعة حريصة على الاعتدال والقسط في كل شيء، وإتباع الطريق الوسط في أنفاق الثروة ؛ لكونه يتفق تماماً مع حكمة الشارع وطبيعة الشريعة من حكمة الله في إغداق آلائه ونعمه على البشر ...

* * *

ثانياً : من شهادة :" مونتجومرى وات Montgomery , Watt نصراني إنجليكيانى : عميد قسم الدراسات العربية في جامعة أونبره، بدأ دراسته للإسلام سنة ١٩٣٧ ودامت ثلاثين عاماً، وله نظرة حيادية لا تنحاز لأي من الديانتين – المسيحية والإسلام – على الرغم من مواصلة عيشه على أرض الواقع المسيحي وله كتاب ترجم إلى اللغة العربية [٣] .

قال عن ثراء القرآن، ومحوريته في الثقافة الإسلامية :

- "إنّ القرآن الكريم ليس بأيّ حال من الأحوال كلام محمّد، و لا هو نتاج تفكيره؛ إنّما هو كلام الله وحده، قصد به مخاطبة محمّد و معاصريه، و من هنا فإنّ محمدا ليس أكثر من "رسول"

---

١ السابق ص : ١٥٠ - ١٥١

٢ السابق ص : ١٥٢ - ١٥٣

٣ مونتجومري وات (٢٠٠١)، الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، وفى عمارة المرجع السابق ص ١٥٩ – ١٧٧

اختاره الله لحمل هذه الرّسالة إلى أهل مكّة ثمّ لكلّ العرب، و من هنا فهو قرآن عربيّ مبين، و هناك إشارات في القرآن إلى أنّه موجه للجنس البشريّ قاطبة، و قد تأكّد ذلك عمليّا بانتشار الإسلام في العالم كلّه، و قَبِلَه بشرٌ من كلّ الأجناس تقريباً ......"([١]

♦ إن التجربة النبوية مع الوحي يمكن إيجاز ملامحها الرئيسة فيما يلي :

١- محمد يشعر، وهو في حالة وعي، أن هناك كلمات بعينها تلقى في روعة أو تحضر في قلبه أو عقله الواعي .

٢- وأن هذه الكلمات والأفكار لم تكن أبدا نتيجة أي تفكير واع من جانبه.

٣- أنه يعتقد أن هذه الكلمات قد ألقيت في روعة (عقله) من قبل "مندوب " أو مبعوث خارجي يتحدث إليه كملَك .

٤- أنه يعتقد أن هذه الرسالة قادمة من الله تعالى. [٢]

♦ "في مجتمعنا المعاصر الذي يسوده جو التداخل بين الأديان يحسن بغير المسلمين أن يتجنبوا الحديث والتفكير عن القرآن باعتباره نتاج عقلية بشرية..... ولو احتفظ يهود العصر ومسيحيوه بيهوديتهم ومسيحيتهم في حالة نقاء لاعترفوا بالرسالة التي ألقاها الله إليهم عن طريق محمد تماماً كما فعل ورقة بن نوفل (١٢ ق هـ :٦١١ م) الذي أفادت الروايات أن استجابته كانت ايجابية لمحمد . ومن هنا يمكن القول إن إشارة القرآن إلى (تحريف) لحق اليهودية والمسيحية بصورتها الموجودة أيامه قولٌ صحيح."

♦ "لقد شهدت بدايات القرن العشرين موجة تقديم القرآن للقارئ الأوروبي باعتباره مختارات من أفكار اليهودية والمسيحية بالإضافة لقليل من الزيادات المحددة، ومعني هذا انتفاء الجدة والأصالة."

♦ "والواقع أن هذه النظرة من بقايا الدعاية المسيحية التي سادت فترة الحروب الصليبية عندما كان علي أوروبا الغربية التي كانت ترتعد فرائصها من جيوش الإسلام أن تقوي دفاعاتها برسم صورة زائفة عن الإسلام......."[٣]

لدينا إذن أرضية ثابتة نقف عليها باطمئنان؛ إن القرآن الكريم لم يكن مجرد ترديد لأفكار يهودية مسيحية؛ وإنما كان به إضافات تتسم بالجدة والأصالة.

---

١ عمارة، محمد . الإسلام في عيون غربية بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء . القاهرة : دار الشروق .ص ١٦٢

٢ عمارة، محمد، السابق ص ١٦٣

٣ السابق : ص ١٦٧

إن القرآن يحظى بقبول واسع لأنه يتناول القضايا الإنسانية الأساسية، ولقد كان إحكـــام النظرة العالمية للإسلام (كونه ديناً عالمي النزعة) مما جعله يستوعب تراث المسيحية الباقي بين شعوب الشرق الأوسط التي كانت مسيحية، ومن هنا فقد أصـــبح المفكـــرون المسلمون هم حملة الثقافة العقلية لكل المنطقة [١]

وقال عن اللغة العربية بوصفها حضارة وثقافة متميزة ما يلي :

- " إن اللغة العربية ليست لغة صحراوية بالمعنى الضيق للكلمة ؛ فالروايات التـــي لا تخلو من حقائق تخبرنا عن حياة زراعية باكرة قبل أن تشرع المنطقـــة فـــي التصحر، كما تخبرنا عن انهيار نظام الري في اليمن، وهجرة قبائل مختلفة مـــن هذا اليمن الذي كان سعيداً .([٢]
- ..... إن اللغة العربية قد ارتبطت بوسط ثقافي خاص يمتاز بكثير من الملامـــح التي تميزه عن الأوساط الثقافية الأخرى . وهذه الحقيقة ذات أهمية كبـــرى فـــي عالم متداخل الأديان ؛ إنها تعنى لا وجود لنمط إنسان معياري standerman أي أن هناك أنماطا كثيرة يمثل كل نمط منها منطقة ثقافية أو حضارة مجددة [٣]

ثالثاً : من شهادة المستشرقة الألمانية الشهيرة " سيجريد هونكه "

ولدت في ألمانيا عام ١٩١٣م وقامت بتدريس الفلسفة، وعلم النفس الجمعي للشعوب، وعلم مقارنـــة الأديان، وآداب اللغة الألمانية، وتاريخ القرون الوسطى في العديد من الجامعـــات . ومـــن أعمالهـــا الفكرية ما يلي :

١- "شمس الله تسطع على الغرب" (١٩٦٠) ترجم إلى اللغة العربية بعنوان فضل العرب على أوروبا ١٩٦٤

٢- "العقيدة والمعرفة"، صدرت ترجمة إلى العربية عام ١٩٨٧ ترجمة في دمشق " عمر لطفي العامر

---

١ السابق مونتجومرى ص ٣٤، ٣٥، ٣٩، ٤٠ وفى عمارة السابق ١٦٣

٢ عمارة، السابق

٣ السابق ص ٦٥

٣- "الله ليس كذلك"، كتبته في سبعينيات القرن العشرين، وترجم إلى العربية في القاهرة غريب محمد غريب عام ١٩٩٥

عضو شرف بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية في مصر، وحاملة وسام الاستحقاق والتقدير المصري من الطبقة الرفيعة في العلوم والفنون سنة ١٩٨٨م [١]

قالت عن سماحة الإسلام والجهاد الإسلامي :

- "إن سماحة النفس العربية وتسامحها الآسر الغامر الذي نما في ثرى تلك القارة (أوروبا) تحت ظلال الحضارة العربية الفريدة، كان له أبلغ الأثر في ازدهار إسبانيا العربية (آنذاك) [٢]
- إن الجهاد الإسلامي ليس هو ما نطلق عليه -ببساطة- مصطلح الحرب المقدسة في الجهاد؛ فالجهاد كما يذكر الألماني المسلم أحمد شميده : هو كل سعي مبذول، وكل اجتهاد مقبول، وكل تثبيت للإسلام في أنفسنا، حتى نتمكن في هذه الحياة الدنيا من خوض الصراع اليومي المتجدد أبدًا ضد القوى الأمارة بالسوء في أنفسنا، و في البيئة المحيطة بنا عالميًّا، فالجهاد هو المنبع الذي لا ينقص، والذي ينهل منه المسلم مستمدًّا الطاقة التي تؤهِّله لتحمل مسئوليته، خاضعًا لإرادة الله عن وعي ويقين.
- "إن الجهاد بمثابة التأهب اليقظ الدائم للأمة الإسلامية للدفاع؛ بردع كافة القوى المعادية التي تقف في وجه تحقيق ما شرعه الإسلام من نظام اجتماعي إسلامي في ديار الإسلام" [٣]
- "......واليوم، وبعد انصرام ألف ومائتي عام لا يزال الغرب النصراني متمسكاً بالحكايات الخرافية المختلفة التي كانت الجدات يروينها ؛ حيث زعم مختلقون أن الجيوش العربية بعد موت محمد نشرت الإسلام " بالنار وبحد السيف البتار " من الهند إلى المحيط الأطلنطي !! ويلح الغرب على ذلك بكافة السبل المنطوقة والمكتوبة، وفي الجرائد والمجلات، والكتب والمنشورات وفي الرأي العام، بل في أحداث حملات الدعاية ضد الإسلام ".

...... **(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)** : تلك هي كلمة القرآن الملزمة كما ترد في الآية السادسة والخمسين بعد المائتين من سورة البقرة .. فلم يكن الهدف والمغزى للفتوحات العربية نشر الدين الإسلامي، وإنما بسط سلطان الله في أرضه، فكان للنصراني أن يظل نصرانياً

---

١ عمارة، محمد : الإسلام في عيون غربية (مرجع سابق) ص ٣١٩ - ٣٢٠

٢ السابق ص ٣٢٢

٣ سيجريد هونكه (١٩٩٥)، الله ليس كذلك، ترجمة غريب محمد غريب، طبعة القاهرة ص ٣٠، ٢٠، ٢٥، ٣٣ وفى عمارة (المرجع السابق) ص ٣٢٢، ٣٢٥

ولليهودي أن يظل يهودياً . كما كانوا من قبل – ولم يمنعهم أحد أن يؤدوا شعائر دينهم، وما كان الإسلام يبيح لأحد أن يفعل ذلك ... ولم يكن أحد ليُنزِل أذى أو ضـــرراً بأحبـــارهم أو قساوستهم ومراجعهم، وبيعهم، وصوامعهم، وكنائسهم......

.. إن سحر أسلوب المعيشة العربي ذاك قد اجتذب إلى فلكه الصليبيين إبان وقت قصير، كما تؤكد شهادة الفارس الفرنسي" فوليتر الشارتي " " وها نحن الذين كنا أبناء الغرب قد صـــرنا شرقيين " .... بهذا انتشر الإسلام ..و ليس بالسيف .. أو بالإكراه. [١]

أما بعد :

فما أوردت هنا من اقتباسات من كتابات بعض المستشرقين ليس إلا قَبسة مـــن نـــور كثيـــر ومتزايد بفضل الله، وبفضل المخلصين الموضوعيين من علماء الغرب المستشرقين الـــذين قضـــوا رَدْحَاً طويلاً من عمرهم وقدراً كبيراً من جهدهم في تبيين الحقائق الناصعة في الثقافة الإسلامية وفى المنهج الإسلامي للحياة .

وقد أردت بهذه القبسة أن أوجه انتباه الباحثين في الدراسات الإسلامية وفى "أسلمة المعرفة" في سائر المجالات أن يستيقنوا أن ثمة جانباً أو طاقة نيرة ومنيرة في ثنايا الفكر الغربي، ويجب علينا أن نعرفها، ونحللها، ونحسن استخدامها، وأن نتذكر دائماً قول الله سبحانه وتعالى :

- **" يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَـــرِهَ الْكَـــافِرُونَ "** التوبة : ٣٢
- **" وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَـــيْءٍ قَـــدِيرٌ "** البقرة: ١٠٩
- **" وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آَيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٣٤) اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ "** النور: ٢٤، ٢٥

---

١ المرجع السابق لهونكه ص ٤٠ - ٤٣

الخلاصة

وأود أن أخلص من كل ما سبق إلى القول إن الغرب كله لا يصبح ويمسي بالسؤال : كيف نحارب الإسلام ؟ ؛ إذ إن أعداداً كبيرة من المسلمين والعرب تقيم في أمريكا وفي بلاد أوروبا، وغدوا مواطنين في تلك البلاد التي يعملون فيها . وهؤلاء يمارسون في تلك البلاد شعائرهم الدينية بحرية – بدرجات مختلفة -، ويؤثرون في محيطهم ؛ حيث يعتنق بعض غير المسلمين الإسلام، ففي الدنمارك (مثلاً)محجبات يمارسن حياتهن في الشوارع والأسواق دون أن يتوقف مواطن دنماركي بالتعليق أو الاستنكار لهذا المظهر، كما أن حكومة الدنمارك قد أقرت تشريعات تلزم المحلات والمطاعم بتعليق لافتة (حلال) على الأطعمة والأشربة حتى لا يتناول المسلم ما يتنافى مع أوامر شريعته في الطعام .

هذا وتكفل الأحزاب اليسارية في الدنمارك بتبني داخل الدنمارك وخارجها شعارات إيجابية بالنسبة للقضايا العربية والإسلامية، وخاصة " قضية فلسطين " ويصف " وائل قنديل " تعميم فرضية معاداة الغرب لما هو عربي أو إسلامي بأنها نوع من " البلادة العقلية " التي تعفي من يقولون بها من عمليات التفكير والعمل والحوار بما يؤدي إلى تطبيع العلاقات بين الغرب والإسلام [١]

---

١ وائل قنديل، احتقار الثورة بشعارات ثورية، صحيفة الشروق القاهرية في ١٩ / ٩ / ٢٠١١م ص ٤

الفصل العاشر

نحو أخلاق عالمية

(دعوة مضطربة)

نحو أخلاق عالمية (دعوة مضطربة)

هذا الفصل هو خاتمة هذا الكتاب. وسوف أحاول فيه أن أشرك قراءه في **قضية** دار حولها نقاش طويل منذ بداية العقد الأخير من القرن الماضي تحت عناوين مختلفة مثل " حوار الحضـــارات "، " حوار الثقافات "، و " الحوار بين الأديان " .

ولا يزال الجدل حولها قائماً حتى اليوم، وعقدت حول هذا الموضوع ندوات ومؤتمرات داخـــل العالم العربي وفى الفاتيكان، وفي الولايات المتحدة الأمريكية . وسوف أنتقي من هـــذه المـــؤتمرات مؤتمرين، عقد أولهما في كلورادو في أمريكا الشمالية في مايو ١٩٧٨، عرض فيه أربعون بحثـــاً، وتمت ترجمة بعض هذه البحوث " والبروتوكولات " الصادرة عنه إلى اللغة العربية ١٩٩١ م [١] أي بعد ١٣ عاماً من انعقاد المؤتمر .

وعقد المؤتمر الثاني في شيكاجو ؛ نظمه ما سمي " برلمان ديانات العالم " وصدر عنه فـــي ٤ سبتمبر عام ١٩٩٣ م بيان تحت عنوان " من أجل أخلاق عالمية " ([٢]) واخترت هذين المؤتمرين – دون غيرهما – لسببين :

١- أن المسافة الزمنية بينهما بلغت خمس عشرة عاماً، وهي مدة طويلة يمكن أن تحـــدث فيهـــا تغييرات أو تحولات في اتجاه الأفراد والجهات المعنية بأمر " حـــوار الأديـــان " يجـــب أن يتعرفها المعنيون بالأخلاق في منظور إسلامي .
٢- اكتشفت من قراءاتي المتأنية لما صدر عن المؤتمرين أن تحولاً كبيراً قد حـــدث فعـــلاً ؛ رأيت أن يشترك قراء هذا الكتاب في تقدير مغزاه، وهو تحول حادث في الفكر النظري، ولا يعني ذلك إنه قد تجسد في واقع جديد ؛ إنه محاولة لاستشراف مســـتقبل أفضـــل للعـــالم ؛ وتحقيق ما قيل عنه يتطلب جهوداً محلية وطنية واقليمية وجهوداً عالمية في نطاق العالم كله .

وأبادر بتأكيد أن ما سأقوله تعليقاً على الوثائق الصادرة عن المؤتمرين رأي شخصـــي، اجتهدت فيه قدر وسعي ؛ وليس مصادرة على حق القارئ في أن يكـــوِّن رأيـــه الخـــاص فـــي موضوع " نحو أخلاق عالمية " ٣- وسوف أنهي هذا الفصل باستعراض ما يقال عـــن وَهْـــم

١ مركز دراسات العالم الإسلامي (١٩٩١) التنصير خطوة لغزو العالم الإسلامي مالطا : مركز دراسات العالم الإسلامي .

٢ انظر مجلة " الأمة الوسط " مجلة فصلية، يصدرها الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، السنة الأولى، العدد الأول (٢٠٠٩) ص ص ٣٥٩ – ٣٨٠

منظمة الأديان المتحدة "وهكذا يعرض هذا الفصل في ثلاث نقاط مفصلية فيما وسمته بعنوان "نحو أخلاق عالمية". وسوف أضع عنواناً من عندي لكل اقتباس :

أولاً : بروتوكولات مؤتمر كلورادو (دعوة لتنصير المسلمين)

ليس في المادة المتاحة لي – الآن – عن ذلك المؤتمر ذكر للهيئة التي نظمته، أو عن ممثلي الديانات التي دعيت إليه، أو شاركت في مناقشاته العامة، أو في مناقشة بحوثه وأشك كثيراً في أن تكون مؤسسة أو جماعة إسلامية قد شارك فيه، إذ إن نقطة الارتكاز في ذلك المؤتمر – كما استخلصت من قراءة بيانه النهائي – عدائية بصورة حادة ومجحفة للإسلام والمسلمين . وإليك عينة مما صدر عن هذا المؤتمر من مفتريات فقد قيل عن :

§ الإسلام

" هو الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية، وهو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعيا، والنصارى بحاجة إلى مئات المراكز لفهم الإسلام، ولاختراقه في صدق ودهاء، ولذلك لا يوجد لدينا أمر أكثر أهمية من تنصير المسلمين (١)

§ تعاون الكنائس المحلية

" .. ولذلك فعلى مديري إرساليات أمريكا الشمالية والقادة المُنصِّرين الآخرين أن يكتشفوا ويوطدوا أساليب جديدة للتعاون والمشاركة مع كنائس العالم الثالث في عملها المنظم ؛ للوصول إلى المسلمين . لقد وطّدنا العزم على العمل بالاعتماد المتبادل مع الكنائس الموجودة في العالم الإسلامي....إن نصارى البروتستانت- في الشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا- منهمكون بصورة عميقة في عملية تنصير المسلمين.... ويجب أن تخرج الكنائس القومية من عزلتها، وتقتحم بعزم جديد ثقافات ومجتمعات المسلمين الذين تسعى إلى تنصيرهم، وعلى المواطنين النصارى في البلدان الإسلامية وإرساليات التنصير الأجنبية العمل معاً، بروح تامة من أجل الاعتماد المتبادل والتعاون المشترك لتنصير المسلمين" [٢]

دعوة لتنصير المسلمين

هذا وقد خُيِّل إليَّ وأنا أقرأ هذا الكلام أنه البيان الأول لإعلان الحرب ضد الإسلام وتجيش النصارى الأقربين والأبعدين للانتظام في صفوف الحرب، وأحسب أن من يقول مثل ما قدمت، يسبح

---

١ انظر : مركز دراسات العالم الإسلامي (١٩٩١) الترجمة العربية لوثائق مؤتمر كلورادو " التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي " مالطا : مركز دراسات العالم الإسلامي، ص ٢٢، ٢٣

٢ السابق : ص ٤، ٥، ٥٣، ٥٦ وفي عمارة، محمد، الإسلام والآخر، مرجع سابق ص ١٢٤

في فضاء الجهالة العمياء . وصدق الله العظيم : " **وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** " البقرة : ١٠٩

ونعود إلى متابعة هذا الإفك العظيم الذي جاء عن مؤتمر كلورادو

§ النصارى العرب

" ..... يجب أن يتم كسب المسلمين عن طريق منصِّرين مقبولين من داخل مجتمعاتهم، ويفضل النصارى العرب في عملية التنصير .. إن تنصير هذه البلاد سوف يتم من خلال النصارى المنتمين إلى الكنيسة المحلية، ويتم ذلك بعد تكوين جالية محلية نصرانية قوية .... " (١)

§ زرع مشاتل للتنصير

" يتزايد اطراد عدد المسلمين الذين يسافرون إلى الغرب، وهم يفتقرون إلى الدعم الذي توفره المجتمعات الإسلامية، ويعيشون في الغرب نمطاً مختلفاً في ظل الثقافة العَلمانية دون أن تتعرض أغلبيتهم للتأثير في عقيدتهم الدينية . وإذا كانت تربة بلادهم صلبة ووعرة – أفليس بالإمكان إيجاد مزارع خصبة من المسلمين المشتتين خارج بلادهم ؟ حيث يتم الزرع والسقي والتهيئة لعمل فعَّال عندما يعاد زَرْعهم ثانية في بلادهم كمنصَّرين ؟!! (٢)

§ خلق الأزمات وصناعة الكوارث

" "لكي يكون هناك تحول إلى النصرانية - لابد من وجود أزمات ومشكلات، وعوامل تدفع الناس- أفراداً وجماعات- خارج حالة التوازن التي اعتادوها... وقد تأتي هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية كالفقر والمرض والكوارث والحروب، وقد تكون معنوية كالتفرقة العنصرية، أو الوضع الاجتماعي المتدني... وفي غياب مثل هذه الأوضاع المُهيئة، فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانية .. إن تقديم العون لذوي الحاجة قد أصبح أمراً مهماً في عملية التنصير. وإن إحدى معجزات عصرنا أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد

---

١ السابق : ص ٦٣ وفى عمارة السابق : ١٢٤

٢ السابق : ص ٢٤، ٢٦، ٣٨، وفى عمارة، محمد، مرجع سابق ص ١٢٦

بدّلت موقف حكوماتها التي كانت تناهض العمل التنصيري ؛ فأصبحت أكثر تقبلا للنصارى ...!! " [١]

§ مجلس الكنائس العالمي

" .... إن بيانات مجلس الكنائس العالمي التي تشدد في الحوار على حرية " الإقناع والاقتناع " لا تعني تخلى المجلس عن مواقفه المناصرة للجهود " القَسْرية والواعية والمتعمدة والتكنيكية لجذب الناس من مجتمع ديني إلى مجتمع ديني آخر " [٢]

وأكتفي بما قدمت من هذا الغثاء الفكري، والإفك والزور من القول لأقول:

لا يعجبنَّ أحد من موقف النصرانية البروتستانتية من الآخر الديني ومن الإسلام بوجه خاص، فقد أسس له رأس البروتستانت " مارتن لوثر " في مقولة له أشرنا إليها قبلاً [٣] .

وليست الكاثوليكية الغربية بعيدة عن إنكار الآخر الإسلامي ومحوه من الوجود ؛ فهي صاحبة الكلمة المسموعة في " مجلس الكنائس العالمي " وقد أعلنت الكاثوليكية الغربية يوماً أنها عازمة على تنصير المسلمين في أفريقيا، وأذاعت شعار " أفريقيا نصرانية عام ٢٠٠٠ " وخيَّب الله آمالها ؛ فحركت تاريخ اكتمال نصرانية أفريقيا ليكون عام ٢٠٢٥ وهى جارية على نهج أحد فلاسفتها " توماس الاكويني " في معاداة الآخر الإسلامي وإلغائه [٤]

ثانياً : بيان من أجل أخلاق عالمية

صدر هذا البيان بعد انعقاد مؤتمر كلورادو بخمس عشرة سنة (مايو ١٩٧٨ – سبتمبر ١٩٩٣) عن ما سُمِّي " برلمان ديانات العالم " في ٤ سبتمبر ١٩٩٣ .

وحضر هذا المؤتمر ممثلون عن هيئات تنتمي إلى الديانات الرسالية الثلاثة " اليهودية والمسيحية والإسلام "، ويستخلص من قراءة البيان أن أفراداً ومؤسسات تنتمي إلى الأديان الوضعية في العالم في الهند، وفى اليابان، وفى الصين وفي جنوب شرق آسيا ساهموا في مناقشات ذلك المؤتمر،

---

١ السابق ص ٧٧ وفى عمارة، محمد، مرجع سابق ١٢٧

٢ السابق ص ٧٧ وفي عمارة،محمد، مرجع سابق ١٢٧

٣ انظر ص ص هذا الكتاب

٤ عمارة، محمد، الإسلام والآخر، مرجع سابق ص ١٢٨

ونشرت ترجمة البيان باللغة العربية عام ٢٠٠٩ [١] وسأحاول أن أقتبس بعض ما قيل في هذا البيان .

وقد عكفت على تأمل هذا البيان وقتاً كافياً، ونظراً لطوله حاولت أن اقتبس منه العبارات التي رأيتها أساسية وجوهرية فيه، وأهملت ما يمكن أن يعد تفسيراً أو توضيحاً أو تكراراً أو إطناباً، كما أحدثت عناوين من عندي للفقرات المقتبسة وإليك هذه المقتبسات :

§ تشخيص الوضع الراهن في العالم :

" إن العالم في حالة احتضار مأساوي .. إن السلام يكاد يُفلت من أيدينا .. ودمار كوكبنا يتوالى .. إننا ندين استغلال النظام البيئي في كوكبنا، وندين الفقر والمجاعة والتفاوتات الاقتصادية التي تهدد العديد من الأسر، وندين الفوضى الاجتماعية السائدة في بلادنا،... والاستخفاف بالعدالة الذي يحبس المواطنين في حياة هامشية، وندين الضعف الذي يحصد الأطفال عبثا، وندين-خاصة - ما يجري من عدوانية وكراهية باسم الدين " **البيان ص ص ٣٥٩ – ٣٦٠**

" .. عالمنا يجتاز أزمة في الاقتصاد وفي البيئة وفي السياسة الدولية، ونشهد آسفين غياب الرؤية الكاملة ... مشاكلنا يديرها سياسيون خاملون لا ينشغلون بالصالح العام، وينقصهم الذكاء والنظرة البعيدة لمواجهة التحديات .

" على كوكبنا مئات الملايين يعانون من البطالة والفقر والتوترات. ويزداد عدد الدول التي يتزعزع كيانها بالرشوة السياسية والاقتصادية والصراعات الاجتماعية والثقافية والعنصرية والمخدرات والجريمة المنظمة "

.. غالبا ما يستعمل الدين للوصول إلى السلطة السياسية أو لغايات حربية وكل ذلك يثير اشمئزازنا..إننا نشهر بكل هذه الأفعال الشنيعة "

البيان ص ٣٦٢ – ٣٦٣

" وهذا الاحتضار ليس قدراً محتوماً ؛ لأننا نمتلك أساساً أخلاقياً يمكن أن يخلص الناس من اليأس، ويحمي مجتمعاتنا من الفوضى – إننا رجالاً ونساء نؤمن بالوصايا وبالممارسة التي جاءت في مختلف الأديان، ونقتسم في تعاليمنا نواة مشتركة من القيم الجوهرية التي تشكل أساساً تقام عليه أخلاق عالمية، وينبغي أ نعيش هذه الحقيقة في قلوبنا وفى أفعالنا ".

---

١ الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين (٢٠٠٩) الأمة الوسط، مجلة فصلية، السنة الأولى، العدد الأول " بيان من اجل أخلاق عالمية " ص ص ٣٥٩ - ٣٨٠

وكل واحد منا سعادته مرهونة بسعادة الجميع؛ ولهذا نحترم جميع البشر وجميع الكائنات الحية، وكل حيوان ونبات، ونهتم بالحفاظ على كوكبنا وعلى هوائه ومائه وأرضه " **ص ٣٦٠**

§ نؤمن ونتعهد

" باحترام حياة الآخرين – بدون استثناء – وكرامتهم، وفرديتهم، واختلافهم عنا، ويجب علينا أن نتخلى عن الخصومات، ونمارس ثقافة التضامن والعلاقات المتبادلة ... ولا ينبغي أن ننظر إلى أحد أو نعامله كمواطن من الدرجة الثانية .. وينبغي أن تتسم العلاقة بين الرجل والمرأة بشراكة عادلة، وأن نتخلى عن كل أشكال الهيمنة والخداع والكذب .

... نتعهد بأن نُشيِّد ثقافة قائمة على عدم العنف والاحترام والعدالة والسلام، وأن نبذل جهوداً لإقامة نظام اقتصادي واجتماعي عادل، رافضين كل تحيز، متجنبين كل مظاهر الكراهية، وأن نتغلب على حرصنا على امتلاك السلطة، والنفوذ واللهفة على المال، وفرط الاستهلاك، وأن نؤسس لعالم قائم على العدل والسلام .

... من الوهم أن نظن أننا نستطيع تحويل العالم إلى عالم أفضل دون أن نغيِّر بادئ ذي بدء شعور الناس، ودون أن نوسِّع مجال إدراكنا، وما نقبل التعرض لمخاطر وتضحيات فإن وضعنا الحالي لن يتغير أبداً " ص ٣٦١ – ٣٦٢

§ مبادئ لأخلاق عالمية

" نؤمن أنه لا نظام عالمياً بدون أخلاق عالمية ؛ ولذا فإننا

... نتوجه – إذن – إلى جميع البشر "**مؤمنين وغير مؤمنين** " نعبر عن اقتناعنا المشترك :

- نحن جميعاً نتحمل مسئولية السعي إلى نظام عالمي، يلتزم بخدمة حقوق الإنسان، والحرية، والعدالة، والسلام، وحماية كوكب الأرض .
- "تنوع التقاليد الدينية والثقافية لا يمكن أن يمنعنا جميعا من مجابهة التحديات غير الإنسانية بحزم، وبروح أكثر إنسانية."
- "تستمد من اتجاهنا الديني والروحي أقصى مدد لتحمل مسئولية خاصة من أجل رفاهية الإنسانية بأسرها وكامل كوكبنا "
- " لا نعد أنفسنا أفضل من غيرنا، ولكننا واثقون أن حكمة الديانات ستضع لنا معالم طريقنا إلى المستقبل."

البيان ص ٣٦٤

- " أفضل نظام عالمي لا يمكن أن يشكل، أو أن يُفرَض على الناس بقـوة القـوانين والقرارات والاتفاقيات وحدها؛ بل لابد من وجود أشخاص مخلصين لنصرة القانون ؛ يلتزمون بالحقوق والحريات والشعور بالمسئولية الأخلاقية "
- " نحن لا نعبث بالأخلاق العالمية، ونؤمن بأنه لا أيديولوجية جديدة خـارج جميـع الديانات الموجودة،ونحن مقتنعون بأن التقاليد الدينية والأخلاقية تحمل فـي ثناياهـا أخلاقاً في متناولنا جميعا، وأنها صالحة لكل الناس ذوى الإرادة الحسـنة **مـؤمنين كانوا أو غير مؤمنين** ولا يعنى هذا أن نستر المميزات الخاصـة والعميقـة لكـل ديانة،ولا يمنعنا هذا من أن نَصْدع بما تتقاسمه وتؤكده الديانات في القواعد الأساسية لكل منها . "

البيان ص ٣٦٧

- تستطيع (الديانات) أن تصل إلى ما تعجز المخططات الاقتصادية والبرامج السياسية والتنظيمات القانونية عن انجازه **وهو تغيير المواقف الذاتية والذهنية**، وهذا يتطلب – أيضاً – تجديداً روحياً عاجلاً، وأن نتخلى عن كل الضغائن والارتياب والأفكـار السابقة المصبوبة في قوالب جامدة "
- " إن عديداً من البشر لا يزالون يُعاملون معاملة غير إنسـانية : محرومـون مـن حظوظهم في الحياة، وحقوقهم الإنسانية تُداس بلا رعاية لكرامتهم، ولكن القوة ليست هي القانون، وقناعتنا الدينية والأخلاقية تقضي أن يعامل كل كائن بشـري معاملـة إنسانية " **البيان ص ٣٦٧ -٣٦٨**

في المجال الاقتصادي

§ " ينبغي لمعاهد البحث والمؤسسات الاقتصادية والصناعة أن تعتبر الكائن البشري غايـة في ذاته ولذاته، وألا يكون شيئاً أو مجرد وسيلة : في خدمة التجارة والصناعة ؛ فلا أحد يكون أبداً فوق معيار الخير والشر : لا الفرد . ولا الطبقـة الاجتماعيـة، ولا أربـاب المصالح، ولا اتحـاد الشـركات، ولا الجهـاز الأمنـي، ولا الجـيش ولا الدولـة " البيان ص ٣٦٨

§ " إن الأنانية – مهما يكن نوعها – فردية أو جماعية يجب أن تُرفض، إننـــا نـــدينها، إن تحقيق ذواتنا حق مشروع ؛ ولكنه لا ينفصل عن مسئوليتنا تجاه كل كائن بشري، وتجـــاه كوكبنا .

وهذا المبدأ قائم في أغلب الديانات . ويقتضي :

١- " الالتزام بثقافة عدم العنف، واحترام الحياة، ونبذ الكراهية والشهوات والحسد بـــين الأفراد والجماعات والثقافات والديانات، ورفض الرعب الآتي من أعلى الذي يسلط فيه الحكام المستبدون عدوانهم على شعوبهم .... وليس لأحد الحق في أن يضـــرب كائناً بشرياً، أو أن يَجرحه أو يقتله،وليس لأي شعب أو دولة أو جنس أو دين حق في ممارسة التمييز أو التطهير العرقي أو النفي لأقلية تخالفهم في الفكـــر أو الاعتقـــاد" البيان ٣٧٠

٢- الالتزام بثقافة التضامن في نظام اقتصادي عادل، فعالم اليوم تطفـــح فيـــه المجاعـــة والبطالة والفقر والبؤس .. ويقع ذلك في الأغلب بسبب ما في مجتمعاتنا من بنيـــات جائرة، تستغل الناس للعمل بأجور غير كافية، ويوجد في كثير من البلدان تفاوتـــات ضخمة بين الفقراء والأغنياء، وبين من يمتلكون السلطة والمحرومين منهـــا، وبـــين الرأسمالية الجامحة والاشتراكية المستبدة، وبهذا دمرنا كثيراً مـــن القـــيم الأخلاقيـــة والروحية . "   البيان: ص ٣٧١ – ٣٧٢

إن التقاليد الدينية والأخلاقية أمرت ألا نسرق وألا نخون، وألا تمس ملكيـــة شـــخص أو جماعة أو مجتمع كما أنه لا يحق لأحد أن يتصرف فيما يملـــك دون اعتبـــار لحاجـــات المجتمع والعالم، ولكننا نشهد سرطان الفساد يجتاح المجتمع في البلاد النامية المصنعة.

البيان: ص ٣٧٢

§يجب علينا أن نعيد هيكلة النظام العالمي في اتجاه عدالة أكثر، وأن نميِّز بين الاستهلاك الضروري والاستهلاك الجامح .... وبين اقتصاد السوق المنتجة نحـــو الـــربح فقـــط، واقتصاد السوق ذي القيمة الاجتماعية والبيئية "   البيان ٣٧٣

§يجب أن نجعل السلطة الاقتصادية والسياسية في خدمة البشرية،بدلاً من أن نستغلها في صراع وحشي من أجل الهيمنة والسيطرة .

§يجب تقوية روح الاحترام المتبادل،وأن يكون حافز للسلوك الشـــعور بالاعتـــدال مـــع التواضع بدلاً من تلهف لا يرتوي صاحبه على المال والنفـــوذ والاســـتهلاك ..هنـــاك سياسيون ورجال أعمال يستخدمون الكتب أداة لهم في سبيل النجاح .**البيان(٣٧٤)**

§إننا نعهد الدول والسياسيين بإدارة شئوننا، وأنهم عندما يكذبون أو يتلاعبون بالحقائق أو يتعاملون بالرِشوة، أو يمارسون سياسة قاسية جافية تنهار مصداقيتهم، ويستحقون أن يتخلى الناس عنهم ويستبدلون بهم من هم جديرون بمساندة الرأي العام .

البيان (٣٧٥)

عن الإعلام والعلماء والفنانين

§" هناك وسائل إعلام تجعل الدعاية الأيديولوجية هدفاً بدلاً من التحقيق الموضوعي وتستبدل بأمانة عرض الحقائق مصالح تجارية بذيئة، وعلى العاملين في وسائل الإعلام أن يعملوا بحرية لنشر الحقائق، وأن يجعلوا نصب أعينهم كرامة الأشخاص وحقوقهم، والقيم الإنسانية الموضوعية، وألا يتلاعبوا بالرأي العام .

§" وهناك رجال علم، وباحثون يجعلون أنفسهم رهائن لبرامج أيديولوجية أو سياسية تدفعها مصالح اقتصادية أو يبررون أبحاثاً تسئ إلى القيم الأخلاقية الأساسية "

§" إننا نعهد للفنانين والكتَّاب ورجال العلم بالحرية الفنية والعلمية والفكرية ولكنهم ليسوا متحررين من المعايير الأخلاقية العامة ؛ بل عليهم جميعاً أن يخدموا الحقيقة . **البيان(٣٧٥)**

تساوي الحقوق والمشاركين من الجنسين

§" إن عالم اليوم يزخر بأشكال سيئة من ذهنية الأبوة، أو هيمنة جنس على آخر ..إننا ندين كلا من الاستغلال الجنسي، والتمييز الجنسي ؛ فهما من أفظع أشكال انحطاط الإنسان .

البيان(٣٧٧)

§"الزواج مؤسسة اجتماعية،وعلى الرغم من تنوع مظاهرها الدينية والثقافية فإنها تتميز بالحب والإخلاص والاستمرارية، وواجب علينا أن نطمح إلى حماية الرجل والمرأة والأطفال، وأن تُهيأ للأسرة كل الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي تتيح لكل أفرادها حياة كريمة. **البيان (٣٧٧ – ٣٧٨)**

التطوير ظاهرة كلية

§" إن التاريخ يشهد بأن أراضنا لا يمكن أن تتحول إلى واقع أفضل إلا إذا تطورت الضمائر على مستوى الأفراد ومستوى المجتمع – وهذا التحول يتحقق في مجالات

الحرب والسِلم والاقتصاد والنظام البيئي .. وينبغي أن يجري هذا التحول في الأخلاق والقيم ؛ وينبغي ألا يستمتع الفرد بكرامته وحقوقه الذاتية فحسب، ولكنه عليه أن يتحمل مسئولية ما يفعل أو يترك، أو يقرر، وأن يتحمل ما يترتب على تصرفاته من نتائج وعواقب ؛ إنها روح المسئولية الاجتماعية والإنسانية التي يجب أن تبقى حية، وتتناقلها الأجيال والأديان تتحمل جزءاً كبيراً في هذه المسئولية " البيان ٣٧٩

- § " ..من الصعب أن يحصل إجماع كُلِّي حول أخلاقيات الحياة الجنسية أو الإعلام أو الاقتصاد أو السياسة، إلا أنه من الممكن أن نصل بروح المبادئ التي شرحناها لاكتشاف حلول ملائمة " **البيان ص ٣٨٠**
- § " ..لقد استيقظ شعور جديد بالمسئولية الأخلاقية في عدد من الميادين ؛ وسنكون أكثر سعادة إذا ما بادر عدد أكبر من أصحاب المهن (أطباء – علماء – اقتصاديون – صحفيون – سياسيون) بوضع مواثيق أخلاقية ؛ تقدم إرشادات ملموسة بشأن المشكلات التي تحدث في مجالات عملهم " البيان ٣٨٠
- § ".. ندعو مختلف **جماعات المؤمنين** – بخاصة – أن يصوغوا الأخلاق التي يمكن أن يقولها كل دين في شأن : مغزى الحياة والموت، والألم والسماحة، والنزاهة، والتعفف، والرحمة، والسرور ... وسوف يساعد كل هذا على تعميق الأخلاق العالمية التي بدأت تلوح تباشيرها .
- § " .. إننا ندعو جميع الرجال والنساء **مؤمنين وغير مؤمنين** أن يتعهدوا بما تعهدنا به " **البيان ص ٣٨٠**

تعقيب

بعد هذه الوقفة الطويلة مع بيان " من أجل أخلاقيات عالمية " فإننا نقول بصدد الفكرة التي دعت إليه، وبصدد ما جاء فيه ما يلي :

١ - البيان مكتوب بروح إنسانية دقيقة وصريحة ؛ فقد اتضح في ثناياه الإشارة إلى التمييز بين الديانات الإلهية الرسالية المؤمنة والديانات الوضعية وفي التصور الإسلامي ما يسمح بإطلاق كلمة دين على البوذية والهندوسية ؛ فقد وصف القرآن الكريم صنيع المشركين الوثنيين بأنه دين " **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ** (١) **لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ** (٢) **وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** (٣) **وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ** (٤) **وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** (٥) **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**(٦)"الكافرون ١ - ٦

٢- وأقر البيان بأن لكل من الأديان الإلهية " خصوصيات " يجب أن تراعى دائما وألا تستتر، كما دعا أهل الديانات الموحى بها من الله أن يتوفروا على إبراز تصور كل دين للممارسات الأخلاقية في مجالات الحياة الدنيا لتكون مواثيق يلتزم بها الناس .

٣- دعا البيان إلى توظيف الأخلاق الدينية في حياة الناس في كافة مجالات عملهم، وإلى اتخاذها معايير للحكم على سلوك الأفراد والجماعات، وأبطل بطريقة غير مباشرة مقولات عن فصل الدين عن الحياة وعن السياسات الاقتصادية والاجتماعية المحلية والدولية في المستويات المحلية والإقليمية والعالمية .

٤- هذا، وأحمد الله العلي القدير أن ألهمني في تصميم بنية هذا الكتاب بفصوله المختلفة وفي مضامينها أن أعرض التصور الإسلامي للأخلاق في إطار إنساني وعالمي شامل بوصف أنه دين عالمي، خطابه موجه إلى كل الناس، وليس إلى المسلمين أو العرب وحدهم، متجاوزاً الزمان والمكان، والأعراف، والألوان . أقول هذا تحدثاً بفضل الله وهدايته، وليس مصادرة على رأي من قد يختلفون معي في هذا التقدير . وقد كتب كثيرون عن نهج الإسلام بديلاً للنظام العالمي الحالي .

*   *   *   *

٥- وثمة سؤال مُلح مغزاه أنه قد مضى على صدور هذا البيان ثمانية عشر عاماً تقريباً، ولم يَعْدِل الدول الكبرى – وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية – عن استبعادها لمعايير الأخلاق الإسلامية الإنسانية – من شئون السياسة وأنظمة الحكم، والعلاقات الدولية، ومن القوانين والتشريعات . وراجت مقولة بلهاء مغزاها: أن السياسة لا تقوم على الأخلاق، وإنما قِوامها المصلحة الذاتية الآنية والمستقبلية للأفراد والجماعات والدول .

وهذا الوضع المتردي يعني – فيما أرى – غياب أو تغييب الإرادة السياسية المستمرة لمثل هذا التحول الإنساني الذي يدعو إليه بيان " من أجل أخلاق عالمية " ؛ ولذا فإن الأمر يحتاج إلى حركات شعبية واعية في كل البلاد - نامية كانت أو متقدمة – تستهدف تأصيل مبادئ حقوق البشر في الحرية والعدل والمساواة وسائر حقوق الإنسان العامة والخاصة، وتجنب العسف، والإكراه، والظلم والتحيز التي تعاني منها جماهير الشعوب، بحيث تكون جهودا محلية متزامنة ومتسقة مع الدعوة " لأخلاق عالمية " .

*   *   *   *

ثالثاً : **وَهْم " منظمة الأديان المتحدة "**

يجب أن نفرِّق بين مصطلحين يلتبس أحدهما بالآخر في عقول بعض المعنيين بدور الدين في حياة البشر : المصطلح الأول : توظيف الدين Functionalizing Religion والثاني : مرجعية الدين Islamic Paradigm [١] المصطلح الأول يعني استخدام الدين أو توظيفه كلما دعت الحاجة إليه، والدين في هذه الحالة وسيلة لا غاية، يستخدمها بعض الناس – سياسيين وتنفيـذيين وحـاكمين ومحكومين - في بعض المواقف، ويتركونها أو يغضون الطرف عنها في بعض آخر، وكأن الـدين آلة تُستدعى لقضاء حاجة في نفس " يعقوب " أو بعض اليعقوبيين في بعض المواقف، ثم يُعطـل أو يتجاهل حتى تظهر حاجة أخرى لاستغلاله فيها، وهذا يعنى أن يكون إعطاء الدين لحياة الناس وظيفة مؤقتة .

والمصطلح الثاني : يعنى اتخاذ الدين مرجعاً أساسياً، ونموذجاً مثالياً في كل مواقف الحيـاة . وقد فرق القرآن الكريم بين الأمرين، حيث اشترط الإسلام في صحة العمل أن يكون صاحبه مخلصاً لدينه قال تعالى:

- **" فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** " الروم: ٣٠
- **" إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ** " الزمر: ٢
- **" هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** " غافر: ٦٥
- **" وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ** " البينة:٥

(الحنيف -لغة - من صح إسلامه، وثبت عليه،واتخذه مرجعا أساسيا له في القول وفي الفعل)

إن الفرق بين المصطلحين هو الفرق بين من يوظفون الدين لتحقيق مكاسب دنيوية ومن يوظفون الدين طلباً لمرضاة الله سبحانه وتعالى، وهؤلاء أقرب إلى الذين يؤمنون ببعض الكتـاب ويكفـرون ببعضه الآخر.

ويرى أهل الثقة من علماء الين والمفكرين الإسلاميين الأفذاذ [٢] أن هناك مـن يرغـب فـي توظيف الدين لتحقيق غايات سياسية أو نفعية ذاتية، ويلبسونها أردية عالمية . وأنه دُعي يوماً مـا - بصفته آنذاك (رئيساً للمعهد العالمي للفكر الإسلامي) إلى لجنة تحضيرية لما سموه " منظمة الأديان

---

١ كلمة Paradigm في اللغة الإنجليزية " الصيغة الأساسية في اللغة التي تشتق فيها كلمات أخرى وهى مرادفة لكلمة مثال أو نموذج Model .

٢ انظر : الدكتور طه جابر فياض العلواني (٢٠٠١)، الرئيس السابق للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن . في سلسلة " دراسات قرآنية "، الدراسة الأولى تحت عنوان أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها . القاهرة : مكتبة الشروق الدولية .

المتحدة "ودُعي إليها ممثلون لمختلف الأديان الشائعة بين البشر، بهدف التحاور حول أفضل السبل التي تمكن لرجال الدين أن يعاونوا بها في معالجة مشكلات العالم المعاصرة، وعقد الاجتماع في دير من الأديرة القريبة من نيويورك في مبنى قديم، لكنه فخم وواسع، ومرافقة مكتملة تماماً وهو مخصص لإقامة الرهبان وأفواج التنصير التي تجوب المعمورة، وهو مؤسسة مكتفية بذاتها طلاباً وأساتذة ورهباناً ومرافق ومكتبات، تنطلق منها أفواج التنصير وتعود إليها ؛ لتجديد معلوماتهم وتنمية أساليب أداء مهماتهم .

وأعلن في هذا اللقاء أن عدد الأديان الممثلة في الاجتماع أربعون ديناً، عددا منها البهائيون والقياديون أتباع بعض الأديان الوضعية في الهند، وطلب من ممثلي الأديان أن يقدم كل منهم " الصلاة " الأساسية المفروضة في دينه، وأن يشاركهم الآخرون بالصمت والتأمل . وحين جاء دور الدكتور العلواني اعترض بأن الصلاة في الإسلام لها مواقيت، وأن الصلاة ليست جزءاً من مسرحية تعرض في أي وقت، وعرض عليهم أن يصلي الصبح في اليوم التالي عند أول وقتها على أن تعد قاعة مناسبة لذلك، وأن يحضر المؤتمرون ليروا الصلاة، ويسمعوا تلاوة القرآن الكريم، وأنه سوف يترجم معاني الآيات التي ستتلى في الصلاة . فقال أكثرهم أنهم سوف يكونون نياماً في هذا الوقت . فاكتفى الرجل بأن يقرأ عليهم آيات من القرآن الكريم وأن يترجم معانيها لهم.

واستخلص العلواني مما حدث في هذا اللقاء " أن الأمر جدٌّ، وأن القوة الموجَّهة للعالم المعاصر تعمل على توظيف الدين بكل ما تملك من وسائل لخدمة أغراض سياسية، وأن، المستهدف الأول من هذه الجهود المحمومة، وضحيتها الأولى سيكون الإسلام والمسلمين " [١]

ثم يضيف العلواني " علمت أن مكتباً قد فتح في الأمم المتحدة ليعمل ليعمل وينسق مع الجهات المعنية لإيجاد منظمة للأديان المتحدة " [٢]

تعقيب

وأحسب أن قيام هذه المنظمة يمثل خطراً داهماً على المسلمين ودينهم لاعتبارات التالية:

١- ثابت أن منظمة الأمم المتحدة تخضع لسيطرة الدول الكبرى، وقرارات مجلس الأمن – أعلى جهاز فيها – يمكن أن يعوقها اعتراض " فيتو " إحدى الدول صاحبة العضوية الدائمة . وقد استخدمت الولايات المتحدة هذا الاعتراض حوالي خمسين مرة لتعطيل أي قرار لصالح

---

١ السابق : ص ٤٣

٢ السابق : ص ٤٦

الفلسطينيين الذين سُلبت أرضهم، وأهدرت حقوقهم الإنسانية، بفعل الاحتلال الإسرائيلي الاستيطاني لفلسطين منذ عام ١٩٤٨ م وبدعم صريح واستراتيجي من الولايات المتحدة الأمريكية حتى اللحظة التي أكتب فيها هذا القول .

٢- تنوع الأديان واختلاف شرائعها سنة من سنن الله رب السماوات والأرض ومن فيهن، وسنن الله لا تتبدل ولا تتحول : قال عزَّ وجلَّ :

§ " **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا** " الأحزاب: ٦٢

§ " **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** " هود : ١١٨ – ١١٩ " **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآَمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** " يونس : ٩٩ "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**" الحجرات : ١٣

§ " **وَمِنْ آَيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ** " الروم: ٢٢

§ " **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** " الحج: ٤٠

إن المطلوب من المتدينين بالأديان الرسالية أن يتعارفوا ويتدافعوا ويتسابقوا في فعل الخيرات وتجنب المنكرات، وأن يتجادلوا بالحسنى، وأن يتناصحوا بالموعظة الحسنة قال تعالى :

§ " **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** " فصلت: ٣٤

§ " **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آَمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** " العنكبوت: ٤٦

٣- لكل دين شِرعة و منهجية، في الفكر وفى العقيدة والعبادات والأخلاق هكذا أراد الله، ربُ الناس جميعا، وهو أعلم بمن خلقَ وما خلق ولماذا خلق ؟

وتمثل دعوة توحيد الأديان في دين واحد افتراءً على حق الله، ورجساً كبيراً، يجب أن يقاومه المسلمون، وإلا سوف يجئ يوم يمكن أن يصدر فيه مجلس الأمن (مثلاً) قراراً بإباحة

المسكرات أو بإباحة مشروعية المثلية الجنسية على أنها زواج، أو تحريم الطلاق، أو تعــدد الزوجات .

وليتذكر المسلمون في سائر أرجاء العالم الحقد الدفين والضغينة العميقة التــي دفعــت رئيساً سابقاً لبريطانيا " وليم جلادستون " في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أن يرفــع المصحف الشريف وهو يخطب في مجلس العموم قائلاً : " لن يكون لنا في الشرق مستقبل ما دام هذا القرآن يُتلى وما دام للمسلمين كعبة تحج إليها أفواج المسلمين كل عام "

وأعتقد أن هذا الاتجاه نحو استئصال القرآن، وتدمير الكعبة قد تجددت بعد الأحداث التي وقعت في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ م في نيويورك ؛ حيث دمر برجا التجارة العالمية، وقصــفت وزارة الدفاع في واشنطن . وبعدها حشد الغرب جيوشه ووجهها إلى الشرق الأوسط بحجة ما سموه الحرب على الإرهاب، سيظل غزو أفغانستان، وغزو العراق ووجود أساطيل الــدول الكبرى في البحر المتوسط، وجيوشها في الخليج العربي دلالات قاطعة على إرهاب الغرب للمسلمين .

٤- إذن فليحذر المسلمون أن يُستدرجوا لاتخاذ دينهم لعباً ولهواً، فوحدة الأديان فــي التصــور الإسلامي هي وحدة مصدر الأديان الموحى بها، من عند الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، كما تعنى وحدة الموضوعات التي تُنزل عليها النصوص الدينية . والوحدة بهذا المعنى لا تنفى التنوع والاختلاف في عناصر الوحدة قال تعالى :

§ " **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَــاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِــنْكُمْ شِــرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**" المائدة : ٤٨

§ " **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** " الجاثية: ١٨

إن المسلمين يؤمنون حقاً – أن القرآن الكريم محفوظ بوعد الله سبحانه وتعالى لقوله جل شــأنه : **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** " الحجر : ٩، وما يحفظه الله جل علاه لن يضيعه البشر وهما علَوا، ومهما استكبروا، ومهما مكروا فالله أعلم بهم ولينصرن الله من ينصره، إنه ســبحانه القــوي العزيز، ووعد الله هذا يقتضي من المسلمين اليقظة والوعي والفطنة . وعليهم أن يتأملوا دائماً قــول الحق تبارك وتعالى : " **وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ** " محمد: ٣٨

٥- وثمة ملاحظة جديرة بالذكر في هذا المقام، ومغزاها أن فكرة الدعوة إلى ما يسمونه " منظمة توحيد الأديان " شمَلت الأديان الوضعية، وما يعرف " بالأديان الإبراهيمية " ويقصدون بها " اليهودية والمسيحية والإسلام " وما يطلق عليه أحيانا الأديان السماوية . وإطلاق السماوية لا يستقيم لغة، لأن السماء في اللغة تعنى " كل ما علاك فأظلك، وسماء كل شيء أعلاه، والسماء السحاب، كما تعني المطر في قوله تعالى : " **يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا** " نوح : ١١

ولذا آثرت في هذا الكتاب أن أطلق عليها اسم الأديان الرسالية ولم استخدم الكتابية، ولا الإبرهيمية، واستبعادى وصف الكتابية في هذا المؤلف بسبب ما طرأ على التوراة والإنجيل من تحريف وتأويلات بشرية

أما مصطلح الابراهيمية ففيه نظر لفت الانتباه إليه الدكتور طه جابر العلواني حيث قال :

"وعندي على هذه التسمية ملاحظة، فهي غير دقيقة وإن تم تداولها في كتابات كثير من المسلمين، فارتباط اليهود والنصارى – إن صح – بسيدنا إبراهيم عليه السلام ليس ارتباطاً دينياً ؛ لقوله تعالى:" **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**" آل عمران: ٦٧ فالارتباط إن سلمَ ارتباط قوميٌ لبنوة إسحاق ويعقوب لإبراهيم، وكذلك إسماعيل. وآل عمران من ذريته عليه السلام ". ويضيف العلواني : " إن اليهودية والنصرانية اختص الله بها سلالة إسرائيل، وقد نقل عن السيد المسيح عليه السلام قوله : " إنما جئت لإنقاذ الخراف الضالة من إسرائيل " وقوله " إن خبز الأولاد لا يعطى للكلاب " أي لغير بني إسرائيل .[١]

وخلص العلواني في ملاحظة إلى القول : " موسى عليه السلام جاء لتحرير بني إسرائيل من عبوديتهم لفرعون، وعيسى عليه السلام جاء لتحريرهم من الحِرفيَّة والمادية التي طغت عليهم وإعادتهم إلى روح الشريعة الموسوية ومقاصدها وإن انتشار المسيحية جاء بعد اعتناق الإمبراطور قسطنطين للنصرانية ووظفها لبناء مجد روما . ومن هنا فإن إطلاق وصف الإبراهيمية على الأديان الثلاثة (اليهودية والنصرانية والإسلامية " إطلاق غير صحيح " [٢]

* * * *

أما بعد، فهذا ما يسَّر الله لي أن أقول في فصول الكتاب كافة عن التصور الإسلامي للأخلاق، وأرجو أن يكون في قراءته نفع لمن يقرؤه. وأستأذن القارئ الكريم في أن يبدأ بقراءة مقدمة الكتاب بعناية؛ فقد حَرَصْتُ فيها على ذكر ما يوضح بنية الكتاب وما ييسر قراءته لمن يتناوله، والله المستعان، والهادي إلى سبيل الرشاد.

---

١ السابق : ص ٣٧

٢ السابق : ٣٧، ٣٨

الـملاحق

الملحق رقم (١)

إعلان
مكتب التربية العربي لدول الخليج
لأخلاقيات مهنة التعليم *

* وافق عليه المؤتمر العام الثامن للمكتب المنعقد في الدوحة (٣-٦ من رجب ١٤٠٥ هـ)
(٢٤ – ٢٧ من مارس ١٩٨٥ م)

التعليم رسالة :

أولاً: التعليم مهنة ذات قداسة خاصة توجب على القائمين بها أداء حق الانتماء إليها ؛ إخلاصاً في العمل ، وصدقاً مع النفس والناس ، وعطاء مستمراً لنشر العلم والخير والقضاء على الجهل والشر

ثانياً : المعلم صاحب رسالة يستشعر عظمتها ، ويؤمن بأهميتها ، ولا يضن على أدائها بغال ولا رخيص ، ويستصغر كل عقبة دون بلوغ غايته من أداء رسالته.

ثالثاً : اعتزاز المعلم بمهنته وتصوره المستمر لرسالته ، ينأيان به عن مواطن الشبهات ، ويدعوانه إلى الحرص على نقاء السيرة وطهارة السريرة ، حفاظاً على شرف مهنة التعليم ودفاعاً عنه .

المعلم وطلابه :

رابعاً : العلاقة بين المعلم وطلابه صورة من علاقة الأب بأبنائه لحمتها الرغبة في نفعهم وسداها الشفقة عليهم والبر بهم ، أساسها المودة الحانية وحارسها الحزم الضروري وهدفها تحقيق خيري الدنيا والآخرة للجيل المأمول للنهضة والتقدم.

خامساً : المعلم قدوة لطلابه خاصة ، وللمجتمع عامة وهو حريص على أن يكون أثره في الناس حميداً باقياً ، لذلك فهو مستمسك بالقيم الأخلاقية ، والمثل العليا ، يدعو إليها ويبثها بين طلابه والناس كافة ، ويعمل على شيوعها واحترامها ما استطاع .

سادساً : المعلم أحرص الناس على نفع طلابه ، يبذل جهده كله في تعليمهم ، وتربيتهم ، وتوجيههم ، يدلهم بكل الطرق على الخير ويرغبهم فيه ، ويبين لهم الشر ويذودهم عنه ، في إدراك كامل ومتجدد أن أعظم الخير ما أمر الله أو رسوله به ، وأن أسوأ الشر هو ما نهى الله أو رسوله عنه .

سابعاً : المعلم يسوي بين طلابه في عطائه ورقابته وتقويمه لأدائهم، ويحول بينهم وبين الوقوع في براثن الرغبات الطائشة ، ويشعرهم دائماً أن أسهل الطرق ـ وإن بدا صعباً ـ هو أصحها وأقومها ، وأن الغش خيانة وجريمة لا يليقان بطالب العلم ولا بالمواطن الصالح .

ثامناً : المعلم ساع دائماً إلى ترسيخ مواطن الاتفاق والتعاون والتكامل بين طلابه ، تعليماً لهم ، وتعويداً على العمل الجماعي والجهد المتناسق ، وهو ساع دائماً إلى إضعاف نقط الخلاف ، وتجنب الخوض فيها ، ومحاولة القضاء على أسبابها دون إثارة نتائجها .

المعلم والمجتمع :

تاسعاً : المعلم موضع تقدير المجتمع واحترامه وثقته ، وهو لذلك حريص على أن يكون في مستوى هذه الثقة ، وذلك التقدير والاحترام يعمل في المجتمع على أن يكون له دائماً في مجال معرفته وخبرته -دور المرشد والموجه- ، يمتنع عن كل ما يمكن أن يؤخذ عليه من قول أو فعل ، ويحرص على أن يؤثر عنه إلا ما يؤكد ثقة المجتمع به واحترامه له.

عاشراً : تسعى الجهات المختصة إلى توفير أكبر قدر ممكن من الرعاية للعاملين في مهنة التعليم ، بما يوفر لهم حياة كريمة تكفهم عن التماس وسائل لا تتفق وما ورد في هذا الإعلان لزيادة دخولهم أو تحسين ماديات حياتهم .

حادي عشر : المعلم صاحب رأي وموقف من قضايا المجتمع ومشكلاته بأنواعها كافه ، ويفرض ذلك عليه وتوسيع نطاق ثقافته Kوتنويع مصادرها ، والمتابعة الدائمة للمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ليكون قادرا على تكوين رأي ناضج مبني على العلم والمعرفة والخبرة الواسعة يعزز مكانة الاجتماعية ، ويؤكد دوره الرائد في المدرسة وخارجها.

ثاني عشر : المعلم مؤمن بتميز هذه الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو لا يدع فرصة لذلك دون أن يفيد منها ، أداء لهذه الفريضة الدينية وتقوية لأواصر المودة بينه وبين جماعات الطلاب خاصة والناس عامة ، وهو ملتزم في ذلك بأسلوب اللين في غير ضعف ، والشدة في غير عنف ، يحدوه إليهما وده لمجتمعه وحرصه عليه وإيمانه بدوره البناء في تطويره وتحقيق نهضته .

المعلم رقيب نفسه :

ثالث عشر : المعلم يدرك أن الرقيب الحقيقي على سلوكه بعد الله سبحانه وتعالى هو ضمير يقظ ، ونفس لوامة ، وأن الرقابة الخارجية مهما تنوعت أساليبها لا ترقى إلى الرقابة الذاتية ، لذلك يسعى المعلم بكل وسيلة متاحة إلى بث هذه الروح في طلابه ومجتمعه ، ويضرب بالاستمساك بها في نفسه المثل والقدوة.

رابع عشر : المعلم في مجال تخصصه طالب علم على وباحث عن الحقيقة ؛ لا يدخر وسعاً في التزود من المعرفة، والإحاطة بتطويرها في حقل تخصصه ؛ تقوية لإمكاناته المهنية موضوعاً وأسلوباً ووسيلة.

خامس عشر : يسهم المعلم في كل نشاط يحسنه ،ويتخذ من كل موقف سبيلاً إلى تربية قومية، أو تعليم عادة حميدة ، إيمانا بضرورة تكامل البناء العلمي والعقلي والجسماني والعاطفي للإنسان من خلال العملية التربوية التي يؤديها المعلم .

سادس عشر : المعلم مدرك أن تعلمه عبادة، وتعليمه الناس زكاة ، فهو يؤدي واجبه بروح العابد الخاشع ، الذي لا يرجو سوى مرضاة الله سبحانه ، وبإخلاص الموقن أن عين الله ترعاه وتكلؤه ، وأن قوله وفعله كله شهيد له أو عليه.

المدرسة والبيت :

سابع عشر : الثقة المتبادلة واحترام التخصص والأخوة المهنية هي أسس العلاقات بين المعلم وزملائه ، وبين المعلمين جميعاً والإدارة المدرسية، المركزية ويسعى المعلمون إلى التفاهم في ظل هذه الأسس فيما بينهم ، وفيما بينتهم وبين الإدارة المدرسية والمركزية حول جميع الأمور التي تحتاج إلى تفاهم مشترك أو عمل جماعي، أو تنسيق للجهود بين مدرسي المواد المختلفة، أو قرارات إدارية لا يملك المعلمون اتخاذها بمفردهم .

ثامن عشر : المعلم شريك الوالدين في التربية والتنشئة والتقويم والتعليم؛ لذلك فهو حريص على توطيد أواصر الثقة بين البيت والمدرسة ، وإنشائها إذا لم يجدها قائمة ، وهو يتشاور كلما اقتضى الأمر مع الوالدين حول كل أمر يهم مستقبل الطلاب أو يؤثر في مسيرتهم العلمية.

تاسع عشر : يؤدي العاملون في مهنة التعليم واجباتهم كافه ، ويصبغون سلوكهم كله، بروح المبادئ التي تضمنها هذه الإعلان ويعملون على نشرها ، وترسيخها ، وتأصيلها والالتزام بها بين زملائهم وفي المجتمع بوجه عام .

عشرون : صدر هذا الإعلان عن مكتب التربية العربي لدول الخليج العربية وأقره مؤتمر العام الثامن الذي انعقد في الدوحة بدولة قطر.

والله ولي التوفيق

ملحق رقم (٢)

لائحة آداب المهنة الصادرة من النقابة العامة لأطباء مصر الصادرة بقرار وزير الصحة والسكان رقم ٢٣٨ لسنة ٢٠٠٣م

لائحة آداب المهنة الصادرة من النقابة العامة لأطباء مصر الصادرة بقرار وزير الصحة والسكان رقم ٢٣٨ لسنة ٢٠٠٣ م

مقدمــــة

إدراكاً من النقابة العامة لأطباء مصر بأن مهنة الطب مهنة إنسانية و أخلاقية و تقوم أساساً على العلم ،و تحتم على من يمارسها أن يكون ملماً بها و مدرباً تدريباً كافياً على ممارستها و أن يحترم الشخصية الإنسانية في جميع الظروف و الأحوال، و تأكيداً على أن كل عمل طبي يستهدف مصلحة المريض المطلقة و أن تكون له ضرورة تبرره، و إيماناً بأن الرعاية الصحية هي أحد حقوق الإنسان الأساسية التي يعمل المجتمع على الوفاء بها تجاه جميع أبنائه، و بناءً على قراري مجلس النقابة والجمعية العمومية لأطباء مصر صدرت هذه اللائحة بالقرار رقم ٢٣٨ لسنة ٢٠٠٣ في ٢٠٠٣/٩/٥ م من السيد الأستاذ الدكتور / وزير الصحة والسكان؛ تعديلاً للائحة السابقة الصادرة عام ١٩٧٤م.

الباب الأول : قسَم الأطباء

مادة (١)

يجب على كل طبيب قبل مزاولته المهنة أن يؤدى القسم التالي أمام نقيب الأطباء أو من ينوب عنه :

" اقسم بالله العظيم أن أراقب الله في مهنتي، وأن أصون حياة الإنسان في كافة أدوارها ، في كل الظروف والأحوال باذلا وسعى في استنقاذها من الهلاك والمرض والألم والقلق، وأن أحفظ للناس كرامتهم واستر عورتهم واكتم سرهم، وان أكون على الدوام من وسائل رحمة الله باذلا رعايتي الطبية للقريب والبعيد، للصالح والخاطئ والصديق والعدو، وان أثابر على طلب العلم أسخره لنفع الإنسان لا لإيذائه، وان أوقر من علمني واعلم من يصغرني، وأكون أخا لكل زميل في المهنة الطبية متعاونين على البر والتقوى، وان تكون حياتي مصداق إيماني في سرى وعلانيتي نقية مما يشينها تجاه الله ورسله والمؤمنين، والله على ما أقول شهيد.

الباب الثاني : واجبات الطبيب

أولاً : واجبات الطبيب نحو المجتمع :

مادة (٢)

يلتزم الطبيب، في موقع عمله الوظيفي أو الخاص بأن يكون عمله خالصاً لمرضاة الله، وخدمة المجتمع الذي يعيش فيه، بكل إمكانياته وطاقاته في ظروف السلم والحرب وفي جميع الأحوال.

مادة (٣):

على الطبيب أن يكون قدوة حسنة في المجتمع بالالتزام بالمبادئ والمثل العليا ، أميناً على حقوق المواطنين في الحصول على الرعاية الصحية الواجبة، منزهاً عن الاستغلال بجميع صوره لمرضاه أو زملائه أو تلاميذه. .

مادة (٤)

على الطبيب أن يسهم في دراسة سبل حل المشكلات الصحية للمجتمع وأن يدعم دور النقابة في دعم و تطوير السياسة الصحية والارتقاء بها للصالح العام وأن يكون متعاوناً مع أجهزة الدولة المعنية فيما يطلب من بيانات لازمة لوضع السياسات والخطط الصحية.

مادة (٥)

على الطبيب أن يبلغ السلطات الصحية المختصة عند الاشتباه في مرض وبائي حتى تتخذ الإجراءات الوقائية لحماية المجتمع

ثانياً : واجبات الطبيب نحو المهنة :

مادة (٦)

على الطبيب أن يراعى الأمانة والدقة في جميع تصرفاته وأن يلتزم السلوك القويم ،وأن يحافظ على كرامته وكرامة المهنة مما يشينها، وفقاً لما ورد في قسم الأطباء في هذه اللائحة.

مادة (٧)

لا يجوز للطبيب أن يحرر تقريراً طبياً أو يدلى بشهادة بعيداً عن تخصصه ، أو مخالفة للواقع الذي توصل إليه من خلال فحصه الشخصي للمريض.

مادة (٨)

لا يجوز للطبيب أن يأتي عملاً من الأعمال الآتية : أ ـ الاستعانة بالوسطاء في مزاولة المهنة سواء كان ذلك بأجر أو بدون أجر.

ب ـ السماح باستعمال اسمه في ترويج الأدوية أو العقاقير أو مختلف أنواع العلاج أو لأي أغراض تجارية على أي صورة من الصور.

ج ـ طلب أو قبول مكافأة أو أجر من أي نوع كان نظير التعهد أو القيام بوصف أدوية أو أجهزة معينة للمرضى أو إرسالهم إلى مستشفى أو نصح علاجي أو دار للتمريض أو صيدلية أو أي مكان محدد لإجراء الفحوص والتحاليل الطبية أو لبيع المستلزمات أو المعينات الطبية. د ـ القيام بإجراء استشارات طبية في محال تجارية أو ملحقاتها، مما هو معد لبيع الأدوية أو الأجهزة أو

التجهيزات الطبية سواء كان ذلك بالمجان أو نظير مرتب أو مكافأة. هـ - القيام باستشارات طبية من خلال شركات الاتصالات.
و - القيام ببيع أي أدوية أو وصفات أو أجهزة أو مستلزمات طبية في عيادته - أو أثناء ممارسته للمهنة - بغرض الاتجار .
ز - أن يتقاسم أجره مع أي من زملائه إلا إذا أشترك معه في العلاج فعلاً . أو أن يعمل وسيطاً لطبيب آخر أو مستشفى بأي صورة من الصور.

مادة (٩)
لا يجوز للطبيب تطبيق طريقة جديدة للتشخيص أو العلاج إذا لم يكن قد اكتمل اختبارها بالأسلوب العلمي والأخلاقي السليم ونشرت في المجلات الطبية المعتمدة ،وثبتت صلاحيتها ،وتم الترخيص بها من الجهات الصحية المختصة. كما لا يجوز له أيضا أن ينسب لنفسه دون وجه حق أي كشف علمي أو يدعى انفراده به.

مادة (١٠)
لا يجوز للطبيب أن يقوم بالدعاية لنفسه على أية صورة من الصور سواء كان ذلك بطريق النشر أو الإذاعة المسموعة أو المرئية أو عبر وسائل الانترنت أو أي طريقة أخرى من طرق الإعلان.
مادة (١١)
يجوز للطبيب عند فتح عيادة أو نقلها أن يعلن عن ذلك بالصحف في حدود ثلاث مرات ، كما يجوز له إذا غاب عن عيادته أكثر من أسبوعين أن ينشر إعلانين أحدهما قبل غيابه والثاني بعد عودته.
مادة (١٢)
يجب على الطبيب أن يلتزم في إعداد اللافتة والمطبوعات والتذاكر الطبية وما في حكمها بالتشريعات و القوانين و اللوائح المنظمة لذلك.
مادة (١٣)
لا يجوز للطبيب أن يستغل وظيفته بقصد تحقيق منفعة شخصية،أو الحصول على كسب مادي من المريض، كما لا يجوز له أن يتقاضى من المريض أجراً عن عمل يدخل في اختصاص وظيفته الأصلية التي يؤجر عليها.

مادة (١٤)
على الطبيب أن يغتنم كل مناسبة للقيام بالتثقيف الصحي لمريضه، وتعريفه بأنماط الحياة الصحية وأن يحرص على التعلم والتدريب الطبي بشكل دائم ومستمر وأن يحافظ على كفاءته العلمية والمهارية المؤهلة لممارسة المهنة.

مادة (١٥)
لا يجوز للطبيب الجزم بتشخيص مرض أو التوصية بعلاج من خلال بيانات شفهية أو كتابية أو مرئية دون مناظرة المريض وفحصه شخصياً.

مادة (١٦)
يجوز للطبيب الاشتراك في حلقات تبادل الرأي العلمي التي يكون أطرافها أطباء متخصصين ، كما يجوز له المشاركة في نقل معلومات طبية من زميل لآخر، سواء كانت كتابة أو عبر وسائل الاتصال الأخرى.

مادة (١٧)
إذا تم الاتصال أو الاستشارة بين طبيب وطبيب آخر بخصوص أي علاج أو تشخيص لمريض تكون المسئولية الكاملة على الطبيب الذي يباشر المريض في العلاج والتشخيص.
مادة١٨ :
يجب على الطبيب التنحي عن إبداء أي نصح، أو رأى طبي أو علمي كتابة أو شفاهه عند مناقشة أمر ينبني عليه مصلحة شخصية، أو يعود عليه بنفع مادي خارج إطار ممارسته للمهنة الطبية.
مادة (١٩)
عند مخاطبة الجمهور في الموضوعات الطبية عبر وسائل الإعلام يلتزم الطبيب بالقواعد الآتية:
أ- تجنب ذكر مكان عمله و طرق الاتصال به ، و الإشادة بخبراته أو إنجازاته العلمية، ويكتفي فقط بذكر صفته المهنية ومجال تخصصه .
ب- أن تكون المخاطبة بأسلوب مبسط يلائم المستمع أو المشاهد غير المتخصص.
ج - تجنب ذكر الآراء العلمية غير المؤكدة أو غير المقطوع بصحتها، أو تناول الموضوعات المختلف عليها ، والتي يكون مناقشتها فقط في الجلسات العلمية الخاصة غير الموجهة للعامة.

ثالثاً : واجبات الطبيب نحو المرضى :

مادة (٢٠)
على الطبيب أن يبذل كل ما في وسعه لعلاج مرضاه وأن يعمل على تخفيف آلامهم وأن يحسن معاملتهم وأن يساوى بينهم في الرعاية دون تمييز.

مادة (٢١)
على الطبيب أن يوفر لمريضه المعلومات المتعلقة بحالته المرضية بطريقة مبسطة ومفهومة.
و يجوز للطبيب -لأسباب إنسانية- عدم إطلاع ا لمريض على عواقب المرض الخطيرة ،وفى هذه الحالة عليه أن ينهى إلى أهل المريض بطريقة إنسانية لائقة خطورة المرض وعواقبه الخطيرة إلا إذا أبدى المريض رغبته في عدم إطلاع أحد على حالته أو حدد أشخاصاً معينين لإطلاعهم عليها ولم تكن هناك خطورة على من حوله.

مادة (٢٢)
على الطبيب أن يلتزم بحدود مهاراته المهنية و أن يستعين بخبرة من هم أكفأ منه من الأطباء في مناظرة وعلاج مريضه عند اللزوم.

مادة (٢٣)
على الطبيب أن يراعى ما يلي :
أ - عدم المغالاة في تقدير أتعابه و أن يقدر حالة المريض المالية والاجتماعية.
ب - أن يلتزم بالأدوية الضرورية مع مراعاة أن تكون الأولوية للدواء الوطني، والأقل سعراً بشرط الفاعلية والأمان.
جـ - أن يقتصر على طلب التحاليل المعملية أو وسائل التشخيص الضرورية.

مادة (٢٤)
في الحالات غير العاجلة يجوز للطبيب الاعتذار عن علاج أي مريض ابتداءً أو في أي مرحلة لأسباب شخصية أو متعلقة بالمهنة، أما في الحالات العاجلة فلا يجوز للطبيب الاعتذار.

مادة (٢٥)
لا يجوز للطبيب المتخصص رفض علاج مريض إذا استدعاه لذلك الطبيب الممارس العام ولم يتيسر وجود متخصص غيره.

مادة (٢٦)
إذا ما كف طبيب عن علاج أحد مرضاه لأي سبب من الأسباب فيجب عليه أن يدلى للطبيب الذي يحل محله بالمعلومات الصحيحة التي يعتقد أنها لازمة لاستمرار العلاج كتابة أو شفاهه.

مادة (٢٧)
على الطبيب أن ينبه المريض ومرافقيه إلى اتخاذ أسباب الوقاية، ويرشدهم إليها ويحذرهم مما يمكن أن يترتب على عدم مراعاتها، ويجوز له طلب توقيعهم على إقرار كتابي منهم بمعرفتهم بذلك في بعض الحالات التي تستدعى ذلك.

مادة (٢٨)
لا يجوز للطبيب إجراء الفحص الطبي للمريض أو علاجه دون موافقة (مبنية على المعرفة) من المريض أو من ينوب عنه قانوناً إذا لم يكن المريض أهلاً لذلك، ويعتبر ذهاب المريض إلى الطبيب في مكان عمله موافقة ضمنية على ذلك، وفي حالات التدخل الجراحي أو شبه الجراحي يلزم الحصول على موافقة (مبنية على المعرفة) من المريض أو من ينوب عنه قانونا كتابة إلا في دواعي إنقاذ الحياة.
وعلى الطبيب الذي يدعى لعيادة قاصر أو ناقص الأهلية ، أو مريض فاقد الوعي في حالة خطرة أن يبذل ما في متناول يديه لإنقاذه ولو تعذر عليه الحصول في الوقت المناسب على الموافقة (المبنية على المعرفة) من وليه أو الوصي أو القيم عليه. كما يجب عليه ألا يتنحى عن علاجه إلا إذا زال الخطر أو إذا عهد بالمريض إلى طبيب آخر.

مادة (٢٩)
لا يجوز للطبيب إجراء عملية الإجهاض إلا لدواعي طبية تهدد صحة الأم ويكون ذلك بشهادة كتابية من طبيبين متخصصين، وفى الحالات العاجلة التي تتم فيها العملية لدواعي إنقاذ الحياة يجب على الطبيب المعالج تحرير تقرير مفصل عن الحالة يرفق بتذكرة العلاج .

مادة (٣٠)
لا يجوز للطبيب إفشاء أسرار مريضه التي اطلع عليها بحكم مهنته، إلا إذا كان ذلك بناء على قرار قضائي أو في حالة إمكان وقوع ضرر جسيم ومتيقن يصيب الغير أو في الحالات الأخرى التي يحددها القانون .

مادة (٣١)
لا يجـــوز للطبيـــب اســـتغلال صـــلته بـــالمريض وعائلتـــه لأغـــراض تتنـــافى مـــع كرامـــة المهنـــة.

مادة (٣٢)
إذا توفى المريض داخل المنشأة الطبية الخاصة يقوم الطبيب المسئول بإبلاغ الجهات المختصة باعتباره مبلغاً عن الوفاة.

مادة (٣٣)
يجب على الطبيب إبلاغ الجهات المختصة عن الإصابات و الحوادث ذات الشبهة الجنائية مثل حالات الإصابة بأعيرة نارية أو جروح نافذة أو قطعية أو غيرها مع كتابة تقرير طبي مفصل عن الحالة وقت عرضها عليه ، ويمكن للطبيب دعوة زميل آخر للمشاركة في مناظرة الحالة وكتابة التقرير.

مادة (٣٤)
للطبيب إبلاغ النيابة العامة عن أي اعتداء يقع عليه بسبب أداء مهنته وفى ذات الوقت عليه إبلاغ نقابته الفرعية في أقرب فرصة ؛ حتى يمكن لها التدخل في الأمر متضامنة مع الطبيب.

مادة (٣٥)
على الطبيب المكلف بالرعاية الطبية للمقيدة حريتهم أن يوفر لهم رعاية صحية من نفس النوعية والمستوى المتاحين لغير المقيدة حريتهم. ويحظر عليه القيام بطريقة إيجابية أو سلبية بأية أفعال تشكل مشاركة في عمليات التعذيب وغيرها من ضروب المعاملة القاسية أو اللاإنسانية أو التواطؤ أو التحريض على هذه الأفعال، وكذلك يحظر عليه استخدام معلوماته ومهاراته المهنية للمساعدة في استجواب المقيدة حريتهم على نحو يضر بالصحة أو الحالة البدنية أو العقلية لهم، أو المشاركة في أي إجراء لتقييد حركة المقيد حريتهم ، إلا إذا تقرر ذلك وفقاً لمعايير طبية محضة لحماية الصحة البدنية أو العقلية للمقيدة حريتهم.

مادة (٣٦)
يحظر على الطبيب إهدار الحياة بدعوى الشفقة أو الرحمة.
رابعاً : واجبات الطبيب نحو الزملاء :
مادة (٣٧)
على الطبيب تسوية أي خلاف قد ينشأ بينه وبين أحد زملائه بسبب المهنة بالطرق الودية فإذا لم يسو الخلاف يبلغ الأمر إلى مجلس النقابة الفرعية المختصة للفصل فيه بقرار يصدر من مجلس النقابة الفرعية ، وفى حالة تظلم أحد الطرفين من القرار يعرض الأمر على مجلس النقابة العامة.
مادة (٣٨)
لا يجوز للطبيب أن يسعى لمزاحمة زميل له بطريقة غير كريمة في أي عمل متعلق بالمهنة أو علاج مريض.

مادة (٣٩)
لا يجوز للطبيب أن يقلل من قدرات زملائه وإذا كان هناك ما يستدعى انتقاد زميل له مهنياً فيكون ذلك أمام لجنة علمية محايدة.

مادة (٤٠)
إذا حل طبيب محل زميل له في عيادته بصفة مؤقتة، فعليه ألا يحاول استغلال هذا الوضع لصالحه الشخصي كما يجب عليه إبلاغ المريض قبل بدء الفحص بصفته ، وأنه يحل محل الطبيب صاحب العيادة بصفة مؤقتة.

مادة (٤١)
إذا دعى طبيب لعيادة مريض يتولى علاجه طبيب آخر استحالت دعوته فعليه أن يترك إتمام العلاج لزميله بمجرد عودته وأن يبلغه بما أتخذه من إجراءات ،ما لم ير المريض أو أهله استمراره في العلاج.

مادة (٤٢)
في حالة اشتراك أكثر من طبيب في علاج مريض :
أ ـ لا يجوز للطبيب فحص أو علاج مريض يعالجه زميل له في مستشفى إلا إذا استدعاه لذلك الطبيب المعالج أو إدارة المستشفى.

ب ـ يجوز للمريض أو أهله دعوة طبيب آخر أو أكثر على سبيل الاستشارة بعد إعلام الطبيب المعالج ويجوز للطبيب الاعتذار عن استمرار علاج ا لحالة إذا أصر المريض أو أهله على استشارة من لا يقبله بدون إبداء الأسباب.
ج ـ إذا رفض الطبيب المعالج القيام بعلاج المريض وفقا لما قرره الأطباء المستشارون فيجوز له أن ينسحب تاركا مباشرة علاجه لأحد هؤلاء الأطباء المستشارين٠

الباب الثالث
التدخلات الطبية ذات الطبيعة الخاصة
أولاً : إجراء تصحيح الجنس :
مادة (٤٣) :
يحظر على الطبيب إجراء عمليات تغيير الجنس ، أما بالنسبة لعمليات تصحيح الجنس فانه يشترط موافقة اللجنة المختصة بالنقابة وتتم عمليات التصحيح بعد إجراء التحليلات الهرمونية وفحص الخريطة الكروموزومية وبعد قضاء فترة العلاج النفسي والهرموني المصاحب لمدة لا تقل عن عامين.
ثانياً : عمليات الإخصاب المساعد :
مادة (٤٤)
تخضع عمليات الإخصاب المساعد لبويضة الزوجة من نطفة الزوج داخل جسم الزوجة أو خارجه (تقنيات الإخصاب المعملي أو الحقن المجهري) للضوابط الأخلاقية التي تستهدف المحافظة على النسل البشرى وعلاج العقم ، مع الحرص على نقاء الأنساب، وعلى المعايير القانونية الصادرة من الجهات المختصة.

مادة (٤٥)
لا يجوز إجراء عمليات الإخصاب المساعد داخل أو خارج جسم الزوجة إلا باستخدام نطفة زوجها حال قيام العلاقة الزوجية الشرعية بينهما. كما لا يجوز نقل بويضات مخصبة لزرعها في أرحام نساء غير الأمهات الشرعيات لهذه البويضات.

مادة (٤٦)
لا يجوز إنشاء بنوك للبويضات أو الحيوانات المنوية أو الأجنة .

مادة (٤٧)
لا يرخص بممارسة عمليات الإخصاب المساعد إلا في المراكز المجهزة والمرخص لها بممارسة تلك العمليات.

مادة (٤٨)
يلزم أن يحتفظ المركز بسجل مفصل عن كل حالة ، به كافة البيانات على حدة لمدة لا تقل عن عشر سنوات، ويلزم أن يحتوى الملف على العقد والإقرار من الزوجين.

ثالثاً : عمليات استئصال ونقل الأعضاء والأنسجة البشرية :
مادة (٤٩)
تخضع عمليات نقل الأعضاء والأنسجة البشرية للمعايير الأخلاقية و الضوابط المنصوص عليها في التشريعات و اللوائح المنظمة لذلك .

مادة (٥٠)
على الطبيب قبل إجراء عمليات نقل أعضاء وفقاً للتشريعات المنظمة لذلك أن يبصر المتبرع بالعواقب الطبية والأخطار التي قد يتعرض لها نتيجة لعملية النقل وأخذ الإقرارات اللازمة التي تفيد علمه بكافة العواقب في هذا الشأن قبل إجراء العملية .

مادة (٥١)
يحظر الاتجار في الأعضاء والأنسجة والخلايا البشرية والجينات البشرية ولا يجوز بأي حال من الأحوال للطبيب المشاركة في هذه العمليات وإلا تعرض للمساءلة التأديبية .

الباب الرابع
إجراء التجارب والبحوث الطبية على الآدميين
أولاً : أحكــام عامــة

مادة (٥٢)
يلتزم الطبيب بمراعاة تنفيذ كافة المعايير والضوابط الأخلاقية والقيم الاجتماعية، والدينية التي تضعها السلطات المختصة لإجراء البحوث الطبية على الآدميين .

مادة (٥٣)
يحظر على الطبيب إجراء أية تجارب للأدوية والتقنيات على الآدميين قبل إقرارها من الجهات المختصة .

ثانياً : إجراءات يجب اتخاذها قبل إجراء أي بحث على آدميين

مادة (٥٤)
بمراعاة أحكام المادتين السابقتين يلتزم الطبيب الباحث قبل إجراء أي بحث طبي على الآدميين أن تتوافر لديه دراسة وافية عن المخاطر والأعباء التي يتعرض لها الفرد أو الجماعة ، ومقارنتها بالفوائد المتوقع الحصول عليها من البحث ويقتصر إجراء هذه البحوث على المتخصصين المؤهلين علمياً لإجراء البحث تحت إشراف مباشر لطبيب على درجة عالية من الكفاءة والتخصص وتقع مسئولية الحماية الصحية للمتطوعين لإجراء البحث ،على الطبيب المشرف عليه .

مادة (٥٥)
يلتزم الباحث بتعريف المتطوعين تعريفاً كاملاً وبطريقة واضحة بأهداف البحث والطرق البحثية التي ستستخدم في البحث ، والفوائد المتوقعة منه والمخاطر المحتمل حدوثها ومدى إمكانية تأثيرها على المتطوعين كما يلزم تعريف المتطوعين بمصادر تمويل البحث وهوية الباحث المسئول وانتمائه المؤسسي ، وتأكيد حق المتطوع في التوقف عن تطوعه لإجراء التجارب والاختبارات أو الانسحاب الكامل من البحث دون أن يلحق به أية عواقب سلبية نتيجة توقفه أو انسحابه.

مادة (٥٦)
يلتزم الطبيب الباحث بالحصول على موافقة كتابية (مبنية على المعرفة) من المتطوع على إجراء البحث عليه ، وأن يتم الحصول على هذه الموافقة بطريقة رسمية ، وفى حضور شهود إثبات وفي حالة ما إذا كان المتطوع قاصراً أو معاقاً أو ناقصاً للأهلية فإنه يلزم الحصول على الموافقة من الوصي الرسمي أو القيم ، ويشترط أن يكون البحث خاصاً بحالته المرضية.

مادة (٥٧)
يلتزم الباحث بإعداد تقرير مفصل وواضح عن أهداف البحث ومبررات إجرائه على الآدميين ويقدم هذا التقرير إلى الجهة المختصة قانونا بالموافقة على إجراء البحث للحصول على تلك الموافقة

ثالثاً : إجراءات يلزم اتخاذها أثناء وبعد إجراء البحث على آدميين

مادة (٥٨)
يلتزم الباحث بالتوقف فوراً عن إكمال أي تجارب على الآدميين إذا ما ثبت أن المخاطر المصاحبة تفوق الفوائد المتوقعة من البحث كما يلزم ضمان حماية خصوصية الأفراد وسرية النتائج والحفاظ عليها والحد من الآثار السلبية على سلامة المتطوعين الجسدية والعقلية والنفسية.

مادة (٥٩)
يلتزم الباحث بالتأكد من توافر كافة الوسائل الوقائية والتشخيصية والعلاجية لكل مريض لإجراء الدراسة.

مادة (٦٠)
يحظر على الباحث إجراء البحوث والممارسات التي تنطوي على شبهة اختلاط الأنساب أو المشاركة فيها بأية صورة ، كما يحظر عليه إجراء أو المشاركة في البحوث الطبية التي تهدف إلى استنساخ الكائن البشرى أو المشاركة فيها .

مادة (٦١)
يلتزم الطبيب بأخذ التعهد المطلوب من الجهة الممولة للبحث بأن توفر الدواء - الذي يتم تجربته على المرضى وتثبت فعاليته- إلى نهاية برنامج العلاج دون مقابل

المـــراجع

ثبت المصادر و المراجع

أولاً : الموسوعات والمعاجم

- القرآن الكريم
- موسوعة المصطلحات الاجتماعية بإشراف د . محمد الجوهري.
- الموسوعة العربية العالمية (الطبعة الثانية).
- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية أعدها د. عبد الوهاب المسيري (النسخة الموجزة في جزأين).
- المعاجم العربية: لسان العرب، المعجم الوسيط، والمعجم الكبير (الجزء السادس).

ثانياً : الكتب والمجلات

١- إبراهيم ، د. سعد الدين (١٩٩٤) الملل والنحل والأعراق: هموم الأقليات في الوطن العربي. القاهرة : مركز ابن خلدون و دار الأمين للنشر والتوزيع .

٢- ابن تيمية (بدون) الإيمان ، تحقيق د.محمد خليل الهراس . القاهرة : مكتبة أسامة الإسلامية.

٣- ابن جماعة ، بدر الدين (٢٠٠٥) تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم . بيروت : دار الكتب العلمية.

٤- أبو سليمان ، د عبد الحميد، (٢٠٠٩)، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، ط١، القاهرة، المعهد العالمي، ودار السلام للطباعة والنشر،.

٥- الاتحاد الإسلامي العالمي لعلماء المسلمين (٢٠٠٩) مجلة الأمة الوسط ، السنة الأولى ، العدد الأول.

٦- أوغلو ، د. أحمد داوود (   ) الإسلام في مهب الحضارات ترجمه وعلق عليه الدكتور بيومي غانم ؟؟

٧- البعلي ، د . عبد الحميد محمود (٢٠٠٩م) الأخلاق المهنية في المؤسسات المالية الإسلامية . الكويت : اللجنة الاستشارية للعمل على استكمال تطبيق الشريعة الإسلامية بالديوان الأميري.

٨- بهران ، محمد بن يحيى (١٣٤٩ هـ) الرسالة اليمنية : محجة الكمال في المذموم والممدوح من الأعمال . القاهرة : مطبعة الجمل المصرية .
٩- الجندي، المستشار عبد الحليم (١٩٨٤ م) القرآن والمنهج العلمي المعاصر . القاهرة : دار المعارف.
١٠- حسان، د. تمام (٢٠٠٣م) البيان في روائع القرآن . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب.
١١- الخطيب ، د . معتز (٢٠١٠م) مأزق الدولة بين الإسلاميين والليبراليين . القاهرة : مكتبة مدبولي.
١٢- الخوارزمي الكاتب، أبو عبد الله محمد (٢٠٠٤م) مفاتيح العلوم. تحقيق فان فلونين، تقديم عبد العزيز،د . محمد حسن . القاهرة : الهيئة العامة لقصور الثقافة.
١٣- دراز ، د. محمد عبد الله (١٩٩٨م) دستور الأخلاق في القرآن . ترجمة شاهين د. عبد الصبور القاهرة مؤسسة الرسالة
١٤- ــــــــــــ(٢٠٠٣م) مدخل إلى القرآن الكريم . ترجمة محمد عبد العظيم على ، الكويت : دار القلم ط ٥.
١٥- ــــــــــــ (٢٠١٠ م) الدين : بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان الكويت: دار القلم للنشر ط ٣.
١٦- الزرقاني ، محمد عبد العظيم (٢٠٠١م) مناهل العرفان في علوم القرآن القاهرة : دار الحديث.
١٧- زيمران، مايكل (٢٠٠٦) ترجمة روميه ، معين شفيق . الفلسفة البيئية . سلسلة عالم المعرفة التي تصدرها دولة الكويت . الكتاب رقم ٣٣٢.
١٨- سلامة ، د. أحمد عبد الكريم وآخرون (٢٠٠٥) حقوق الإنسان وأخلاقيات المهنة. القاهرة : جهاز نشر وتوزيع الكتب العلمية .
١٩- شمس الدين ، الشيخ محمد مهدي (١٩٩٢) في الاجتماع السياسي الإسلامي بيروت : المؤسسة الدولية للنشر.
٢٠- الشاطبي ، أبو إسحاق (٢٠٠٦م) الموافقات في أصول الشريعة . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٢١- عبد الباقي ، محمد فؤاد (١٩٧٣م) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : القاهرة : دار ومطابع الشعب.

٢٢- عبد الحليم ، د. أحمد المهدي (٢٠٠٤م) الثقافة الإسلامية محور لمناهج التعليم : رؤية التعليم من منظور إسلامي .القاهرة : مكتبة الشروق الدولية.
٢٣- عبد الفتاح، د. المعتز بالله(٢٠٠٨م) المسلمون والديمقراطية : دراسة ميدانية . القاهرة : دار الشروق.
٢٤- عثمان ، د. سيد أحمد (٢٠١٠م) التحليل الأخلاقي للمسئولية الاجتماعية . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية.
٢٥- عطية ، د. جمال الدين (٢٠٠٨) نحو تفعيل مقاصد الشريعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي (الطبعة الثانية).
٢٦- العلواني ، د. طه جابر (٢٠٠٦م) أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها الدراسة رقم (١) في سلسلة دراسات قرآنية . القاهرة : مكتبة الشروق الدولية.
٢٧- ــــــــــ (٢٠٠٦م) لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب الدراسة الرابعة في سلسلة الدراسات القرآنية. القاهرة : مكتبة الشروق الدولية.
٢٨- عمارة ، د. محمد (٢٠٠٤م) الإسلام والآخر الديني : من يعترف بمن ؟ ومن ينكر من ؟ القاهرة : مكتبة الشروق الدولية.
٢٩- ــــــــــ (٢٠٠٨م) الإسلام في عيون غربية : بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء . القاهرة : دار الشروق ط ٣
٣٠- العوا ، د . محمد سليم (١٩٨٣م) النظام السياسي لدولة الإسلامية القاهرة : دار الشروق الطبعة السادسة .
٣١- ــــــــــ (٢٠٠٦م) الفقه الإسلامي في طريق التجديد. القاهرة: سفير الدولية للنشر ط ٣.
٣٢- العوضي ، د. عبد الرحمن و د. احمد رجائي الجندي (٢٠٠٥م) الميثاق الإسلامي العالمي للأخلاقيات الطبية والصحية ، الكويت : المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية.
٣٣- الغزالي ، الإمام أبو حامد محمد ، إحياء علوم الدين (الجزء الأول) بيروت : المكتبة العلمية.
٣٤- الغزالي ، الشيخ محمد (٢٠٠٢) خلق المسلم . القاهرة : دار نهضة مصر .
٣٥- غليون، د . برهان ، العوا ،د. محمد سليم (٢٠٠٤) النظام السياسي في الإسلام : بيروت : دار الفكر المعاصر .

٣٦- الفنجري ، د. محمد شوقي (٢٠٠٨م)الوسطية في الاقتصاد الإسلامي القاهرة : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٣٧- القرضاوي ، د. يوسف (١٩٩١) الحلال والحرام في الإسلام القاهرة : مكتبة وهبة . (الطبعة العشرون).

٣٨- ــــــــــــــ (٢٠٠٥م) كيف نتعامل مع القرآن الكريم . القاهرة : دار الشروق ط (٤) .

٣٩- قطب ، الشهيد سيد (١٩٨٧) في ظلال القرآن . القاهرة : دار الشروق (ط ١٣) .

٤٠- ــــــــــــ (٢٠٠٩م) معالم المنهج الإسلامي ط ٢ القاهرة : دار الشروق .

٤١- مصطفي ، د . نادية محمود وآخرون (١٩٩٦) العلاقات الدولية في الإسلام (الجزء الأول) بمشاركة المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

٤٢- الماوردي ، أبو الحسن على البصري (١٩٨٨) أدب الدنيا والدين . القاهرة : الدار المصرية اللبنانية .

٤٣- النبهاني يوسف إسماعيل (بدون) دليل التجار إلى أخلاق الأخيار . القاهرة : مكتبة التراث الإسلامي.

٤٤- نصار ، د. جمال (٢٠٠٤) مكانة الأخلاق في الفكر الإسلامي ، ج م ع المنصورة : دار الوفاء .

٤٥- هونكة ، سيجريد (١٩٩٥ م) الله ليس كذلك ، ترجمة غريب محمد غريب : طبعة القاهرة.